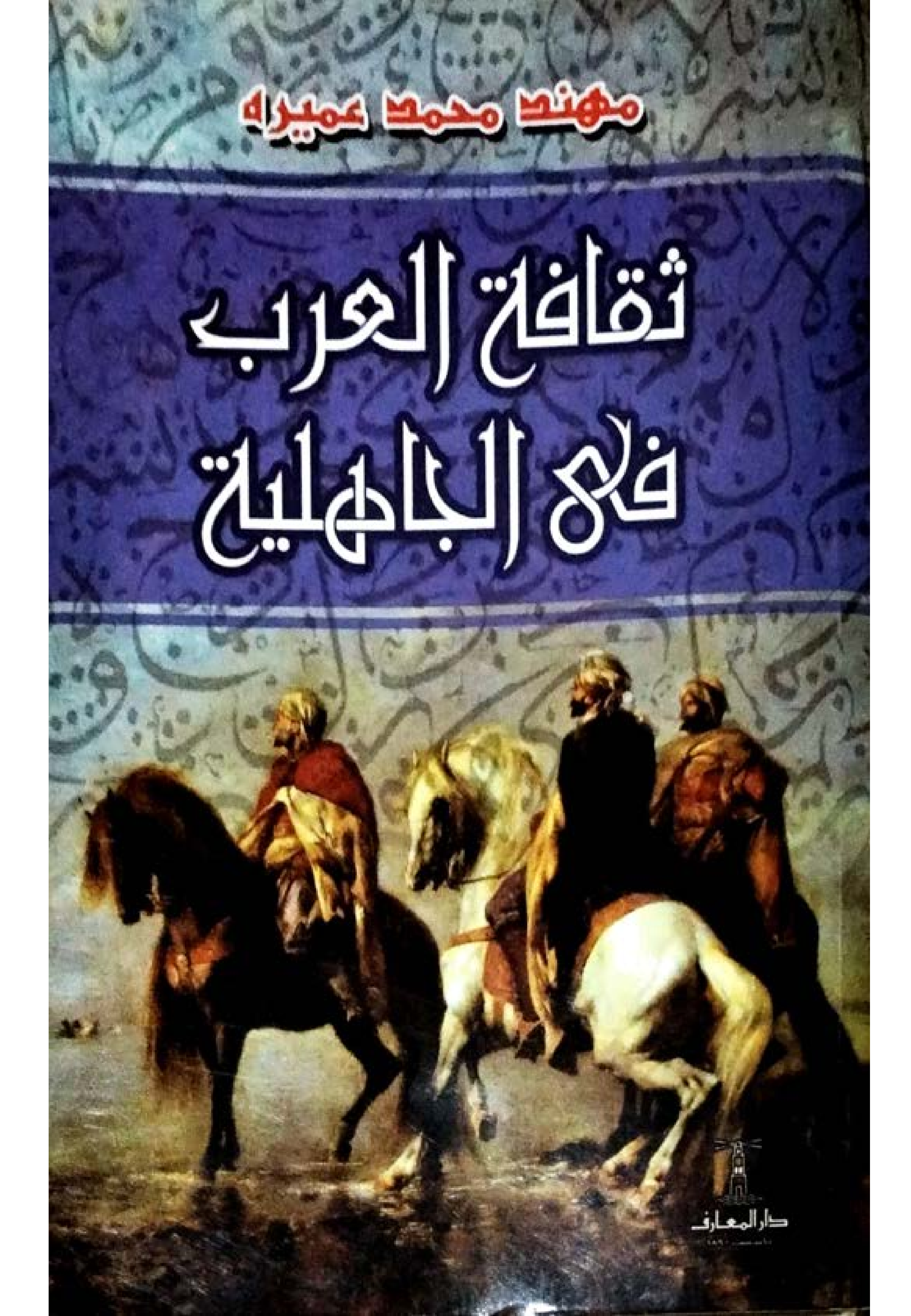

مهند محمد عميره
ثقافة العرب
في الجاهلية
دار المعارف

ثقافة العرب فى الجاهلية

The Culture of Arabs in Jahiliyya

مهند محمد عميره

Mohannad Mohammad Amireh

٢٠١٩ م





رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

تصميم الغلاف:

محمد عطية

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

عميرة، مهند محمد.

ثقافة العرب فى الجاهلية = The culture of Arabs
in Jahiliyya/ مهند محمد عميرة.

ط 1 - القاهرة: دار المعارف، 2018.

368 ص، 19.5 سم

تدمك 7 8862 02 977 978

1 - الثقافة العربية.

2 - الحضارة العربية.

(أ) العنوان.

تصنيف ديوى: 301.2

رقم الإيداع: 23389/ 2018

رقم أمر التشغيل: 1/2018/62

رقم الكونجرس: 3 - 840389 - 01 - 2

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهــــداء

إلى زوجتي العزيزة/ د.سلمى غنيم

مقدّمة

اعتنى كثير من الدّارسين بحضارة العرب قبل الإسلام، وأسلوب حياتهم، ولطالما كانت هذه الحضارة محطا اهتمام الباحثين بمختلف مجالاتهم، فدرسـها علماء الاجتماع، والنّفس، والأنثروبولوجيا، واللّغة، والأديان، والجغرافيـا، والحيوان، والنّبات، وغيرها من العلـوم، واهتمّ بها باحثون من مختلف أنحاء العالم، وعبر عصور مختلفة.

وكان الشّـعر هو مفتاح دراسـة هذه الحضارة، وأحد مصادرها المهمّة، إذ اهتمّ به العربُ الجاهليّون، ونظَموه في كلّ مناسباتـهم، ومواقفهـم، فتركـوا إرثًا شـعريًّا كبـيرًا عكس أسـلوب حياتهم وسلوكهم.

وبالإضافـة لكلّ هذا التّنوّع والثّراء المتعلّق بدراسـة هذه الفترة من الزّمان، إلّا أنّ أهداف الدّارسـين أيضًا قد تنوّعت -وهذا منطقي لحساسـيّة هذه الفترة، وارتباطها الوثيق بظهور الدّين الإسلامي- فدرسـها بعضهم مدفوعًا بالعاطفة، أو الحماسة، أو الفخر، وحمل آخـرون لواء الدّفـاع عن أديـان معيّنة، أو البحث عـن عثراتها، وجاء آخرون مدفوعين بنيّة تشـويه الشّرق وتاريخه، ومن العيوب العلميّة والأخلاقيّة للبحث العلمي دراسـة قضيّة ما بتوجّهٍ معيّن، فليس للباحث إلّا الحياد.

كما أنّ أغلب الدّراسـات التي تناولت الشّـعر الجاهلي لم تتقيّد

بنظريّة معيّنة، فغلبت عليها العشـوائيّة والدّوجمائيّة، والأحكام الشـخصيّة للكاتـب فى كثير من الأحيان، التـى لم تخضع لآليّات التقنين التى وصل إليها العلم الحديث.

يقدّم هذا الكتاب دراسـة موضوعيّة لثقافة العرب فى فترة قبل الإسلام، والمعروفة فى الأدب بالجاهليّة، وقد تمّ التّعامل مع شعراء هذه الفترة على أنّهم عيّنة الدّراسـة، فتمّ البحث عن شـعرهم فى مراجع الأدب العربى، وتحليل هذا الشّعر بناء على نظريّة حديثة نسـبيًّا فـى الثّقافة، ولم يسـبق عرضها فى أىّ كتـاب اهتمّ بنفس الهدف، وقد تمّ استثناء الكثير من شعر الشّعراء المخضرمين -وهم الذين عاشوا فى الجاهليّة وأدركوا الإسلام - مثل الحطيئة، وحسّان بن ثابت، وحميد بن ثور، وعمرو بن معد يكرب، والشمّاخ، وسويد بن أبى كاهل، وقيس بن عاصم، وأميّة بن الأسكر، وهذا الاستثناء قد شمل الشّـعر الذى صَعُبَ التحقّق من فترته، أمّا ما تمّ التأكّد من المصادر أنّه جاهلى فقد شُمِلَ، وهذا الاستثناء قد حدث لأنّ الإسلام غيّر كثيرًا فى ثقافة المجتمع، ودراسة ثقافة المجتمع العربىّ بعد الإسلام تخرج من أهداف هذا البحث.

ويتعـرّض الكتاب لأحـداث مهمّة فى هذه الفـترة مثل حرب البسـوس، وحرب داحس والغـبراء، وقتل عمرو بـن كلثوم لملك الحـيرة عمرو بن هند، وظهور الصّعاليك، وقدّم تفسـيرات مبنيّة على ثقافة المجموعة لسلوك الأفراد الّذى أدّى لهذه الأحداث.

ولهذا البحث -شأنه شأن أىّ بحث علمي - سلبيّات من شأنها إضعافه، ومن الممكن حصرها باثنتين، الأولى تتعلّق بآليّة جمع المعلومات -وهى مشكلة تواجه البحث العلمى الحديث المعنى بالمجالات الإنسانيّة - حيث لا يستطيع الباحث ضمان صدق عيّنته، وممّا يعمق هذه المشكلة فى هذا الكتاب أنّ العيّنة شعريّة، ممّا يُخضِع المادّة المدروسة بشكل كبير لخيال الشّاعر، فبالتّالى هناك فرصة ليست باليسيرة لابتعادها عن الحقيقة.

أمّا السلبيّة الثّانية فتتعلّق بصحّة وجود المادّة الأدبيّة محور الدّراسة، وهى القضيّة التى عُرفت فى الأدب بالانتحال، والذى يشير إلى نَسْبِ شعر إلى غير شاعره الحقيقى، ممّا يعنى إمكانيّة الإضافة، أو الحذف، أو التّعديل فى الشّعر الجاهلى، وقد تناول العديد من الباحثين هذه القضيّة، منهم -على سبيل المثال - ابن سلّام الجمحىّ، وطه حسين، وثيودور نولدكه **Theodor Nöldeke**، وبالرّغم من إثارة الموضوع منذ أكثر من ألف عام، وكثرة الرّدود عليه، إلّا أنّه ما يزال يشغل حيّزًا مهمًّا فى الأدب، لأنّ الرّدود عليه غير مقنعة ولا علميّة، بل ردود عاطفيّة اتّسمت بالهجوم أكثر من الإقناع، وبالتّزمّت أكثر من الموضوعيّة، بالإضافة إلى عدم طرح آليّة تاريخيّة أو لغويّة للتحقّق من صحّة الرّوايات الشّعريّة.

وقبل الحديث عن ما آلت إليه نتائج هذا الكتاب، فإنّه يستوجب

توضيح معنى الثقافة، والتى لا يوجد اتفاق على تعريف واحد لها شأنها شأن أغلب المفاهيم الخاصة بالعلوم الإنسانية، إلا أنه من الممكن تقديمها على أنها أنماط التفكير، والشعور، والتصرف التى يكتسبها ويتعلمها مجموعة من الأفراد من بيئتهم، وتتضح فى أبسط سلوكياتهم، مثل التحية، وطريقة الأكل (غيرت هوفستيد Geert Hofstede وآخرون، ٢٠١٠). وعرف سبينسر-واتى Spencer-Oatey (٢٠١٠) الثقافة على أنها «مجموعة من الافتراضات الأساسية، والقيم، والتوجهات الحياتية، والسياسات، والطرق، والتصرفات، المشتركة بين مجموعة من الأفراد، والتى توجه -وليس بالضرورة أن تحدد- سلوك كل فرد، وتفسيراته لمعانى تصرفات الآخرين». وتبنى الثقافة مجموعة من العوامل منها الدين، واللغة، والتاريخ، وطبيعة العمل، وجغرافيا المنطقة السكنية.

والثقافة تمثل المفتاح الأساسى للسلوك الإنسانى، ومن هنا تبرز أهمية دراستها، وقد اتجه العلم الحديث لربط الثقافة، ودراسة تأثيراتها، على السياسة، والاقتصاد، والفنون، والرياضة، والحضارة بشكل عام، وقد تختلف الثقافة داخل نفس المنطقة الجغرافية، إلا أنه من الممكن دراسة الثقافة على مستوى عرق، أو دولة، أو مجموعة من الدول، وقد تمت دراسة المجتمع العربى فى هذا البحث كأنه وحدة واحدة، إلا أن هذا لا ينفى وجود اختلافات

فى الثّقافة بين المجتمعات العربيّة المختلفة المتمثّلة بالقبائل.

ودراســة التّاريخ مهمّة لفهم عوامل نموّ أو انهيار الحضارات، كما أنّه جزء من شــخصيّة الحاضر، إذ لا تتطوّر ثقافة مجموعة من الأفــراد بمعزل عن تاريخهم، وبالإضافة للأهميّة التّاريخيّة لفترة الجاهليّة، فــإنّ لها أيضًا أهميّة دينيّة كبيرة، إذ أنّها تمثّل البيئة التى ظهر فيها الدّين الإسلامى، الّذى يُعدّ من أكثر الدّيانات اتّباعًا، ويقدّر مركــز «بو» للبحث العلمــى Pew Research Center (٢٠١٠) نسبة المسلمين فى العالم لعام ٢٠١٠ ب ٢٣.٢٪، وهو أكثر الدّيانات نموًّا، والجاهليّة مصطلح يطلق على العصر الذى عاش فيه العرب فى الجّزيرة العربيّة، وبعض المناطق فى العراق والشّام، لمدّة تراوح ١٥٠ عامًا، وتنتهى بظهور الإسلام (ضيف، ٢٠٠٨).

وأخيرًا فــإنّ تحليل الشّــعر الجاهلىّ قد تمّ باســتخدام نظريّة حديثة نســبيًّا قدّمها غيرت هوفســتيد Geert Hofstede عام ١٩٨٠، وتضّمنت هذه النظريّة تحليل الثّقافة بناءً على أربعة أبعاد رئيسيّة:

- بُعد المسافة، ويشــير إلى الفجوة بين الأفراد أصحاب الأدوار المختلفة.
- الذّكورة، ويشير إلى فرق الأدوار بين الرّجل والمرأة.
- الفرديّة، ويشــير إلى مدى ارتباط الأفــراد فكريًّا، واجتماعيًّا بمجموعاتهم الأكبر.

• عدم التيقّن، ويشير إلى مدى القلق من الغموض.

وتوالت الأبحاث العلميّة من هوفستيد نفسه، ومن باحثين آخرين حول العالم، وأسفرت نتائج أبحاثهم عن إضافة بعدين آخرين حتّى اللّحظة وهما:

• التّوجّه طويل المدى، الذى أضيف عام ١٩٩١، ويشير إلى المدى المستقبلى للتخطيط وتركيز جهود الأفراد.

• التّساهل، الذى أضيف عام ٢٠١٠، ويشير إلى مدى القدرة على التّعبير عن الرغبات الأساسيّة المرتبطة بالمرح.

ولكلّ بُعد مقياس من ٠ إلى ١٠٠، بحيث يكون لكلّ مجموعة موقع علي هذا المقياس بناءً علي سلوك أفرادها، وكلّما اتّجهنا نحو ١٠٠، كلّما ازداد البعد، مثلاً درجة ٨٠ على مقياس بُعد المسافة تعنى فجوة كبيرة بين الرّئيس والمرؤوس، بينما تعنى درجة ٢٠ على نفس البعد فجوة قليلة بينهما، فالثّقافة ليس فيها مفاضلة، بل هى وصف وأنواع.

يهدف هذا البحث دراسة ثقافة المجتمع العربى الجاهلى باستخدام شعر تلك الفترة، والتعرّف على موقعه على المقاييس الخاصّة بالأبعاد الثّقافيّة السّتّة، وتأثير هذا الموقع على الأسرة والمجتمع.

ooo

بُعد المسافة

تعريف ببُعد بُعد المسافة

هناك عدم مساواة فى الأدوار بين النّاس دائمًا فى أىَ مجموعة، حيث هنـاك الرّئيس والمرؤوس، ويملك بعض الأشـخاص قوّة، أو نفوذ، أو مكانة اجتماعيّة أعلى من غيرهم، والأمثلة على اختلاف الأدوار كثيرة، فمنها مثلًا، علاقة الابن مع أبيه، وعلاقة المواطن مع حاكمه، وتلعب عدّةُ عواملَ أدوارًا متفاوتة فى صنع هذا الاختلاف بين النّاس، مثل النّسـب، والعمر، والثّـروة، والمكانة الوظيفيّة، والمنصب السّياسى.

تختلف المجموعات من حيث تعامل أفرادها مع عدم المسـاواة، ويشـير البعد الثّقافى الخاصّ ببعد المسـافة إلى الفجوة التى تفصل الأفـراد الأدنى مكانة عن الأفـراد ذوى المكانة الأعلى، ويتمّ قياس هذا البعد بالاعتماد على وجهة نظر الأفراد أصحاب المكانة الأدنى، أى كيف ينظر الابن لأبيه، وكيف ينظر المواطن لحاكمه.

بناءً على ما سبق، يمكن تعريف بعد المسافة على أنّه مدى توقّع وتقبّل الأفراد ذوى المكانة الأقل لفكرة عدم التّساوى فى الأدوار بين أفـراد المجتمع، أو نظرة الأفراد الأقل شـأنًا فى المجتمع للأفراد

الأكثر شـأنًا، وتنعكس درجة بعد المسـافة ـ الّتـى تتمتّع بها أىّ مجموعـة – على سـلوك الأفراد وعلاقتهم ببعضهـم البعض – فى الأسرة والمجتمع – بشكل كبير، فنجد اختلافًا واضحًا فى علاقات أفراد الأسـرة مـع بعضهم، أو أفـراد المجتمع فيمـا بينهم، بين المجتمعات عالية بعد المسافة عن المجتمعات منخفضة بعد المسافة.

تأثير بُعد المسافة فى الأسرة

تفرض الأسر المنتمية للمجتمعات عالية بعد المسافة على أفرادها اختلافًا فى المكانة الاجتماعيّـة والنّفوذ داخل البيت، ويحكم هذا الاختلاف العمر والدّور، وهذا يخلق وضعًا أشـبه بترتيب للأفراد بناءً على مكانتهم داخل البيت، فنجد الأب والأمّ فى الصفّ الأوّل، ثمّ الإخوة والأخـوات فى صفوف مختلفة، غالبًا ما يحكم تنظيمها العمـر، أى نجد الأخَ الأكبر أو الأخت الكـبرى فى الصفّ التّالى، ثـم الأقلّ عمرًا، وهكذا وصولًا إلى الصفّ الأخير الّذى يشـغله الأخَ الأصغر أو الأخت الصغرى.

وتفرض هذه الأسـر علـى أفرادها الأقلّ شـأنًا احترام وتبجيل الأفراد الأكثر شأنًا، بل والخوف منهم أحيانًا، فنجد الأخ الأصغر يحـترم الأخَ الأكـبر، ويوقّرون ويخافـون الأب، أو الأمّ، أو كبير السـنّ، مثل الجدّ والعمّ والخال، ويسـتمرّ هذا الوضع طوال حياة هؤلاء الأفراد، ويفرض القانون غير المكتوب لهذه الأسر طاعة الأقلّ

شأنًا للأعلى شأنًا. فتوجيهات الآباء للأبناء تعدّ بمثابة الأوامر التي لا يرفضها الأبناء. في المقابل. فإنّ الأفراد الأعلى مكانة ينظرون للأفراد الأدنى مكانة نظرة مسؤوليّة. فيقومون برعايتهم. والاعتناء بهم. وتأمين احتياجاتهم. وبعد أن يكبر الآباء في السنّ. يقوم أبنائهم برعايتهم. مع حفظ مكانتهم الأعلى. التي تظهر في استشارهم في صنع القرار. وتقديم النّصيحة للأبناء في شؤون الحياة المختلفة.

على الطرف الآخر من القياس. هناك الأسر التي تنتمي لمجتمعات منخفضة بعد المسافة. حيث تغلب على العلاقات بين الأفراد فيها المساواة والنديّة. ولا يلعب العمر أو الدور أيّة أدوار في تحديد المكانة الاجتماعيّة والنّفوذ داخل البيت. فالأب والأمّ والإخوة والأخوات الصّغار والكبار لديهم حقوق متساوية.

تفرض الأسر منخفضة بعد المسافة على جميع الأفراد احترام بعضهم البعض بشكل متساو، أي لا تفرض تقاليد هذه الأسر طاعة الأقل شأنًا للأعلى شأنًا، فالكبير، والصّغير، والأمّ، والأب، وجميع أفراد الأسرة يتّخذون القرارات المهمّة، فلا تأتي التّوجيهات بشكل مركزي من ربّ البيت، ومن الممكن أن لا يستشير الأبناء آبائهم في القرارات المهمّة، وأن يتّخذوها وحدهم، كما يستطيع الأبناء رفض توجيهات آبائهم، أمّا الآباء فإنّهم لا يعيلون أبنائهم لفترات طويلة من حياتهم، إذ يستقلّ الأبناء بحياة خاصّة بهم في أعمار

مبكّرة، وبعد أن يكبر الآباء في السّن، تصبح علاقتهم بأبنائهم أشبه بعلاقة الأصدقاء، ولا يتوقع الآباء مساعدة أبنائهم.

الأسرة العربيّة الجاهليّة على مقياس بُعد المسافة

عناية الأبناء بآبائهم عند كبر سنّهم

يشير الشّعر الجاهليّ إلى أنّ الأسرة العربيّة في الجاهليّة كانت ذات درجة عالية من بعد المسافة. ذكر أميّة بن أبي الصّلت كيف كان يعتني بابنه وهو طفل صغير، ويسهر على راحته، وانتظر أميّة عناية ابنه به عند كبر سنّه، وهذا بحكم الواجب في الأسر ذات الدرجة العالية من بعد المسافة - كما ذكر سابقًا - وهذا ما توقّعه أميّة نتيجة ما رآه، وألِفه، واعتاد عليه، ولمّا لم يجد هذا المعتاد، عاتب ابنه على معاملته الفظّة معه، قال أميّة (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

غذَوْتُكَ مولودًا وَعُنتُكَ يافعًا
تُعَلُّ بما أَجْنِي عليك وتَنْهَلُ

إذا ليلةٌ آبتْكَ بالشَّجْوِ لم أَبتْ
لشَكْواكَ إلّا ساهرًا أَتَمَلْمَلُ

كأنّي أنا المطروقُ دوَنكَ بالذي
طُرِقْتَ به دوني فعينيَ تَهْمِلُ

تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِــي عليكَ وإنّنى

لأعلمُ أنّ المـــــوتَ حتمٌ مــؤجَلُ

فلمّا بلَغْتَ السّـــنَ والغاية التى

إليهـــا مدى ما كُنْتُ فيك أُؤمّلُ

جَعَلْتَ جـــزائى غِلْظة وفظاظة

كأنـك أنــتَ المنعـــمُ المتفضّلُ

احترام الأبناء لوصايا الآباء

ويحترم الأبناء وصايـا آباءهم، ويعملـون بنصائحهم، فالآباء سـلطة أعلى من الأبناء، ومن واجب الأبناء احترام هذه الســلطة. ومــن الأمثلة على احترام الأبناء لوصايا آبائهم قول طرفة بن العبد يشير إلى احترامه وصيّة والده (القيسىّ، ٢٠٠٢):

ومثلُ الذى أوصى به عَبْدَلُ أُمضى   قَدَ امْضَيْتُ هــذا من وصيّة عَبْدَلِ

دراسات سابقة عن احترام الأبناء لوصايا الآباء

ذكر الهاشمىّ (١٩٦٩) سـلطة الأبّ المطلقة فى الأسـرة العربيّة الجاهليّــة، حيث كان الآباء يتصرّفون فى أموال وشـؤون أبنائهم، كمــا أكّد خضــر (٢٠٠٥) على احترام الأبناء فــى الجاهليّة لوصايا آبائهم والتزامهم التامّ والمطلق بها.

احترام الأبناء لوصايا كبار السّن

وليس فقط الوالد الذى كان يوصى، بل أىّ شخص فى العائلة لديه دور أعلى، مثل العمّ. ذكر عنترة بن شدّاد احترامه لوصيّة عمّه له بأن يقاتل بشجاعة فى الحروب، قال عنترة (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

ولقد حفظتُ وصاةَ عمّىَ بالضّحى
إذ تقلصُ الشّفتانِ عنْ وضحِ الفمِ
فى حومةِ الحربِ التى لا تشتكى
غَمَرَاتِها الأَبطالُ غيْرَ تَغَمْغُمِ

تأثير بُعد المسافة فى المجتمع

وعلى مستوى المجتمع، فهناك اختلاف أيضًا فى سلوك الأفراد بناءً على درجة المجتمع على مقياس بعد المسافة، فالعلاقات بين النّاس فى المجتمعات عالية بعد المسافة يسودها شكل من أشكال الطّبقيّة، حيث ينقسم النّاس إلى طبقات اجتماعيّة وماديّة مختلفة، يحدّد هذه الطّبقات الثروة، والنّفوذ، والنّسب، ويسعى أصحاب الرّتب العالية فى إحداها إلى العلوّ أكثر فى المحدّدات الأخرى، فمثلًا يسعى رجال الأعمال الأثرياء لدخول المعترك السياسىّ لزيادة نفوذهم أكثر، ويسعى المشاهير فى المجتمع لدخول عالم

الأعمال لزيادة ثروتهم بالإضافة إلى نفوذهم، فتتَسع الفجوة أكثر بين الطّبقات الاجتماعيّة وتتَضح، فيملك الثروةَ والجاهَ فئةٌ قليلة، وتختفى فى معظم الحالات الطبقة الوسطى، وليس سعى الأفراد لزيادة نفوذهم إلّا بسبب فكرة نظرة الأفراد الأقلّ شأنًا لهم بعين من الاحترام والخوف، واستئثارهم بصنع القرار.

يحترم النّاس ذوو الوضع الاجتماعى الأقلّ فى هذه المجتمعات تصنيفهم المجتمعى، ويخافون الأكثر سطوة، ولا يتكلّمون عادةً فى أمور العامّة، أمّا ذوو الوضع الاجتماعى الأعلى فإنّهم يستخدمون القوّة كثيرًا لإثبات سطوتهم ونفوذهم، ونتيجة لهذه الفجوة الكبيرة فإنّ تغيير السّلطة أو محاسبة السّادة غير شائع، ولا يتمّ قبوله من السّادة، بل يُرفض غالبًا بالقوّة.

على الطّرف الآخر، هناك المجتمعات ذات بعد المسافة المنخفض، حيث يقلّ فيها وضوح الطبقيّة، ولا يعنى انتماء فرد ما فيها إلى طبقة ماديّة أو اجتماعيّة أعلى حصوله على حقوق أكثر من الآخرين، لذلك فإنّ الأفراد ذوى الوضع الأعلى فى إحدى محدّدات درجة الرّتبة الاجتماعية لا يسعون إلى وضع أعلى فى باقى المحدّدات، فيصبح مألوفًا أن يعمل شخص غنى فى وظيفة عاديّة، ممّا يساعد فى توزيع أكثر تساويًا لموارد المجتمع، والحفاظ على وجود الطبقة المتوسّطة لفترات أطول.

يحترم النّاس ذوو الوضع الإجتماعى الأعلى فى هذه المجتمعات

القانون، ولا يسعون لإثبات سطوتهم ونفوذهم بالقوّة، فمن غير المألوف استخدام القوّة فى غير مواضعها القانونيّة، ويتكلّم الجميع فى شؤون العامّة، وتسود الدّيمقراطيّة وتساوى الآراء، ونتيجة لعدم وجود فجوة بين أفراد المجتمع، فإنّ محاسبة السّادة - وربّما فضحهم أحيانًا - يعتبر أمرًا عاديًّا، ويتمّ تغيير السّلطة بسلاسة ويسر، ويقبل أفرادها هذا الأمر.

المجتمع العربىّ الجاهلىّ على مقياس بُعد المسافة الطّبقيّة

وبدراسة المجتمع الجاهلىّ، نجد أنّه عالى بعد المسافة، وهذا منطقى ويتّفق مع النّتيجة السّابقة للأسرة الجاهليّة على المقياس، إذ أنّ الفرد يخرج إلى المجتمع ويتفاعل معه بناءً على ما اعتاده فى بيته، والمجتمع هو بناء تتكوّن لبناته من الأسر. اتّضحت الطبقيّة فى المجتمع الجاهلىّ بوجود السّادة والعبيد، قال عنترة بن شدّاد العبسىّ (العبسىّ، ٢٠٠٤):

إنْ كُنْتُ فى عددِ العبيدِ فَهمَّتى
فوق الثّريا والسّماكِ الأعزلِ
أو أنكرتْ فرسانُ عبسٍ نسبتى
فسِنانُ رمحى والحسامُ يقرُّ لى

وبذابلي ومهنَّـدي نلتُ العُلاَ

لا بالقرابـةِ والعديـدِ الأَجـزلِ

ولم يخفِ عنترة العبسّـي إحساسـه بمكانة اجتماعيّة متدنيّة ناتجة عن لونه، فسعى للحصول على شأن اجتماعى أعلى عن طريق شجاعته وفروسيّته، قال عنترة (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

لئنْ يعيبوا سـوادى فهوَ لى نسبٌ

يَوْمَ النِّزَالِ إذا مَا فَاتَنى النَسـبُ

دراسات سابقة عن الطبقيّة

أكّد ضيـف (٢٠٠٨) على وجود الطبقيّة فى المجتمع الجاهلى، الّـذى تألّفت القبيلة فيه من ثلاث طبقات: أبناء القبيلة، والعبيد، والموالى، وكانت النّساء يقسّـمن إلى حرّات وإماء، وهناك تصنيفات داخل كلّ طبقة أيضًا، فكانَ من الحرّاتِ الشّريفاتُ ممّن لديهنّ المنزلة الأعلـى فى قومهنّ، أمّـا الإماء ففى طبقة أقـلّ، ومنهنّ عاهرات، وقيـان، ورعاة إبـل وغنم، وبلغ من دنـوّ منزلتهـنّ أنّ العرب لا يعترفون بأبنائهم منهنّ.

أهميّة النّسب القبلىّ

وكان النّسـب القبلىّ معيارًا مهمًّا وأساسيًّا لتحديد المكانة داخل

القبيلة نفسها -التى تمثّل المجتمع - وسيتمّ مناقشة هذا بالتّفصيل فـى الفصل الخاصّ بالفرديّـة، قال أميّة بن أبـى الصّلت مفتخرا بنسبه (القرشيّ، ١٩٨١):

فإمّـا تَسْـألى عنـى لُبَيْنَـى
وَعَـنْ نَسْـبَى أُخَـبِّرْكِ اليَقِينَـا
ثِقـى أنَـى النَبيـهُ أبًـا وأُمًّا
وأجـدادًا سَمَـوْا فـى الأقْدَمِينَا
لأفصـى عِصْمَةِ الأفصى قَسـى
علـى أفصَـى بِـنِ دُعْمِـىَ بُنِينَا
ودُعْمـىٌّ بِـهِ يُكَنَـى إيَـادُ
إلَيْـهِ تَنسـبى كَـىْ تَعْلَمِينَـا
وَرِثْنَـا المَجدَ عَنْ كُـبَرا نِزار
فَأَوْرَثْنـا مَآثِرَنَـــــا البَنِينَـا

وفى المقابل شَـعَرَ عروة بن الورد العبسـىّ بالعار بسـبب نسب أخوالـه إلى قبيلـة نهد، وهى قبيلة ذات شـأن قليـل، قال عروة (العبسىّ، ١٩٩٨):

ما بِــىَ مِن عارٍ إخــالُ عَلِمتُهُ

سِــوى أَنَّ أخوالى إذا نُسِــبوا نَهدُ

إذا ما أَرَدتَ المَجدَ قصَّرَ مَجدُهُم

فَأَعيــا عَلَــىَّ أن يُقارِبَنى المَجدُ

وردّ عنترة بن شدّاد العبسىّ على عمارة بن زياد، لمعايرته بلون أمّه، ممّا يعنى بأنّه أقلّ شأنًا، فقال (العبسىّ، ٢٠٠٤):

فَــإن تَــكُ أُمّــى غُرابيّــةً

مِــنَ ابنــاءِ حــامٍ بِهــا عِبتَنــى

فَإنّــى لَطيــفٌ بِبيــضِ الظُبى

وَسُمــرِ العَــوالى إذا جِئتَنــى

احترام الأعلى شأنًا

ولأنّ بعد المســافة عالى فى المجتمع الجاهلىّ، فيجب على أفراد القبائل الأقلّ شأنًا إظهار احترام أكبر للأفراد الأعلى، قال الشّنفرى الأزدىّ لجارية لطمته، ولم تحترم هذا العرف السّائد (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

ولو علمتْ قُعسـوسُ أنسـابَ والدى

ووالدِهــا ظَلّــتْ تَقاصَـرُ دونَهــا

أنا ابــن خِيارِ الحُجْرِ بيتًــا ومَنْصِبًا

وأمّــى ابنةُ الأحرارِ لو تَعْرِفينها

واســتهجن عنترة بن شــدّاد العبســىّ أســرَ وقَتْلَ بنى العشراء لقرواش بن هنىّ، وقد جاء هذا الاستهجان من عنترة بسبب أفضليّة نسب قرواش على بنى العشراء، قال عنترة (العبسىّ، ٢٠٠٤):

هَدِيكُــمُ خَــيرٌ أَبًا مِــن أبيكُمُ

أَعَــفُّ وَأَوفَــى بِالجِــوارِ وَأَحمَدُ

كان الحــارث بــن ظالم المرّىّ ســيّدًا من ســادة غطفــان، وفاتكًا مشــهورًا، فكان أنْ أُسِــر فى هِزّان، فاشتراه القيســيّون منهم بزقّ خمر وشاة، فقال مســتنكرًا هذه الواقعة، وهو السيّد الذى لا تليق به هذه المعاملة (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أَبْلِغْ لديكَ بنــى قَيْسٍ مُغَلْغَلَةً

أنّــى أُقَسَّــمُ فــى هِــزّانَ أرباعَا

ابنَــا حُلاَكةَ باعانــى بلا ثَمَنٍ

وبــاعَ ذو آلِ هِــزّانٍ بمــا باعــا

يا ابْنَىْ حُلاَكةَ لمّا تأخُذَا ثمنى

حتّــى أُقَسَّــمَ أفراسًــا وأدراعــا

قَتَــادةُ الخَيْرُ نالتنِــى حَذيَتُهُ

وكان قِدْمــا إلى الخــيراتِ طَلاّعا

تكافؤ المستهدف بالثأر مع القتيل

وإذا قُتل رجل شريف، صاحب مكانة كبيرة، فإنّ ثأره لا يتحقّق بقتل رجل ذى مكانة أقلّ به، بل يجب أن يكون المستهدف للقتل كفؤًا للقتيل، قال الأعشى ميمون فى هذا المعنى (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

لئنْ قتلتمْ عميدا لمْ يكنْ صددا

لنقتلــنْ مثلــهُ منكــمْ فنمتثــلُ

دراسات سابقة عن تكافؤ المستهدف بالثأر مع القتيل

وأكّد الفجّــاوى وآخرون (٢٠١٤) أنّ الإمام الشّــافعىّ قد فسّــر معنى حكــم الجاهليّة فى الآية الكريمة «أَفَحُكْــمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَــنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَــوْمٍ يُوقِنُونَ» بنفس المعنى، أى المفاضلة فى ديّات الرّجال.

طاعة الأفراد للسّادة والملوك

أمّا علاقة العربى فى الجاهليّة بحاكمه وأشــراف قبيلته، فهى علاقة أكثر تعقيدًا من أن يحكمها بعد ثقافى واحد، فالعربىّ يخشى ســادته، ويمدحهم، ويناشدهم لحلّ شؤونه وشــؤون قبيلته، وقد

يهرب إذا أساء إليهم، وقد يعتذر أيضًا على ذلك، وينتظر الحاكم انصياع الأتباع المطلق لأوامره بسبب علوّ درجة بعد المسافة، ولكنّ العربيّ - بالرّغم من ذلك - قد يتوعّد، ويهدّد سادته، وقد تصل الأمور لقتلهم في بعض الأحيان، وهذا نتاج أعراف أخرى تندرج تحت أبعاد ثقافيّة أخرى تلعب أدوارًا مهمّة أيضًا في تشكيل هذه العلاقة، مثل الذّكورة، والفرديّة، وسيتمّ دراستها في فصول لاحقة من الكتاب، فالأصل هو طاعة الأفراد للملوك والسّادة، والاستثناء هو تهديدهم أو التعرّض لهم.

قال امرؤ القيس الكنديّ مادحًا خالد بن سدوس، وواصفًا صورة السيّد القدوة الّذي يطيعه أتباعه في كلّ الأحوال والظروف (الكنديّ، ٢٠٠٤):

إذا ما كُنْتَ مُفْتَخِرًا فَفَاخِرْ
ببَيْتٍ مثل بَيْت بَني سَدُوسَا
ببيتٍ تبصرُ الرّؤساءَ فيهِ
قيامًا لا تُنازَعُ أو جُلوسا

وافتخر ذو الإصبع العدوانيّ بسادات قومه، حيث أنّهم يأمرون فيطاعون (الأصفهانيّ، ٢٠١٠)، فوصفهم قائلًا:

ومنهـم مَـنْ يُجِيـزُ النَـا
سَ بالسُّـنَةِ والفَـرضِ
ومنهـم حَكَـمٌ يَقْضِـى
فـلا يُنقَـضُ مـا يَقْضِى

وقال امرؤ القيس واصفًا علاقة أهله الملوك بأتباعهم، فهم السّادة الأرباب، والنّاس أقلّ شأنًا (الكندىّ، ٢٠٠٤):

ما يُنْكِرُ النّاسُ منّا حينَ نمْلكُهُم
كانـوا عبيـدًا وكنّا نحـنُ أرْبابا

مدح الملوك والسّادة

وكان المألوف مدح الحكّام، والأشـراف، والسّادة، قال أميّة بن أبى الصّلت الثقفىّ فى مدح سيف بن ذى يزن (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

لا يطلُبُ الثـأر إلاّ كابْنِ ذِى يَزَنٍ
فـى البَحْـر خيَّـم للأعـداءِ أحوالا
أتـى هِرَقْلَ وقـد شـالَتْ نَعامَتُهُ
فلـم يَجِدْ عنـدَه النّصرَ الذى سـالا
ثمّ انتحى نحو كِسْرى بعدَ عاشرةٍ
مـن السِّنينَ يُهـينُ النّفـسَ والمالا

حتّى أتـــى بِبَنِى الأَحرارِ يَقْدُمُهُمْ

تخالُهــم فــوقَ مَــتْنِ الأَرضِ أَجْبَالا

لله دَرُّهُــم مِــنْ فِتْيَــةٍ صَـبَروا

مــا إنْ رأيتَ لهم فى النّــاسِ أمثالا

بيــضٌ مَرَازِبَــةٌ غُلْــبٌ أسَــاوِرَةٌ

أســدٌ تُربِّتُ فــى الغَيْضاتِ أشـبالا

فالْتَطْ من المسك إذ شالت نَعَامتهم

وأسْـبِلِ اليـومَ فــى بُرْدَيْكَ إسبالا

واشرب هنيئًا عليك التّاجُ مرتفقًا

فــى رأس غُمْــدَانَ دارًا منك مِحْلالا

تلــك المــكارم لا قَعْبَان مِــنْ لَبَنٍ

شِــيبًا بمــاءٍ فعــادًا بعــدُ أبــوالا

ومدح عبيد بن سالم الخزرجىّ الملكَ الغسّانىّ أبا جُبيلة، بعد أن قتل أشراف اليهود فى المدينة، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

وأبو جُبيْلــةَ خيرُ مَنْ

يمشــى وأوفاهــم يَمينــا

وأَبَــرُّه بِــرًّا وأعْــــ

لَمُــهُ بعلـمِ الصَّالحينـا

أبقت لنا الأيَامُ والــــ

حَــربُ المهمَــةُ تعترينا

كبشًــا لنا ذَكَــرًا يفُلُّ

حسامُه الذَكْرَ السَّــنِينا

ومعاقــلاً شُمًّا وأســــ

يافًــا يَقُمــنَ وينحنينــا

ومحلّــةَ زوراءَ تُــر

جِفُ بالرِّجــال المُصلِتينا

وذكر أبو قردودة الطَائيّ الملكَ المنذر بن الأســود، ملك الحيرة، لزوجته، فقال مادحًا إيّاه (البغدادىّ، ١٩٩٩):

تُســائِلُنى طَلّتــى هَــل لَقيتَ

قابــوسَ فيمــا أَتيــتَ العِراقــا

فَقُلتُ لَهــا قَد لَقيــتُ الهُمامَ

منطلِقًــا بالخَميــس انطلاقــا

يَقـودُ الجيـادَ لأَرضِ العَـدوّ

فَقَـد آضَتِ الخَيـلُ شُـعثًا دِقاقا

سَـراعيفَ قَد عُطِّلَـت هُدَّجًا

أَمـامَ الرِّفـاقِ يَقُـدنَ الرِّفاقـا

شَماطيـطَ يَمزَعنَ مَـزعَ الظِّباءِ

لَم يَتَرِكْـنَ بِبَطـنٍ عِقاقـا

فَحيَّيتُـه إِذ رأَيـتُ الجمـوعَ

تُعارِضُـه باليَمـينِ الوِراقـا

ومـدح الأعشـى ميمون القيسـيّ الملكَ الأسـود بن المنـذر فقال (الدّينوريّ، ١٩٥٨):

لا تَشَـكَّى إِلَيَّ وَانتَجِعي الأَسـ

وَدَ أَهـلَ النَّـدى وَأَهـلَ الفِعـالِ

فَرعُ نَبعٍ يَهتَزُّ في غُصُنِ المَجـ

دِ غَزيـرُ النَّـدى شَـديدُ المِحالِ

عِندَهُ الحَزمُ وَالتُّقى وَأَسا الصَّر

عِ وَحَمـلٌ لِمُضلِـعِ الأَثقـالِ

وَصِلاتُ الأَرحامِ قَـد عَلِمَ النّا
سُ وَفَـكِّ الأَسـرى مِـنَ الأَغلالِ
وَهَـوانُ النَفسِ العَزيزَةِ لِلذِكـ
رِ إِذا مـا اِلتَقَت صُـدورُ العَوالي
وَعَطـاءٌ إِذا سَـأَلتَ إِذا العِـذ
رَةُ كانَـت عَطِيَّـةَ البُخَـالِ
وَوَفـاءٌ إِذا أَجَـرتَ فَمـا غُـرَّ
ت حِبـالٌ وَصَلتَهـا بِحِبـالِ

كان رجـل من أهل اليمن قد اشـترى بضاعة مـن رجل من بني سهم، في قريش، فلوى السهميّ بحقّه، فاستنجد اليمنيّ بقريش، ووصل الخبر إلى العبّاس بن مرداس السـلميّ، فناشـد العبّاسَ بن عبد المطّلب وأبا سـفيان، وطالبهما بردّ حقّ الرجل لإنّهم من سادة قريـش، وأوامرهم مطاعة، وعلى إثر هذه الواقعة تمّ إنشـاء حلف الفضول، قال العبّاس بن مرداس (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

وثَمَّ كُنْ بفنـاءِ البيْتِ مُعْتَصِمًا
تَلْقَ ابْنَ حَربٍ وتَلْقَ المرءَ عبّاسـا

قَرْمَى قُريشٍ وحَلًّا فى ذُؤابتها

بالمجد والحَزْمِ ما حازا وما ساسا

ساقِى الحجيج وهذا ياسرٌ فَلَجٌ

والمجدُ يورثُ أخماسًا وأسداسا

وفى واقعة مناشدة أخرى للملوك والسّادة، خاطب عبيد بن الأبرص الأسدىّ الملكَ حُجر الكندىّ، ملك كندة، وناشده الإفراج عن أسرى بنى أسد، الّذين كان بينهم عبيد نفسه، قال عبيد (الدّينورىّ، ١٩٥٨):

مَهلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ مَهْلا

إنَّ فيما قُلْتَ آمَةْ

فى كُلّ وادٍ بَيْنَ يَثْ

رِبَ والقُصُورِ إلى اليمَامَةْ

تَطْرِيبُ عانٍ أَوْ صِيَا

حُ مُحَرَّقٍ وزُقَاءُ هامَةْ

أَنْتَ المَلِيك عليهمُ

وهُمُ العَبِيدُ إلى القِيَامَةْ

وذكر المثقّب العبدىّ الملكَ عمرو بن هند مادحًا، فقال (الدّينورىّ، ١٩٥٨):

غَلَبْتَ مُلوكَ النَّـاس بالحَزْم والنُّهَى

وأَنْتَ الفَتَى في سُورَةِ المَجْدِ تَرْتَقِي

وأَنْجِبْ به من آل نَصْر سَمَيْدَع

أَغَـرَّ كَلَـونِ الهِنْدُوَانِـيِّ رَوْنَـقِ

وكان النَّابغة الذبيانيّ من جلساء النّعمان بن المنذر ملك الحيرة، فـكان أن حدث بينهما أمـر، فخاف النَّابغة من بطـش النّعمان، وهرب منه إلى الشّام، ثمّ أكثر من مدح النّعمان، والاعتذار له، قال النّابغة (التّبريزيّ، ١٩٨٠):

فتلـكَ تبلغنـي النّعمـانَ إنّ لـهُ

فضلًا على النّاس في الأدنَى وفي البَعَدِ

و لا أرى فاعلًا في النّاسِ يشبههُ

ولا أُحاشـي مـن الأقـوام مِـنْ أحَدِ

إلاّ سـليمانَ إذ قـالَ الإلـهُ لـهُ

قُـمْ في البريّـةِ فاحدُدْها عـنِ الفندِ

وخيّسِ الجنّ إنّي قـد أَذِنْتُ لهمْ

يَبْنُـونَ تَدْمُـرَ بالصُّفّـاحِ والعَمَـدِ

وقال في قصيدة أخرى في نفس المناسبة (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

فإنّـكَ شَمْسٌ والملـوكُ كواكبٌ

إذا طلعـتْ لم يبـدُ منهنّ كوكبُ

واعتذر النّابغة إلى النّعمان، فقال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

حَلَفْتُ فلمْ أترُكْ لنَفسِكَ ريبَةً

وليـسَ وراءَ اللهِ للمَـرْءِ مَذهَـبُ

لئنْ كنتَ قد بُلّغْتَ عنّي خيانةً

لَمُبْلغُـكَ الواشـي أغَـشُّ وأكذَبُ

ولستَ بمسـتبقٍ أخًا لا تلومهُ

على شَـعَثٍ أيُّ الرّجـالِ المُهَذَّبُ

وعندمـا ذهـب النّابغـة إلى الشّـام، مـدح عمرو بـن الحارث الأصغر الغسّـانيّ وأخاه النّعمان، وهم من ملوك الغساسـنة، فقال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

لهمْ شيمةٌ لم يعطها اللهُ غيرهمْ

منَ النّـاسِ والأحلامُ غيرُ عَوازِبِ

على عارفـاتٍ للطّعانِ عوابسٍ

بهـنّ كلـومٌ بـين دامٍ وجالـبِ

ولا عَيبَ فيهِمْ غيرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ

بهــنَّ فلولٌ مــنْ قــراعِ الكتائبِ

إذا استُنزِلُوا عَنهُنَّ للطَّعنِ أرْقَلوا

إلى الموتِ إرقالَ الجمالِ المصاعبِ

حَبَوتُ بها غسَّانَ إذْ كنتُ لاحقًا

بقَومــى وإذْ أعْيَــت عليَّ مذاهبى

ومــدح النَّابغة النَّعمانَ بن الحارث الأصغر، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

هــذا غُــلامٌ حَسَــنٌ وجهُــهُ

مقتبــلُ الخــيرِ ســريعُ التَّمــامِ

للحارِثِ الأكبرِ والحارثِ الــ

أصغــرِ والأعــرجِ خــيرِ الأنــامِ

ثــمَّ لهنــدٍ ولهنــدٍ فقــدْ

أســرع فى الخــيراتِ منــه إمامِ

خمســةُ آبــاءٍ وهــم مــا هُــمُ

هُمْ خيرُ من يشربُ صوبَ الغمامِ

ومدح النَّابغة الملكَ الحارث الأصغر، وقومَه، فقال (الذّبيانىّ، ٢٠٠٤):

وللحـــارثِ الجَفْنيّ ســيِّدِ قومِهِ

لَيَلْتَمِسَــنْ بالجَيْــشِ دارَ المُحارِبِ

و ثقتُ له النصرَ إذ قيلَ قد غزتْ

كتائــبُ مِــنْ غســانَ غيرُ أشائبِ

بنو عمّه دنيا وعمــرو بنُ عامرٍ

أولئِـكَ قــومٌ بأسُــهُم غــيرُ كاذبِ

إذا ما غزوا بالجيشِ حلّقَ فوقهمْ

عَصائــبُ طَـيرٍ تَهتَــدى بعَصائبِ

يُصاحِبْنَهُمْ حتى يُغِرْنَ مُغارَهم

مِـنَ الضّاريــاتِ بالدّماءِ الــدّوارِبِ

وقــال النّابغة يواســى النّعمان بن المنذر فــى مرضه، ويمدحه (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فإنْ يهلكْ أبــو قابوسَ يهلكْ

ربيــعُ النّــاسِ والشّــهرُ الحرامُ

ونمســكُ بعدهُ بذنــابِ عيشٍ

أجَــبَّ الظَّهْــرِ ليــسَ لهُ ســنَامُ

وقال يعتذر إلى النّعمان بن المنذر (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

نُبِّئْتُ أنَّ أبا قابوسَ أوْعَدَنى
ولا قرارَ على زأرٍ منَ الأسدِ
مَهْلاً فِداءٌ لكَ الأقوامُ كُلّهُمُ
وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومنْ ولدِ
إنْ كنتُ قلتُ الذى بُلّغتَ مُعْتَمِدًا
إذَن فلا رَفَعَتْ سوطى إلىَّ يدى
هذا الثّناءُ فإن تَسمَعْ به حَسَنًا
فلم أُعرّض أبيتَ اللّعنَ بالصَّفدِ

وها هو النّابغة قد اعترف صراحةً بضعفه أمام سطوة النّعمان بن المنذر، بل وقلّل من قدر نفسِه أمامه، مستخدمًا لفظة «عبد»، فأرسل له الاعتذارات مرّةً بعد مرّةٍ، قال النّابغة (الذّبيانى، ١٩٩٦):

فإنّكَ كاللّيلِ الذى هو مُدْرِكي
وإنْ خِلْتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسِعُ
خطاطيفُ حجنٌ فى جبالٍ متينةٍ
تمدّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ

أتوعـدُ عبـدًا لم يخنـك أمانةً

وتـترك عبـدًا ظالمًـا وهـوَ ظالـعُ

وأنتَ ربيعٌ يُنعِشُ النّاسَ سَيبُهُ

وسـيفٌ أُعِيرتْـهُ المنيّـةُ قاطِـعُ

أبـى اللهُ إلاّ عدلـهُ ووفـاءهُ

فلا النّكرُ معروفٌ ولا العرفُ ضائعُ

وتسـقى إذا ما شئتَ غيرَ مصردٍ

بزوراءَ فـى حافاتها المسـكُ كانعُ

ومـدح لبيد بن ربيعـة العامرىّ النّعمانَ بن المنـذر أيضًا، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

يا واهِبَ الخيرِ الكثيرِ مِنْ سَعةْ

إليـكَ جاوَزْنـا بـلادًا مُسْـبِعَةْ

ووقـف الحارث بن حلّزة اليشـكرىّ أمام عمـرو بن هند، ملك الحـيرة، فمدح أبـاه، المنذر بن ماء السّـماء، فقـال (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

فَمَلَكنـا بِذَلِـكَ النّـاسَ حَتّـى

مَلَـكَ المُنـذِرُ بِـنُ مـاءِ السَّـماءِ

وَهُوَ الـرَّبُّ وَالشَّـهيدُ عَلى يَو

مِ الحَيارَيـــنِ وَالبَـلاءُ بَـلاءُ

ملـكٌ أضلـعَ البرِيَّـةَ لا يُـو

جـدُ فيهـا لمـا لديـهِ كفـاءُ

ردّ الملوك على الهجاء

وردُّ الملوك على من يهجوهم يكون قاسيًا فى أغلب الأحيان، فقد قتل عمرو بن هند ملك الحيرة طرفةَ بن العبد البكرىّ، الذى كان قد قال فيه (الدّينورىّ، ١٩٥٨):

لَيْـتَ لنا مـكانَ المَلْـكِ عَمْرٍو

رَغُوثًـا حَـوْلَ قُبَّتِنَـا تَخُـورُ

دراسات سابقة عن علاقة الأفراد بالملوك والسّادة

أكّد طقّوش (٢٠٠٩) على طاعة الأفراد لشيوخ قبائلهم، ولكنّه نفى أن يكون قرار شيوخ القبيلة مركزيًا، إذ أنّهم مضطرّون لاستشارة الزّعماء، وأهل الرأى، بينما ذهب ضيف (٢٠٠٨) إلى أبعد من ذلك، حيث ذكر أنّ جميع أفراد القبيلة كانوا أكفّاء، واستشـهد على ذلك

بوجود نظام الإجارة -هى أن يعطى أىّ فرد من القبيلة حقّ التوطّن لأىّ فرد من خارجها، فتصبح القبيلة ملزمة به - وأكّد أنّ لشـيوخ القبيلة التّوقير، ولكن ليس لهم البغى والتّجاوز.

أمّـا على (١٩٩٣) فقد قال أنّ الملوك فـى الجاهليّة كان لها حقّ الطّاعـة، والجبايـة، والنّفـير والحرب، وليس للأفـراد الخروج عليهـم، وقد كانوا أصحاب أراضى الدّولة وأحـرار التّصرّف بها، وكانـت لهم غنائم الحروب، وقـال أيضًا أنّ لسـادات القبيلة عدّة حقوق منها المرباع -وهو حقّ سيّد القبيلة بأخذ ربع الغنائم إذا وقع الغزو - والصّفايا، وهو ما يصطفيه رئيس القبيلة لنفسـه من خيل أو جوارى أو أموال.

لم يقدّم أغلب دارسـى الثّقافة الجاهليّة تفسـيرًا واضحًا لعلاقة الأفـراد بالملوك، وقـد خلطوا الأبعاد الثّقافيّة فـى أغلب الأحيان، فتحدّثوا عـن التّحدّى، والتّهديد، والولاء، والمديح فى نفس الآن، ممّا جعلهم يسـتنتجون أنّها علاقة عصيّة علـى الفهم، كما قدّمها طقّـوش (٢٠٠٩) وضيـف (٢٠٠٨)، فمثلًا قال ضيـف (٢٠٠٨): «وعلى نحو ما أكثر الشّـعراء فى مديح النّعمان بن المنذر وأسـلافه أكثروا من اسـتعطافهم حتّى لا تغزوهم جيوشـهم وقد يشكون من ثقـل الضّرائب وممّا كانوا يدفعون ويؤدّون من الإتاوات فى أسـواق العراق وغير أسـواق العراق»، وأكّد أيضًا على توافد بعض الشّعراء العـرب فى الجاهليّة على الملوك لغرض مدحهم، فمدح حسّـان بن

ثابت الخزرجىّ الملك عمرو بن الحارث بن جبلة. وغيره من ملوك الغساسنة، وتوافد عدّة شعراء على ملك الحيرة عمرو بن هند لمدحه، مثل أوس بن حجر التّميمىّ. ولبيد بن ربيعة العامرىّ، والمنخّل اليشكرى، والمثقب العبدى. وحجر بن خالد. والنّابغة الذّبيانىّ، ولكنّه تحدّث أيضا عن هجاء بعض الشّعراء. مثل يزيد بن الخذّاق، وعبد قيس البرجمىّ للملك عمرو بن هند. كما أكّد على أنّ الموالاة فى الجاهليّة لا تكون إلّا بعصبيّة قبليّة.

فى حالات كثيرة يكون السّلوك متماشيًا مع أكثر من بعد ثقافى، ويعتاده الأفراد. ولكن فى حالات أخرى يصطدم فرد ما بموقف جديد لم يألفه، وهذا الموقف يضعه بين خيارات صعبة. تجعله يتماشى مع بعد لصالح بعد آخر، فيختار البعد ذا الدّرجة الأعلى دون أن يشعر، والجزء المتعلّق بهجاء، وتهديد، وقتل الملوك والسّادة، يعدّ من الأمثلة على ذلك، وسيتمّ مناقشته فى فصول الذّكورة، والفرديّة.

ooo

الذَكورة

تعريف بُعد الذَكورة

تتكوّن المجتمعات الإنسانيّة من جنسين مختلفين، هما الذَكور والإناث، والاختلافات بين الذَكور والإناث منها المطلق، والإحصائى، والنّسبى، فمثلاً كلّ الذكور يختلفون عن كلّ الإناث بيولوجيًا، فهو اختلاف مطلق يشمل الكلّ، بينما هناك اختلافات أخرى لا تشمل كلّ الجنس، فمثلًا يعتبر الذَكور أطول من الإناث بالمعدّل، فهو اختلاف إحصائى لا يشمل كلّ الجنسين بالضّرورة، فبعض الإناث أطول، وهناك اختلاف فى الأدوار بين الذَكور والإناث، وهذا الاختلاف نسبى، بمعنى أنّ يتمّ فرض مهامّ وصفات معيّنة للذَكور، وأخرى للإناث، فى مجتمع ما، وتختلف هذه المهامّ والصّفات من مجتمع لآخر.

تعتبر بعض السلوكيّات أنثويّة وبعضها ذكوريّة، ومعيار التّحديد هو الثّقافة، وتحديدًا بُعد الذَكورة، فكلّما زادت الفجوة فى الأدوار المتوقّعة بين الذَكور والإناث، كلّما زادت درجة المجموعة على مقياس بُعد الذَكورة، فمثلًا يعمل الرّجل خارج المنزل والمرأة داخله، فهذا مجتمع عالى الذَكورة، بينما إذا كان المتوقّع أن يقوم الذَكور والإناث بمهامٍ مشتركة، فإنّ درجة الذَكورة

تكون منخفضــة، فمثلًا يعتنــى الذّكور والإنــاث بالأطفال، فهذا مجتمع منخفــض الذّكورة، فبالتّالى من الممكن تعريف بُعد الذّكورة على أنّه حجم الفجوة فــى الأدوار بين الذّكور والإناث، وتأثيرات البعد الثّقافى الخاصّ بالذّكورة تشمل الأسرة والمجتمع، شأنه شأن الأبعاد الأخرى.

تأثير الذّكورة فى الأسرة

فى الأســر المنتمية لمجتمعــات عالية الذّكــورة، تكون الأدوار مختلفــة تمامًا بــين الأب والأمّ، حيث يعمــل الأب خارج المنزل، وتعمل الأمّ داخله، ونتيجةً لهذا الاختلاف فى الأدوار والمسؤوليّات، يتّصف الآباء بسمات معيّنة، فمسؤوليّة حماية الأسرة مثلًا تتسبّب فى اتّصافهم بالحزم، والعصبيّة، والغلظة، ومسؤوليّة إعالة الأسرة تجعلهم يســعون نحو الكســب المادى، ويهتمّــون بالحقائق أكثر مــن العواطف، أمّا الأمّهات فمســؤوليّاتها داخــل المنزل تزيد من اهتمامها بالبحث عن الاستقرار، والحصول على علاقات أفضل مع النّــاس، ودورها فى التربية ينمّى مســؤوليّاتها العاطفيّة -بالرغم من اتّســامها بالعصبيّة والحزم فى أحيان كثــيرة أيضًا - بالإضافة لطاعتها المطلقة لزوجها، والأبناء بينهم فجوة أيضًا، حيث تختلف الأنثى عن الذّكر فى المســؤوليّات، بل وحتّى التّقدير الأســرى، إذ يُقدّر الابن أكثر من البنت.

أمّا فى الأســر منخفضة الذّكورة، فإنّ الأدوار متماثلة بين الأب والأمّ، فيعمــل الاثنــان داخل المنزل وخارجــه، ويتّصفون بصفات متشــابهة تقريبًا نتيجةً لتشــابه الأدوار، فالحــزم والحنان صفة الاثنين فــى أوقات مختلفة عند اقتضاء الأمر، ومســتوى العصبيّة والغلظة فى التّعامــل قليل، ويطغى عليهما الاعتدال، والبحث عن العلاقــات الجيّدة والاســتقرار مهمّان، ولا تصنّــف الأمّ على أنّها تابعة للأب، ولا يتوقّع منها الانقياد الأعمى له، كذلك الأدوار بين البنات والأولاد متشابهة، والتّقدير الأسرى لهما متساوٍ، أمّا علاقة الأبناء بالآباء فيحكمها بعد المسافة المذكور فى الفصل السّابق، وهو غــير مرتبط بالذّكورة، فمن الممكــن أن يكون المجتمع عالى الذّكورة ومنخفض بعد المسافة، أو عالى الذّكورة وعالى بعد المسافة.

الأسرة العربيّة الجاهليّة على مقياس الذّكورة

القرارت الأسريّة شأن الرّجال

وفى نظرة متفحّصة لبعد الذّكورة فى الأســرة العربيّة الجاهليّة بنــاءً على الّذى وصلنا من أشــعارهم، نجد أنّ بعــد الذّكورة مرتفع جدًّا، فالرّجل يتّخذ القرارات الخاصّة بالأســرة، وتتبعه زوجته. وصف الشّنفرى الأزدىّ نفسه بأنّه ليس ذاك الجبان الكسول الملازم لزوجته، وافتخر بأنّه لا يستشيرها فى ما يفعل، فالرّأى فى الأسرة للزّوج فقط، قال الشّنفرى (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

ولستُ بمهيافٍ يُعَشّي سَوامَهُ

مُجَدَّعَــةً سُــقبانُها وهــي بُهَّلُ

ولا جُبَّأٍ أكهَى مُربٍّ بعرسِــه

يُطالعها فى شــأنِه كيــفَ يفعلُ

دراسات سابقة عن كون القرارات الأسريّة شأن الرّجال

أكّد على (١٩٩٣) أنّ الرّجل فى الأســرة الجاهليّة قد منح نفسه حقوقًا لم يعطها لأهل بيته الآخرين، واســتأثر بالعديد من الحقوق والميّــزات، وهذا بحكم تفوّق قوّته البدنيّــة على الأفراد الآخرين، وقد بنى على هذه القوّة آليّــات التّعامل فى البيت، وأبرزها اتّخاذ القرار.

الأعمال المنزليّة والتّربية والتّطبيب شأن النّساء

أمّا الزوجــة، فمهمّتها الإنجاب، والعناية بــالأولاد، فعملها مقتصر على شــؤون البيت الداخليّة، وقياسًا على هذا، فإنّ الزوجة الّتــى لا تنجب تُعدّ أقلّ شــأنًا، قال عبيد بن الأبــرص (الزّوزنىّ، ١٩٨٠):

أَعاقِــرٌ مِثــلُ ذاتِ رحم

أَم غَــانِمٌ مِثلُ مَــن يَخيبُ

ومـن مهمّات المـرأة أيضًا العنايـة والتّطبيب، لمـا تحتاجه من متطلّبـات عاطفيّة. كان أوس بن حجر التّميميّ قد سـقط عن ناقة، فقامـت حليمـة بنت فَضالـة بن كَلَـدة بالاعتناء بـه، فقال فيها (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

لَعَمْـرُكَ ما مَلّتْ ثَـوَاءَ ثَوِيِّها

حليمـةُ إذْ ألقـى مراسـيَ مُقْعَدِ

ولكنْ تَلَقَّـتْ باليدينِ ضمانَتي

وحـلَّ بشـرجٍ مِ القبائـلِ عُوّدى

ولمْ تُلهِها تلكَ التّكاليفُ إنّهَا

كما شـئتَ من أكرومـةٍ وتخرُّدِ

ومـن المسـتغرب، وغير المألـوف ولا المقبول رؤيـة رجل يقوم بأعمـال منزليّـة. رأت زوجـة الهُذلول بن كعـب العَنْبَريّ زوجـها يطحن، فضربـت صدرها، وقالت: «أهذا زوجـي!»، فردّ عليها، وبـرّر لها أنه خـادم ضيفه، ولكنّـه فارس مقدام، قـال الهُذلول (الطّائيّ، ١٩٩٨):

تقـولُ ودقّـتْ صدرَهـا بيمينِهـا

أبَعلـي هـذا بالرَّحـى المُتقاعـسُ

فقلــتُ لهــا لا تَعجَلــى وتَبَيَّنِــى

فِعــالى إذا التفَــتْ علــيَّ الفــوارسُ

ألســتُ أردُّ القِــرْنَ يركــبُ رَدْعَــهُ

وفيــهِ سِــنانٌ ذو غِرارَيــنِ يابــسُ

وأحتمــلُ الأَوْقَ الثَّقيــلَ وأَمْــترى

حُلــوفَ المنايــا حــينَ فــرَّ المُغامِــسُ

وأَقْــرِى الهُمُومَ الطَّارِقــاتِ حَزَامَةً

إذا كثُــرَتْ للطَّارِقــاتِ الوَسَــاوسُ

إذا خــامَ أقــوامٌ تَقَحَّمْــتُ غَمْــرَةً

يهــابُ حُمَيَّاهــا الألــدُّ المُداعِــسُ

لعَمْــرُ أبيــك الخــيْرَ إنَّــى لخادمٌ

لِضَيْفِــى وإنَّــى إنْ ركبــتُ لفــارسُ

وإنَّى لأشْــرِى الحَمْدَ أبْغِى رِباحَهُ

وأَتْــرُك قِرْنــى وهُــوَ خزْيَــانُ ناعِسُ

دراسات سابقة عن الأدوار الأسريَة للمرأة

وقــد اتفَّقت بعض هذه النَّتائج مــع ما عرضه الحوفى (١٩٦٣)، الَّذى أكَّد على أنَّ تربية الأبناء، ورعاية شؤون المنزل، والتَّطبيب هى

من أعمال المرأة العربيّة في الجاهليّة، ولكنّ الحوفي (١٩٦٣) أضاف بعض المهن الّتي تقوم بها المرأة داخل البيت مثل الغَزْل، والنّسج، وأعمال أخرى خارجيّة مثل التّجميل، والتّزيين، والإرضاع، ورعي الإبل والغنم، والكِهانة والعرافة، وذكر علي (١٩٩٣) أنّ المرأة الجاهليّة كانت أكثر نشاطًا من الرّجل داخل المنزل، وكان من أعمالها تحضير الطّعام، وغسيل الملابس، والغَزْل، والعناية بالأطفال.

وأد البنات

وقد ذُكر في الكثير من الكتب والأبحاث تفضيل المواليد الذّكور على الإناث عند الكثير من العرب في الجاهليّة، لدرجة بلغت ببعض العرب دفن البنات وهنّ أحياء -الوأد (طقّوش، ٢٠٠٩؛ وضيف، ٢٠٠٨؛ ورودجرز ميلر Rodgers-Miller، ٢٠٠٤؛ والحوفي، ١٩٦٣)، ولم أجد ممّا راجعته من الشّعر الجاهليّ ما يشير إلى ذلك، ولكن وجدت إشارات شعريّة في عصور لاحقة تتحدّث عن الوأد في فترة الجاهليّة.

حماية نساء الأسرة

وحماية نساء الأسرة هي مهمّة أخرى لرجالها، فالرّجل هو القويّ، والمرأة تابعة له. كانت ليلى بنت لكيز -المعروفة بليلى العفيفة- اختُطِفت في فارس، وكان ابن كسرى يحاول أن ينال

مراده منها، فاستنجدت بالبرّاق بن روحان البكرىَ -خطيبها وابن عمّها - وبإخوتها، قالت ليلى العفيفة (شيخو، ١٩٩١):

ليــتَ للــبرّاق عينًــا فــترى
مــا أقاســى مــن بــلاءٍ وعنــا
يــا كليبًا يــا عقيــلاً إخوتى
يــا جُنيــدًا ســاعدونى بالبُــكا
عُذبــتْ أختكــمُ يــا ويلكــمْ
بعــذابِ النُكــر صبحًــا ومســا
يكــذبُ الأعجــمُ مــا يقربنى
ومعــى بعــضُ حساســاتِ الحيا

والّذى لا يســتطيع حماية نسائه، يستحق أن يُعيّر بذلك، قالت ســلمى بن المُخَلَف تعيّر مالك بن كعب - المُلقّب بجوّاب - والطُفيل بن مالك لهروبهما وتركهما النّساء يوم النّسار (الجزرىّ، ٢٠١٠):

لحــى الإلــهُ أبــا ليلــى بفَرّتِهِ
يــوم النِّســارِ وقُنْبَ العــير جوّابا
كيف الفخار وقد كانت بمعتركٍ
يــوم النِّســار بنــو ذبيــان أربابــا

لم تمنعوا القومَ إنْ أشْلَوْا سوامَكُمُ

ولا النّساء وكان القوم أحرابا

وصايا الآباء للأبناء بالحرب

وفي وصايا الآباء لأبنائهم الذّكور الحثّ على اظهار القوّة، والمشاركة في الحرب، والتّجهيز لها، وأخذها على العاتق، قال ذو الإصبع العدوانيّ يوصي ابنه أسيد (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

وإذا القُرُومُ تخاطَرتْ

يومًا وأرعَدَتِ الخَصِيلا

فاهصِرْ كهَصْرِ اللّيثِ

خَضَّبَ مِن فَريستهِ التَّلِيلا

وانزِلْ إلى الهيجَا إذا

أبطالُها كَرِهوا النَّزولا

وإذا دُعِيتَ إلى المُهِمِّ

فكن لفَادِحِهِ حَمُولا

وذكر الأعشى ميمون وصايا أبيه له، ومنها أهميّة القتال عند الحاجة له، قال الأعشى (القيسيّ، ١٩٥٠):

إنَ الأعَـزّ أبَانَـا كَانَ قَـالَ لَنَا
أوصيكـمُ بثـلاثٍ إنّنـى تلـفُ
الضَّيْفُ أُوصِيكُمْ بالضَّيْفِ إنَّ لَهُ
حَقًّـا علـىّ فَأُعْطِيـهِ وَأعْـتَرِفُ
وَالجَارُ أُوصِيكُمْ بِالجَارِ إنّ لَهُ
يومًا منَ الدّهـرِ يَثنيهِ فينصرفُ
وَقاتِلوا القَوْمَ إنّ القَتْلَ مَكْرُمَةٌ
إذا تَلَـوّى بِكفّ المُعْصِـمِ العُرُفُ

تأثير الذكورة فى المجتمع

تتعـدّى تأثيرات درجـة الذّكورة الأدوارَ بين الجنسـين داخل الأسـرة، وتمتدّ إلى المجتمع، يسعى الذّكور فى المجتمعات عالية الذّكـورة لإثبات قدرتهم على الاختــلاف، والتميّز، والتفوّق، ممّا يـؤدّى لاتّصافهم بصفـات معيّنة مثـل التّحدّى، وكثـرة التّهديد والوعيد، والغلظة فى التعامل وإظهار الشِـدّة، والعصبيّة، وترتفع فيمـا بينهم درجة المنافسـة، وحدّتها، ومـا تتضمّنها من غيرة، ورغبـة فى الإنجاز بأنواعـه -وخصوصًا الإنجاز المـادّ ى - وذكر الإنجازات مرارًا، ويبالغ الذّكور أيضًا فى هذا النّوع من المجتمعات فى الحكم على قدراتهم وإمكانيّاتهم، ووصف أنفسهم، أمّا الإناث

فهم أقلّ شأنًا فى المجتمع، وليس لديهنّ أدوار قياديّة، بل يُعاملون معاملة التّابعات للذّكور.

فى المجتمعات الّتى تسجّل درجات منخفضة على مقياس الذّكورة، لا تختلف أدوار الذّكور كثيرًا عن الإناث، فليس للذّكور قيمة أعلى، فبّالتالى لا يسعون للتميّز والتفرّد لإشباع هذا الفرق، حيث لا يوجد فرق من الأساس، وهذا يؤدّى لاتّصاف الذّكور والإناث بصفات الكياسة والوسطيّة، وتقلّ حدّة المنافسة بين الذّكور، ويقلّ ادّعاء القوّة، والمعرفة، وحبّ الظهور، وللإناث قيمة متساوية مع الذّكور فى هذه المجتمعات، ومن المتوقّع والمقبول تبوّؤ الإناث مناصبَ قيّاديّة فيها.

المجتمع العربىّ الجاهلىّ على مقياس الذّكورة

التّحدّى

نبرة التّحدّى فى الشّعر الجاهلىّ واضحة وعالية، والأمثلة عليها كثيرة جدًّا، قال عنترة بن شدّاد العبسىّ (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

وَمَن لَم يُروِّ رُمحَهُ مِن دَم العِدا
إذا اشتَبَكَتْ سُمرُ القَنا بِالقَواضِبِ
وَيُعطى القَنا الخَطِّىَّ فى الحَربِ حَقَّهُ
وَيَبرى بِحَدِّ السَيفِ عُرضَ المَناكِبِ

يَعيــشُ كَما عــاشَ الذَليــلُ بِغُصَّةٍ

وَإن مــاتَ لا يُجــرى دُمــوعَ النَوادِبِ

وقال أيضًا (العبسىّ، ٢٠٠٤):

حكَمْ سيُوفَكَ فى رقابِ العُذَّل

واذا نزلــتَ بــدارِ ذلّ فارحــلِ

وإذا بُليــتَ بظــالم كُــنْ ظالمًا

وإذًا لقيتَ ذوى الجهالةِ فاجهلِ

وإذا الجبانُ نهاكَ يوْمَ كريهةٍ

خوفًــا عليكَ من ازدحام الجحفلِ

فاعْصِ مقالَتــهُ ولا تَحْفلْ بها

واقْــدِمْ إذا حَــقَّ اللّقا فــى الأَوَّلِ

واختَرْ لِنَفْسِــكَ منْزلًا تعْلو بهِ

أَوْ مُتْ كريمًا تَحْتَ ظلِّ القَسْــطلِ

وقال طرفة بن العبد البكرىّ (التَبريزىّ، ١٩٨٠):

أناالرَجُلُالضَّرْبُالذىتَعرفونَهُ

خَشــاشٌ كــرأسِ الحيَــةِ المتوقدِ

فآلَيْتُ لا يَنْفَكُّ كَشْــحى بِطانَةً

لعضْبٍ رقيــقِ الشَّــفرتينِ مهنَّد

وقال عمرو بن كلثوم التَّغلبىّ (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

مَنْ عاذَ مِنِّى بعدها فلا اجْتَبَرْ

ولا ســقى الماء ولا أرعى الشَّجرْ

بنــو لجَيْمٍ وجعاســيسُ مُضَرْ

بجانــب الــدَّوِّ يُدَهْــدُون العَكَرْ

وقال الحارث بن ظالم المرّى (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أنا أبو ليلَى وسَيْفِى المَعْلُوبْ

كَم قد أَجَرْنا من حَرِيبٍ محروبْ

وكم رَدَدْنا من سَلِيبٍ مسلوبْ

وطَعنَــةٍ طعنتُهــا بالمنصــوبْ

ذاك جيهزُ الموت عند المكروبْ

هل يخرجن ذودك ضرب تشذيب

وقال الأضبط بن قُريْع التَّميمىّ (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أنا الَّــذى تفرُكه حلائلُهْ

ألا فتـــىً مُعشَّـــقٌ أُنازلُــهْ

التَّهديد والوعيد

وقد كَثُر أيضًا الخطاب المباشر الَّذى يحمل صيغة التَّهديد لشخص معـــيَن، أو قبيلة بعينهـــا. قال المهلهل بن ربيعـــة التغلبىّ مهدّدًا قبيلة بكر بالحرب على إثر مقتل كليب (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

يـــا لَبَكْـــرٍ أَنْشِـــروا لى كُلَيبًـــا

يـــا لَبَكْـــرٍ أيـــنَ أيـــنَ الفِـــرارُ

يـــا لَبَكْـــرٍ فاظعنـــوا أو فحُلّوا

صَـــرَّحَ الشـــرُّ وبـــان السِّـــرارُ

وقال أيضًا (الجزرىّ، ٢٠١٠):

فابكينَ ســـيّدَ قومِـــهِ واندبنَهُ

شُـــدَّتْ عليـــهِ قباطـــىُ الأكفـــانِ

وابكـــينَ للأيتـــام لَمَّـــا أقحطوا

وابكـــينَ عنـــدَ تخـــاذلِ الجيرانِ

وابكينَ مصرعَ جيـدِهِ متزمّلا

بدمائِـه فلـذاكَ مـا أبكانـي

فلأتركـنَّ بــه قبائـلَ تغلبٍ

قتلـى بــكلّ قـرارةٍ ومـكانِ

قتلى تعاورها النّسـورُ أكفَّها

ينهشـنها وحواجـلُ الغربـانِ

وقال أيضًا (الجزرى، ٢٠١٠):

وَلأوردنَّ الخيـلَ بطـنَ أراكةٍ

وَلأقضَـيَن بفعـل ذاكَ ديونـي

وَلأقتلـنَّ حجاحجًا منْ بكركمْ

ولأَبْكِـيَن بهَـا جُفُـونَ عُيُـونِ

حتى تظـلَّ الحاملاتُ مخافةً

مِـنْ وَقْعِنَـا يَقْذِفْـنَ كُلَّ جَنِينِ

وكان الحارث بن عباد البكريّ قد اعتزل هذه الحرب بين تغلب وبكـر – حرب البسـوس – ولكنَّ المهلهل قتل ابنـه بجير، فقال الحارث متوعّدًا المهلهل (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

قَرِّبَا مَرْبِـطَ النَّعَامـةِ مِنِّـي

لَقِحـتْ حـربُ وائلٍ عـن حِيالِ

لا بُجَـيْر أغنَى قتيلًا ولا رهطُ

كُلَيـبٍ تَزَاجـروا عـن ضَـلالِ

لم أكـنْ مـن جُنَاتَها علـمَ اللهُ

وإنِّـي بحَرِّهـا اليـومَ صـالِ

وتوعَّـد حُصَيْنُ بن عمرو قاتلَ أخيـه زهير، وكان رجل من بني عامر قد قتله، قال حصين (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

يـا ضَبُعًا عثواءَ لا تَسْتَأنِسـي

تلتقـم الهَبْرَ من السَّـقْبِ الرَّذى

أقسـم بـالله وما حجَّـتْ بَلي

ومـا علـى العُـزَّى تُعِـزُّه غَنِي

وقد حلفتُ عند مَنْحَر الهَدِي

أُعْطيكُـم غيرَ صُـدور المَشْـرَفي

فليس مثلي عـن زُهَيْر بغَنِي

هو الشُّـجاعُ والخطيبُ اللَّوْذَعِي

والفارسُ الحازمُ والشَهمُ الأبي

والحامـلُ الثِّقـلَ إذا ينـزلُ بى

وقـال قيس بن زهير العبسـىّ يتوعّد الرّبيع بن زياد العبسـىّ (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

إنْ تكُ حَـرْبٌ فلم أجْنِها

جَنَتْهـا خيارُهـم أوْ هُـمُ

حِذار الرَّدَى إذ رأوا خَيْلَنا

مُقَدَّمُهـا سـابحٌ أدْهَـمُ

عليـه كَمِـيٌّ وسِـرْبالُه

مُضاعفـة نسـجُها مُحْكمُ

فإنْ شَمَّرَتْ لكَ عن ساقِها

فَوَيْهًـا ربيعُ ولم يسـأمُوا

نَهيتُ رَبيعًا فلم يَزْدَجِرْ

كما انزجر الحـارثُ الأضْجَمُ

كان العبّاس بن مرداس السلمىّ على خلاف مع ابن عمّه خُفاف بن عمير، فكثر بينهما الوعيـد والفخر، وكان ممّا قد قال العبّاس (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فأبلــغ لدَيْــك بنــى مالكٍ

فأنتــم بأَنبائِنـــــا أخْــبَرُ

فأمّا النَّخِيلُ فليســتْ لنا

نخيــلٌ تُسَــــقّى ولا تُؤْبَرُ

ولكنَّ جَمعًا كجِذْل الحِكا

كِ فيــه المقَنَّـــع والحُسَّــرُ

مغاويــرُ تحمِــلُ أبطالَنَــا

إلى المــوت ســـاهِمةٌ ضُمَّــرُ

وأعددتُ للحرْب خَيفانةً

تُدِيـم الجِــــراءَ إذا تَخْطِرُ

صَنِيعًا كقــارورةِ الزَّعفرا

نِ ممَّـــا تُصـــانُ ولا تُؤْثَــرُ

وكان ممّا قال خُفاف للعبّاس (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

فأبشِــرْ إنْ بقِيــتَ بيوم ســوءٍ

يَشــيبُ لــه مــن الخــوفِ الوليدُ

كيومِكَ إذ خرجتَ تَفوقُ ركضًا

وطـارَ القلـبُ وانتفَـخَ الورِيـدُ

فـدَعْ قـولَ السّـفاهةِ لا تَقُلْـه

فقـد طـالَ التَّهَـدُّدُ والوعيـدُ

رأينـا مَـنْ نُحاربُـه شَـقِيًّا

ومـن ذَا فى بنــى عَوْفٍ سَـعيدُ

وقد توعّد تأبّط شـرًّا الفهمـىّ بنى العوْص بعد أن قتلوا صاحبين له، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

لَعَمـرُ فتًـى نِلتـم كأنَ رداءَه

على سرحةٍ من سرحِ دومةِ سامقُ

لأطـرُد نَهْبًا أو نـرودَ بفِتْيةٍ

بأيْمانِهم سُمْـرُ القَنـا والعقائقُ

مَسـاعَرةٌ شُـعْثٌ كأنّ عيونَهم

حريقُ الغضا تُلفَى عليها الشّقائقُ

فعُدُّوا شهورَ الحُرْمِ ثم تعرّفوا

قتَيـلَ أنـاسٍ أو فتـاةً تعانـقُ

وقـال عمرو بن برّاق النهمىّ – وهو أحد الشّـعراء الصّعاليك – يتوعّد لصًّا سرق إبله وخيله (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فلا صُلْحَ حتّى تعثرَ الخيلُ بالقنا

وتُضْـرَبُ بالبيضِ الرِّقـاقِ الجَماجِمُ

وكان امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندىّ يطلب الثّأر لأبيه – وكان أبوه ملكًا على كِندة – من بنى أسد، فكان ممّا قال يتوعّدهم بحرب (الكندىّ، ٢٠٠٤):

وَأعْـدَدْتُ لِلْحَـرْبِ وَثّابَـةً

جـوادَ المحَثَّـةِ والمَـرْوَدِ

سَـبُوحًا جَمُوحًا وَإحْضارُها

كَمَعْمَعَـةِ السَّـعَفِ المُوقَـدِ

وَمُطَّـرِدًا كَرِشـاءِ الجَـرُو

رِ مِـنْ خُلُـبِ النَّخْلَـةِ الأجْرَدِ

وذا شُـطَبٍ غامضًـا كَلْمُـهُ

إذا صـابَ بِالعظْـمِ لَم يَنْـأدِ

وَمَشـدُودَةَ السَّـكِّ مَوْضُونَةً

تَضـاءَلُ فـى الطَّـىِّ كالمِـبْرَدِ

تَفِيـضُ عَلى المَـرْءِ أرْدانُها

كفَيْـضِ الأتِـىِّ علـى الجَدْجَدِ

وقــال عبد الله بــن جَعدة الكلابــيّ يهدّد بالثّــأر لمقتل خالد بن جعفر بــن كلاب، ويتوعّد قاتله الحارث بن ظــالم المرّيّ، وقبيلته (الجزريّ، ٢٠١٠):

فانعوا أبا بحــرٍ بكلّ مجرّبٍ

حرّانَ يُحْسَــبُ فــي القناةِ هلالا

فليُقتلــنَّ بخالــدٍ ســرواتُكم

وليُجْعَلُــنَّ لظــــــالمٍ تمثــالا

كان بنو بدر الفزاريّين قد قتلوا مالك بن زهير العبسيّ، فخاطب عنترة بن شدّاد القتيل مالك يطمئنه على ثأره، وفي خطابه تهديدًا لبني بدر، قال عنترة (الجزريّ، ٢٠١٠):

فسوفَ تَرى إن كنتُ بعدَك باقيًا

وأمْكَنَنِــي دَهــرى وطُــولُ زَمانــي

فأقســم حقًّــا لــو بقيــتَ لنظرةٍ

لقــرَّتْ بهــا عينــاكَ حــينَ تراني

وقال عنترة بن شدّاد العبسيّ يتوعّد بني العُشراء بالثّأر لقرواش بن هنيّ (العبسيّ، ٢٠٠٤):

سَـيَأتيكُمْ عَنّى وَإنْ كُنتُ نائِيًا

دُخانُ العَلَنْـدى دونَ بَيتِىَ مِذوَدُ

قَصائِدُ مِن قيلِ امرِئٍ يحتَذيكُمْ

بنى العُشَـراءِ فارتَـدوا وَتَقَلَّدوا

وقال عنترة أيضًا يحـّذر بنى كعب بعد أن تبيَّن غدرهم بعبس (العبسىّ، ٢٠٠٤):

قُلتُ مَـنِ القَومُ فَقالوا سَـفَرَه

وَالقَـومُ كَعـبُ يَبتَغـونَ المُنكَرَه

قُلـتُ لِكَعبٍ وَالقَنا مُشـتَجِرَه

تَعَلَّمـى يا كَعبُ وَامشـى مُبصِرَه

ثُمَّ اذهَبى مِنّى وَكونى حَذِرَه

وقال عنترة يتوعَـد عُمَيرَة بالحرب ويذكرّها بفعاله فى حروب سابقة، ومصير قبائل هزمها (العبسىّ، ٢٠٠٤):

سـائِل عُمَيرَةَ حَيثُ حَلَّت جَمعَها

عِنـدَ الحُـروبِ بِـأَىِّ حَـىٍّ تُلحَـقُ

أَبِحَــيِّ قَيْــسٍ أم بِعُــذْرَةَ بَعدَمــا

رُفِـعَ اللِّـواءُ لَهَــا وَبِئْــسَ المَلحَــقُ

وَاسـأَل حُذَيفَةَ حــينَ أَرَّش بَينَنا

حَربًــا ذَوائِبُهــا بِمَــوتٍ تَخفِـقُ

فَلتَعلَمَــنَّ إذا اِلتَقَــت فُرسانُنا

بِلِـوى النُّجَــيرَةِ أَنَّ ظَنَّــكَ أَحمَــقُ

وقال بشـر بن أبى خازم الأسدىّ يهدّد المثلّم بن المرّى ومالك بن هند (القرشىّ، ١٩٨١):

قُــلْ للمُثَلَّــمِ وابنِ هِنْــدٍ بَعْدَهُ

إن كُنْــتَ رَائِــمَ عِزِّنَا فاسْــتَقْدِمِ

تَلْقَ الــذى لاَقَى العَدُوُّ وَتُصْبَحُ

كأسًــا صُبَابَتُهَــا كَطَعْــمِ العَلْقَــمِ

نَحبُو الكَتِيبَةَ حِينَ تَفْتَرِشُ القَنَا

طَعْنًا كإلهــابِ الحَرِيــقِ المُضْرَمِ

دراسات سابقة عن التّهديد والوعيد

ذكر السّعيدىّ وخلاوىّ (٢٠١٧) كثرة التّهديد والوعيد فى الشّعر الجاهلــى، ولكن أكّدوا على عــدم كونه غرضًا منفصلًا للشّــعر، بل

ترافق مع سبعة أغراض أساسيَة أخرى: رثاء القتيل، والتَعالى على المغلوبين، والردّ على تهاون المنتصرين وتعسّفهم فى الأخذ بثأرهم، والرّد على الهجاء والتّهديد والوعيد، والنّزاع بين الفرد والدّولة، والردّ على العمل العدوانى، وتهديد المتحاربين بإيقاف الحرب.

التّنافس والغيرة

وتوضّح نتيجة تحليل الشّعر الجاهلىّ أنّ المنافسة فى المجتمع كانت على درجات عالية جدًّا، سواءً على الصّعيد الشخصى بين الأفراد، أو على صعيد القبائل فيما بينها. وصف لبيد بن ربيعة العامرىّ مجالس الملوك التى يكثر زائريها الباحثين عن هبات الملوك، وذكر أنّ فيها حقدًا بين أولئك الزّائرين، وبالرّغم من التّنافس الموجود بينهم، إلّا أنّه لم يستطع أحد التّفوق والفخر عليه، قال لبيد (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

وكثيرةٍ غُرَباؤهَا مَجْهُولَةٍ
ترجَى نوافِلُها ويخْشَى ذامُها
غُلْبٌ تَشَذَّرُ بالذُّحُولِ كأنَّهَا
جنُّ البديِّ رواسيًا أقدامُها
أنكرتُ باطلَها وَبُؤْتُ بحقِّها
عندى ولم يَفْخَرْ علىَّ كرامُها

والمنافسة تستدعى الغيرة بين المتنافسين، وقد يلجأ أحدهم لذمّ المنافس الآخر، ويظهر الذمّ على شكل هجاء. كان الرّبيع بن زياد العبسيّ من ندماء النّعمان بن المنذر، وكان على خلاف مع الجعفريّين من بني عامر بن صعصعة، فكان أن هجى لبيد بن ربيعة العامريّ الرّبيعَ بن زياد، فقال لبيد (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

أكلَّ يوم هامَتي مُقَزَّعَهْ
يا رُبَّ هيجا هي خيرٌ من دَعَهْ
نحنُ بني أمّ البنين الأربعهْ
سيوفُ حَزٍّ وَجِفان مُتْرَعَهْ
نحنُ خيارُ عامرِ بن صَعْصَعَهْ
الضّاربون الهامَ تحتَ الخَيْضَعَهْ
والمطمعون الجَفْنَة المُدَعْدَعهْ
مهلاً أبيْتَ اللَّعْنَ لا تأكلْ معهْ
إنَّ استَه من بَرَصٍ مُلمَّعهْ
وإنّه يُدخِل فيها إصْبَعَهْ
يُدخِلها حتّى يُوارِي أَشْجَعَهْ
كأنّه يطلُبُ شيئًا ضَيَّعَهْ

وقال الأسود بن يعفُر النهشليّ يفتخر على التَّيحان بن بَلْج بإكرام الضَّيف بشكل لا يخلو من ذمٍّ لأبي التَّيحان (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

وإنّي لأَقرِي الضيفَ وَصَّى به أبِي

وجارُ أبي التَّيحانِ ظمآنُ جائعُ

وردَّ خُفاف بن عُمير السلميّ على العبّاس بن مرداس السلميّ فخره عليه، وفي ردّ خُفاف افتخار بنفسه، وذمّ للعبّاس في إطار من المنافسة، قال خُفاف (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

لا تفخرَنَّ فإنَّ عُودِيَ نبعَةٌ

أعيت أبا كَرِبٍ وعُودُك خِرْوَعُ

وذكر حاتم الطّائيّ منافسته مع بني لأم -وهم بطن من بطون طئ - على إظهار الكرم، وبدأ الموضوع بهجاء بني لأم، قال حاتم (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

أبْلِغْ بني لأَم فإنَّ خيولَهُم

عَقْرَى وإنَّ مجادَهم لم يَمْجُدِ

ها إنَّما مَطرَتْ سمَاؤكمُ دَمًا

ورفعْتَ رأسَك مِثل رأْسِ الأَصْيَدِ

ليكـونَ جيرانـي أُكَالًا بينَكم

نُحْـلا لِكنْـدىَ وسَـبْى مزبـدِ

وابـن النُّجُودِ إذا غَدَا مُتلاطمًا

وابن الغـدَوَّرِ ذى العِجان الأبردِ

ولثابِـتٍ عَيْنى جـذٍ مُتَماوِتٍ

وللعمـظِ أوْس قـد عَـوَى لمقلـدِ

أَبْلِـغْ بنى ثُعَلٍ بأنَـيَ لم أكُنْ

أبـدًا لأفعلَهـا طـوالَ المُسْـنَدِ

لا جئتُهم فَلًا وأتركَ صُحْبَتِي

نَهْبًـا ولم تَغْـدرْ بقائمـه يَـدِى

وتنافـس طرفة بن العبد مع عذّاله ولائميه على الّذى سـيموت منهما راويًا من الخمر، فقال طرفة (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

كريمٌ يُرَوِّى نفسـه فى حياتِهِ

سـتعلم إنْ مُتنا غـدًا أيُّنا الصدى

مدح زهير بن أبى سلمى المزنىّ هرم بن سنان المرىّ، وصوّره بأنّه يتغلّب على كلّ منافسـيه على المجد فى قيس عيلان بأكملها، قال زهير (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

إذا ابتدرتْ قيسُ بنُ عيلانَ غايةً

مِــنَ المجدِ مَن يَســبِقْ إليها يُســوَّدِ

سَــبَقْتَ إلَيهــا كُلَّ طَلْــقٍ مُــبرَّزٍ

سَــبُوقٍ إلى الغايــاتِ غَــيرِ مُزنَّــدِ

كفِعْــلِ جَوادٍ يَســبُقُ الخَيلَ عَفوُهُ

السَّــراعَ وإن يجهدنَ يجهــدْ ويبعدِ

والغيرة والحســد يلازمان التّنافس دائمًا. قــال طرفة بن العبد متمنيًّــا أن يكون ذا مالٍ ونفوذ مثــل قيس بن خالد وعمرو بن مرثد (التّبريزىَ، ١٩٨٠):

فلو شاءَ رَبّى كنتُ قَيْسَ بنَ خالِدٍ

ولو شاءَ ربّى كنتُ عَمْرَو بنَ مَرثَدِ

فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وزارنى

بنــونَ كــرامٌ ســادةٌ لمسوّدِ

ومن قصص الغيرة، قصة غيرة عمارة بن زياد العبسىّ من عنترة بن شدّاد العبسىّ لقوّة بأسه، فبلغ عنترة أنّ عمارة يحسده ويهدّده، ويدّعــى أنّه لا يجده خاليًا لينفّذ تهديده، فردّ عليه عنترة متحدّيًا (العبسىّ، ٢٠٠٤):

أحَولِيَ تَنفُضُ اِســتُكَ مِذرَوَيهِ

لِتَقتُلَنــي فَهــا أَنــا ذا عُمــارا

مَتى مــا تَلقَنى فَردَينِ تَرجُف

رَوانِــفُ أَليَتَيـــكَ وَتُســتَطارا

وذكر عنترة بن شدّاد أنّه قد انتصر وحقّق غاية فى نفسه بدعوة الفرسان له للإقدام فى الحرب، وفى هذا اعتراف من الفرسان بعلوّ كعب عنترة عليهم، ممّا يعنى تفوّقه فى منافسته معهم، قال عنترة (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

ولقد شَفى نفسى وأبرأَ سُقمها

قيلُ الفــوارس ويكَ عنــترَ أقْدمِ

دراسات سابقة عن التّحدّى والتّنافس والغيرة

وأكــدّت أبو الرُّبّ (٢٠٠٦) على أنّ التّحدى والفوز كانا من ضمن الغرائــز الّتى كانت تُشبَع بالحرب عند العــرب الجاهليّين، وأنّ المفاخرة كانت من ضمن الأســباب الرّئيسيّة لاستمرار هذه الحروب الّتــى تبقى ما دامت حياتهــم باقية، وذهب على (١٩٩٣) أيضًا إلى وجود صفة الحقد لدى العرب الجاهليّين.

ذكر الإنجازات والفخر بها

ولأنَّ الجميع يسـعى للمنافسة والانتصار والظّهور والتميّز، فإنَّ ذِكْرَ الإنجاز، والفخر به أمر طبيعيّ وواضح في المجتمع الجاهلي، وخصوصًا الإنجازات المرتبطة بالقوّة – مثل قتل الفرسان في الحروب – والكرم. قال مهلهل بن ربيعة التّغلبيّ مفتخرًا بصولاته وجولاته في حرب البسوس ثأرًا لأخيه كليب (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

ولو نُبِـش المقابرُ عـن كُلَيب

فَيُخْـبَرَ بالذّنائـــب أَيُّ زِيـرِ

وكان دُرَيْد بن الصِّمّة الجشـميّ قـد أغار على بني ثعلبة، وأخذ إبل عِياض الثعلبيّ، وجرحه، فقال مخاطبًا عياض ومفتخرًا بفعله (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

فإنْ تَنْـجُ يَدْمَى عارضاكَ فإنّنا

تركنـا بنيـكَ للضِّبـاعِ وللرُّخْمِ

جزَيتُ عِياضًا كفـرَه وعُقُوقَه

وأخرجْتــهُ مـن المُدَفّـأة الدُّهْـمِ

ألَا هل أتاه ما ركِبْنا سَـراتَهم

وما قد عقَرْنا مـن صَفِيٍّ ومن قَرْمِ

وقال الحارث بن حلّزة اليشكرىّ يذكر بعض غارات قومه بنى بكر فى بعض أيّام ضعف الرّوم (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

هَـلْ عَلِمْتُـمْ أيّـامَ يُنْتَهَـبُ النّا
سُ غِـوَارًا لِـكُلِّ حَـىٍّ عُـوَاءُ

إذ رَفَعنا الجِمالَ مِن سَعَفِ البَحـ
رَينِ سَـيرًا حَتّـى نَهاها الحِسـاءُ

ثـمّ ملنـا إلى تميـم فأحرمْـ
ـنـا وَفِينَـا بَنَـاتُ مُـرٍّ إمَـاءُ

وقد يريد المتحدّث من ذكر بعض إنجازاته أحيانًا تهديد شخص أو قبيلة، فكأنّه يقدّم نفسه بذكر بعض إنجازاته كشكل من أشكال التّرهيـب وبثّ الخوف فى نفس المتلقّى، والتّهديد أيضًا من مظاهر ارتفاع الذّكورة كما ذُكرَ سابقًا. قال خالد بن جعفر بن كلاب يتوعّد زهير بن جَذيمة العبسىّ بالقتل (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

وقيسُ فـى المَعـارِكِ غادَرتْهُ
قَنَاتِـىَ فـى فـوارسَ كالأُسـودِ

ويَرْبُـوع بـن غَيْظٍ يومَ سـاقٍ
تركناهـم كجاريـــةٍ وبيـدِ

تركتُ بها نســاءَ بنــي عُصَيْم

أراملَ مــاً تَجِــنّ إلى وليــدِ

وكرّ مالك بن حمار الفزاريّ ومعه بعض الرّجال على معاوية بن الصَمُوت الكلابيّ، ومعه مجموعة من الرّجال، فقتل مالك معاوية، وحرملــة العُكْلى، ورجل من بنى كلاب، ورجلين من قيس كبة من بجيلة، وقال مالك فى ذلك (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

ولقد صَدَدْتُ عن الغَنيمة حَرْمَلا

وَلَقِيتُــه لَــدَدًا وخيلــى تَطْــرُدُ

أقبلتــه صَــدْرَ الأغَــرِّ وصارمًا

ذَكَــرًا فخرّ علــى اليَدَيــنِ الأبعدُ

وابنَ الصُّموتِ تركتُ حين لَقِيتُه

فــى صــدرِ مارنــةٍ يقــوم ويقعــدُ

وابنا ربيعــةَ في الغُبَارِ كلاهما

وابنَــا غنِــيٍّ عامــرٌ والأسْــوَدُ

حتّى تنفّسَ بعــد نَكْظٍ مُجْحَرًا

أذهبــتُ عنــه والفَرَائــصُ تُرْعَــدُ

يعــدو ببَــزِّى ســابحٌ ذو مَيْعةٍ

نَهْـدُ المَـرَاكلِ ذُو تَليـلٍ أقــودُ

ولعنترة بن شدّاد العبسيِّ صولات، وجولات، وإنجازات ذكرها كثيرًا في شــعره، منها مثلًا قوله يصف قتله لبعض الفرســان في معركة (التّبريزيّ، ٢٠١٠):

ومدَّجــجٍ كــرِهَ الكُمــاةُ نِزَالَــهُ

لا مُمْعِــنٍ هَرَبًــا ولا مُسْتَسْــلِمِ

جادتْ يداى لــه بعاجل طعنةٍ

بمثَقَّــفٍ صَــدْقِ الكُعُــوبِ مُقَوَّمِ

بِرَحِيبَةِ الفَرْغَيْنِ يَهْدِى جَرْسُهَا

باللَّيْــلِ مُعْتَــسَ الذِّئَــابِ الضُّــرَّمِ

فَشَــكَكتُ بِالرُّمــحِ الأَصَمِّ ثِيابَهُ

لَيــسَ الكَريــمُ عَلى القَنــا بِمُحَرَّمِ

فتركتهُ جزرَ السّــباع ينشــنَهُ

مــا بــين قلّــةِ رأسِــهِ والمعصــمِ

وَمِسكِ ســابغةٍ هَتكتُ فروجَها

بالسّــيف عن حامى الحقيقةِ مُعْلِمِ

رَبِـذٍ يــداهُ بالقـداح إذا شـتا

هتَّـاكِ غايـاتِ التِّجـارِ مُلـوَّمِ

لَمَّـا رَآنِـى قَـدْ نَزَلْـتُ أُريـدُهُ

أَبْـدَى نَواجِـذَهُ لِغَـيرِ تَبَسُّـمِ

فَطَعَنْتُـهُ بالرُّمْـحِ ثُـمَّ عَلَوْتُـهُ

بِمُهَنَّـدٍ صَافِـى الحَدِيـدَةِ مِخْذَمِ

عَهْـدِى بِهِ مَـدَّ النَّهَـارِ كَأَنَّمَا

خُضِـبَ البَنَـانُ وَرَأْسُـهُ بِالعِظْلِمِ

بَطَـلٍ كَأَنَّ ثِيَابَـهُ فِى سَـرْحَةٍ

يُحْذَى نِعَالَ السِّـبْتِ لَيْـسَ بِتَوْأَمِ

وقال عنترة أيضًا (التّبريزىّ، ٢٠١٠):

وحليل غانيـةٍ تركتُ مجدّلا

تَمكـو فريصتُـهُ كشـدْقِ الأَعْلَمِ

سبقتْ يدايَ له بعاجلِ طعنةٍ

ورشـاشِ نافـذَةٍ كلـوْن العَنْـدَمِ

وقال عنترة فى قتله لورد بن حابس (العبسىّ، ٢٠٠٤):

وَغــادَرنَ نَضلَةَ فــى مَعرَكٍ

يَجُــرُ الأَسِــنَّةَ كَالمُحتَطِــبْ

فَمَــن يَكُ فــى قَتلِهِ يَمتَري

فَــإِنَّ أَبــا نَوفَــلٍ قَــد شَــجِبْ

يُذَبِّــبُ وَردٌ عَلــى إِثــرِهِ

وَأَدرَكَــهُ وَقــعُ مُــردٍ خَشِــبْ

تَتابَــعَ لا يَبتَغــى غَيرَهُــا

بِأَبيَــضَ كَالقَبَــسِ المُلتَهِــبْ

وقال بعد أن رمى جُريّة الهُجَيْمى فى إحدى المعارك (العبسيّ، ٢٠٠٤):

تَرَكــتُ جُرَيَّةَ العَمــرِىَّ فيهِ

شَــديدُ العَــيرِ مُعتَــدِلٌ سَــديدُ

تَرَكتُ بَنى الهُجَيمِ لَهُم دَوارٌ

إِذا تَمضــى جَماعَتُهُــم تَعــودُ

إِذا يَقَــعُ السِّــهامُ بِجانِبَيــهِ

تَأَخَّــرَ قابِعًــا فيــهِ صُــدودُ

وذكــر إصابته لجُبيلة بن أبى عدىّ ورجل آخر من بنى ســليم،

فقال (العبسىَ، ٢٠٠٤):

تَرَكْـتُ جُبَيلَةَ بْـنَ أبى عَدِىَ

يُبَـلُ ثِيابَــهُ عَلَـقٌ نَجيــعُ

وَآخَرَ مِنهُـمُ أجرَرتُ رُمحى

وَفــى البَجَلِـىَّ مِعبَلَــةٌ وَقيــعُ

وذكر الحارث بن زهير العبسىّ قتله لحمل بن بدر الفزارىّ فى يــوم الهبــاءة - وهو من أيّام حرب داحس والغبراء - واســترداده ســيف أخيه مالك بن زهير، والمســمّى بذى النّون، وكان حمل قد اســتولى على الســيف بعد قتله لمالك، قال الحــارث (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

تركتُ على الهَباءَةِ غيْرَ فخرٍ

حُذيفــةَ حولــه قِصَــدُ العَــوالى

سيخبرُ عنهُمُ حَنَشُ بن عَمْروٍ

إذا لاقاهُــمُ وابْنَــا بِــلالِ

ويُخبرهم مــكانَ النُّون مني

ومــا أعطيتُــه عــرَقَ الخِــلالِ

وافتخر أيضًا الشَّعراء الصَّعاليك بفعالهم. قال السُّليك بن السُّلكة

يذكر إحدى غاراته (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

وليلـة جابان كـررتُ عليهمُ
على سـاعة فيها الإيابُ حبيبُ
عشـية كرّت بالحراميّ ناقةٌ
بحيّ هـلا تُدعـى بـه فيجيبُ
فضاربت أُولى الخيل حتّى كأنّما
أميلُ عليهـا أيـدَع وصبيـبُ

وقال تأبّط شرًّا الفهميّ يفتخر بغارة على العوْص (الأصفهانيّ. ٢٠١٠):

جَزَى الله فِتيانًا على العوْصِ أمطرتْ
سَماؤُهُـم تحـت العَجاجـةِ بالـدَّمِ
وقد لاحَ ضَوءُ الفجـرِ عَرْضًا كأنّهُ
بلَمْحتـهِ إقـرابُ أبْلَـقَ أدْهَـمِ
فـإنَّ شِـفَاءَ الـدّاءِ إدراكُ ذَحْلـةٍ
صباحًـا علـى آثـارِ حـومٍ عَرَمْـرَمِ
وضاربْتُهم بالسّـفح إذ عارَضَتْهُمُ
قبَائـلُ مـن أبنـاءِ قسـرٍ وخثعـمِ

ضِرابًا عَـدَا منه ابنُ حاجزَ هاربًا
ذُرا الصَّخـرِ فى جوفِ الوجينِ المُدَيَّمِ

وقـال الشَّـنفرى الأزدىّ بعد غـارة على خَثْعـم (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

ألا هل أَتَى عَنَّا سُعادَ ودُونَها
مهامِـهُ بِيـدٍ تعْتَلـى بالصَّعالِكِ
بأَنَّا صَبَحْنا القوم فى حُرّ دارِهِم
حِمـامَ المنايا بالسُّـيوف البَواتِكِ
قَتَلْنا بعمرٍو منهمُ خيْرَ فارس
يزيدَ وسـعدًا وابنَ عـوفٍ بمالكِ
ظَلَلْنا نُفَرّى بالسَيوف رُؤُوسَهم
ونَرشُـقهم بالنَّبْل بـين الدَّكَادِكِ

وقـال يفتخـر بنفسـه وبتأبّط شـرًّا بعد غـارة علـى العوْص (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

دَعِينى وقُولى بَعدُ ما شئتِ إنّنِى
سَـيُغدَى بنَعْشِـى مـرةً فأُغيَّـبُ
خرجنَا فلمْ نَعْهدْ وقَلَّتْ وصاتنا
ثمانيـةٌ مـا بعدهـا مُتعَتَّـب

سـراحينُ فتيانٍ كأن وُجوهَهم

مصابيـحُ أو لـونٌ من المـاءِ مذهبُ

نَمُرُّ برَهْو الماءِ صَفْحًا وقد طوَتْ

ثمائِلُنـا والـزّادُ ظَـنٌّ مُغَيَّـبُ

ثلاثًا على الأَقدامِ حتّى سما بنا

على العَوْصِ شَعْشَاعٌ من القوم مِحْرَبُ

فثاروا إلينا في السّوادِ فَهجْهَجُوا

وصَـوَّت فينـا بالصَّبـاح المُثـوِّبُ

فشـنَّ عليهم هِزَّةَ السّيفِ ثابِتٌ

وصَمَّـم فيهـم بالحُسـامِ المُسـيَّبُ

وظَلْـتُ بفتيـانٍ معـى أتّقيهمُ

بهـنَّ قليـلاً سـاعةً ثـمَّ جنبـوا

وقد خَـرّ منهم راجلان وفارسٌ

كمـيّ صرعنـاه وحَـوْم مسـلّبُ

يَشُـقُّ إليـه كلّ رَبْـعٍ وقَلْعَـةٍ

ثمانيـةٌ والقـوم رَجْـلٌ ومِقْنـبُ

فلمّــا رآنــا قومُنا قيــل أفلَحُوا

فقلنــا اســألوا عن قائــلٍ لا يُكَذَّبُ

وذكر البرّاض بن قيس الكنانيّ قَتْلَهُ عروة الرحّال الكلابيّ، وفي شــعره ما يدلّ على أنّ ســبب قتله لعروة هو المنافسة، وفخر عروة عليه، قال البرّاض (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

نقَمْتُ على المرءِ الكلابيّ فخرَه

وكنــت قديمًــا لا أُقِــرُّ فَخــارا

علوتُ بحدِّ السيفِ مفرِقَ رأْسِهِ

فأسمــعَ أهــلَ الواديــين خُوارا

وذكر البرّاض المناسبة نفسها، فقال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

وداهيــةٍ يُهالُ النّــاسُ منها

شــددتُ لهــا بني بكــرٍ ضلوعي

هتكتُ بهــا بيوتَ بني كلابٍ

وأرضعــتُ المواليَ بالضّــروعِ

جمعتُ لها يدىّ بنصلِ سيفٍ

أفــلّ فَخــرَّ كالجِــذْعِ الصّريــعِ

وقال مهلهل بن ربيعـــة التغلبىَ بعد قتل بجير بن الحارث بن عباد البكرى (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فإنّــى قد تركــتُ بِـوارِداتٍ

بُجـيّرا فــى دَمٍ مثـلِ العَبـيرِ

هتكتُ بـــه بيوتَ بنـــى عُبَادٍ

وبعــضُ الغَشْـم أشـفَى للصدورِ

أتونا بشَــهْران العريضة كلّها

وأكْلُــبَ طـرًّا فى جياد السّــنَّورِ

وقال عامر بن الطّفيل الكلابىّ بعد أن قتل مســهر الحارثىّ يوم فَيْف الريح (الجزرىّ، ٢٠١٠):

لعَمْــرى وما عمرى عليَّ بهيّنٍ

لقد شانَ حُرَّ الوجهِ طعنةُ مُسهرِ

فبئس الفتى إنْ كنتُ أعورَ عاقرًا

جبانًا ومــا أغنى لدى كلّ محضرِ

وقال بشــر بن أبى خازم الأسدىّ يذكر نصر بنى عامر على تميم يوم الجِفار (الجزرىّ، ٢٠١٠):

عصبتْ تميمٌ أن يقتَّل عامرٌ

يوم النِّسار فأُعقبوا بالصَّيْلم

كنّا إذا نفروا لحرب نَفْرَةً

نشفي صُداعَهُمُ برأس صِلدِمِ

نَعْلو الفوارسَ بالسّيوف ونعْتزي

والخيل مشعلةَ النّحور من الدّم

يخرُجن من خلل الغبار عوابسًا

خَبَبَ السّباع بكلِّ ليثٍ ضَيغم

وقال أيضًا:

يوم الجِفارِ ويوم النّسا

رِكانا عذابًا وكانَ غراما

فأمّا تميمُ تميمُ بن مرٍّ

فألفاهم القومُ روبى نياما

وأمّا بنو عامرٍ بالجِفارِ

ويوم النِّسار فكانوا نعاما

وقتل أُحَيْحةُ بن الجُلاح الأوسيّ كعبَ بن عمرو المازنيّ، وبلغه أنّ عاصم أخو كعب يطلبه بأخيه، فقال أحيحة مفتخرًا بقتله لكعب

(الجزرىَ، ٢٠١٠):

نبّئتُ أنّكَ جئتَ تَسْـــ

رى بـين دارى والقبابة

فلقدْ وجدْتَ بجانبِ الـ

ضّحيــان شـبّانًا مُهابــة

فتيانَ حربٍ فى الحديـ

دِ وشــامرينَ كأسـدِ غابة

هم نكّبوكَ عن الطّريـ

قِ فبــتَّ تركــبُ كلَّ لابة

أعُصَيْمَ لا تجزعْ فإنّ الـ

حــربَ ليســت بالدَّعابة

فأنــا الّــذى صبَّحتُكم

بالقوم إذ دخلوا الرُّحَابَة

وقتلــتُ كعبًــا قبلَها

وعلوتُ بالسّيف الذُّؤابَة

وقال بلعاءُ الكنانىّ يذكر قتله لأحد الفرسان (الطّائىّ، ١٩٩٨):

وَفارِسٍ فِي غِمَارِ الْمَوْتِ مُنْغَمِسٍ

إذَا تــأَلَّى عَلَــى مَكْرُوهَــةٍ صَدَقَــا

غَشَّــيْتُهُ وَهْوَ فِي جَأْوَاءَ بَاسلَةٍ

عَضْبًا أصَابَ سَــوَاءَ الرَّأْسِ فَانْفَلَقَا

بِضَرْبَةٍ لَمْ تَكُنْ مِنِّى مُخَالِسَــةً

ولاَ تَعَجَّلْتُهَــا جُبْنًــا ولاَ فَرَقَــا

وذكــر الفِنْــد الزِّمَّانيّ قتلــه مالك بن عوف التغلبــيّ فى حرب البســوس، وكان الفند شــيخًا كبــيرًا وقتها، فقــال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

أيــا طعنــةَ مــا شَــيْخٍ

كبــيرٍ يَفَــنٍ بالــــــى

تفتّيــتُ بهــــا إذ ك

رِه الشِّــكَــةَ أَمثالِــــى

تُقِيــمُ المــأْتَم الأعلَــى

علــــى جُهــــدٍ وإعْوالِ

كجيْــبِ الدِّفْنسِ الوَرْهَا

ءِ رِيعَــتْ بعــدَ إجفــالِ

وذكر السفّاح التغلبيّ أنّه أوقد النّيران يوم خزاز ليُعلم جيوش معدّ -يقودهم كليب وائل بن ربيعة التّغلبيّ - بقدوم جيوش مذحج (الجزريّ، ٢٠١٠):

وليلــةَ بــتُّ أوقدُ فــي خَزازِ
هديــتُ كتائبــا متحــيّراتِ

ضللنَ مــنْ السّــهاد وكنّ لولا
سـهادُ القـوم أحسـبْ هادياتِ

وقد يفتخرون أيضا بإنجازات أقلّ بكثير من الحروب والقتل. قال امرؤ القيس الكندىّ مفتخرا بقطع وادٍ خطر فيه ذئاب (التبريزى، ١٩٨٠):

وَوَادٍ كَجَــوفِ العَيرِ قَفْرٍ قطعتُهُ
بِــهِ الذئبُ يَعوى كالْخَليــعِ الْمُعَيَّلِ

وافتخر العربىّ فى الجاهليّة بالإنجازات المرتبطة بالكرم أيضًا، قال امرؤ القيس الكندىّ (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

ويومَ عقــرتُ للعذارى مطيّتى
فيــا عَجَبًا مــن كورِهــا الْمُتَحَمَّلِ

فظلَّ العذارى يرتمينَ بلحمِها

وشـحم كهدّابِ الدّمقـسِ المفتّلِ

وقال لبيد بن ربيعة العامرىّ (التّبريزىّ، ٢٠١٠):

وَجزَورِ أيْسَارٍ دَعوْتُ لحتفِها

بِمَغَالِـقٍ مُتَشَـابهٍ أجسـامُها

أدعُـو بهـنَّ لعاقِـرٍ أوْ مطفِلٍ

بذلَـتْ لجيرانِ الجميـعِ لحامُها

فالضّيفُ والجارُ الجنيبُ كأنّما

هبَطَـا تبالَـةَ مخصِبًـا أهْضَامُها

تـأوِى إلى الأطْنَـابِ كلُّ رذيَّةٍ

مِثْـلُ البليّـةِ قالـصٌ أهدامُهـا

ويكلِّلُـونَ إذا الرياحُ تناوحَتْ

خُلُجًـا تمـدُّ شـوارعا أيْتامُهـا

تأثير الذكورة فى علاقة الأفراد بالملوك والسادة

ولتهديد الملوك والسّادة، أو هجائهم، أو قتلهم، شأن آخر. فكما ذُكر فى البعد الخاصّ ببعد المسافة بين الأقلّ شأنا والأعلى شأنا فى

المجتمع، فإنّ المعتاد كان مدحهم، أو تجنّبهم خوفًا من بطشــهم، وفى تفحّص القصص المخالفة للسّــائد يتّضحّ فيها عوامل مشتركة، فقد يكون الشــخص نفســه تكرّر له عدّة قصص تشير إلى النديّة مع الملوك، مثل الحارث بن ظالم المرّىّ، وعمرو بن كلثوم التّغلبىّ، وهما من الفتّاكين، إلّا أنّهما اســتثنائين، حيث كان الخوف والهرب من الملــوك أو مدحهم أكثر بكثير مــن التّعامل معهم بنديّة، وقد يكون المشــترك القبيلة مثل طئ وتغلب، وهذا ســيتمّ مناقشته فى الفصل الخاصّ ببُعد الفرديّة، أمّا فى هذا الفصل فسيتمّ استعراض القصص الّتى لها علاقة ببعد الذّكورة.

قتل كليب التّغلبىّ للبيد بن عنبسة الغسانىّ

فــى القصّة الأولى وهى قصّة قتل كليــب وائل بن ربيعة التّغلبىّ للبيد بن عنبسة الغسّانىّ عامل ملك حمير، والتى ذكرها كليب فى شعره، فقال (شيخو، ١٩٩١):

إِن يَكُــن قَتَلنــا المُلــوكَ خَطاءً
أَو صَوابًــا فَقَــد قَتَلنــا لَبيــدا
وَجُعَلنــا مَــعَ المُلــوكِ مُلــوكًا
بِجِيــادٍ جُــردٍ تُقِــلُّ الحَديــدا

نُسعِرُ الحَربَ بالَّذى يَحلِفُ النّا

سُ بِـهِ قَومَكُـم وَنُذكـى الوَقودا

أو تَـرُدّوا لَنـا الإتـاوَةَ وَالفَى

ءَ وَلا نَجعَـلُ الحُـروبَ وعيـدا

إن تَلُمنـى عَجائِـزٌ مِـن نِزارٍ

فَأَرانـى فيمـا فَعَلـتُ مُجيـدا

وبالتأمّـل فى الأبيات السـابقة نجد أنّ كليبـا كان يدفع الإتاوة والفيء، فبالتّالى هو مسلّم وخاضع للملك الحميرىّ، ومتماشى ثقافيًا مع الدرجة السّائدة من بعد المسافة، ولكنّ الذى حصل وتسبّب بقتله للبيد هو إهانة لبيد لأخت كليب الزّهراء، واسـتنجادها بأهلها، قالت الزّهراء (شيخو، ١٩٩١):

ما كنت أحْسَبُ والحوادثُ جَمَّةٌ

أنَّـا عبيـدُ الحَـيِّ مِـن قحطانِ

حتّى أتتـنيَ مِن لبيـدٍ لطمةٌ

فعَشَـتْ لها مِن وَقعِهـا العَينانِ

إنْ ترْضَ أسْرةُ تغلبَ ابنةَ وائلٍ

تلـكَ الدنيَّـةَ أو بنـو شـيبانِ

لا يَبْرَحُوا الدَّهْرَ الطَّويلَ أذِلَّةً

هـدل الأعِنَّـةِ عنـدَ كلِّ رِهـانِ

هنا اصطدمت درجة بعد المسافة عند كليب بدرجة بعد أخرى من أبعاد الثَّقافة، وهى درجة بعـد الذَّكورة، فالبعد الخاصّ ببعد المسـافة مرتفع، فعلى كليب احـترام الملك، وإظهـار فرق المكانة بينهمـا، ولكـنّ أخته أهينت، وبعـد الذّكورة عالٍ جـدًّا أيضًا فى المجتمـع، فلـم يكن القرار سـهلًا، حتّى أنّ كليب نفسـه لم يكن متأكّدًا من صواب فعله، فكان قوله (شيخو، ١٩٩١):

إن يَكُـن قَتَلنـا المُلـوكَ خَطأً

أو صَوابًـا فَقَـد قَتَلنـا لَبيـدا

ولم يكـن اللَّوم داخليًّا فقـط، بل كان خارجيًّا أيضًا، إذ أشـار كليـب إلى أنّ هناك من لامه على قتله للملـك، وقد يقصد عمّه مرّة بن ذهل البكرىّ فى بعض التفسيرات، قال كليب فى ذلك (شيخو، ١٩٩١):

إن تَلُمنـى عَجائِـزٌ مِـن نِزارٍ

فَأرانـى فيمـا فَعَلـتُ مُجيـدا

قتل عمرو بن كلثوم التَغلبىَ لعمرو بن هند اللخمىَ

وقصَة قتل عمرو بن كلثــوم التَغلبىَ لملك الحيرة عمرو بن المنذر بن ماء السَماء المعروف بعمرو بن هند هى قصة مشابهة لقصَة كليب فى كلَ ظروفها، وهى قصَة اصطدام بين بعدين ثقافيَين غلبت درجة أحدهما على الآخر، حيث غلبت درجة الذَكورة على بعد المسافة، حــاول الملك عمرو بن هند إهانة عمرو بــن كلثوم بأن يجعل أمَّ ابن كلثوم -وهى ليلى بنت المهلهل التغلبىَ - تخدم أمَه، قال عمرو بن كلثوم (الزَوزنىَ، ١٩٩٣):

بِــأَىِّ مَشِــيئَةٍ عَمْرَو بْــنَ هِنْدٍ
نَكُــونُ لِقَيْلِكُــمْ فِيهَــا قَطِينَــا
بِــأَىِّ مَشِــيئَةٍ عَمْرَو بْــنَ هِنْدٍ
تُطِيْــعُ بِنَــا الوُشَــاةَ وَتَزْدَرِينَــا
تَهَدَّدْنَــا وَأَوْعِدْنَــا رُوَيْــدًا
مَتَــــى كُنَّــا لأُمِّــكَ مَقْتَوِينَــا

فــكان أن قتلــه عمرو بن كلثوم. وفــى ذلك قال أُفْنُــون التَغلبىَ (الجزرىَ، ٢٠١٠):

لعمرُك ما عمرو بن هندٍ وقد دعا

لتخــدم ليلــى أمَّــه بموفَــقِ

فقام ابنُ كلثومٍ إلى السّيفِ مُصْلَتًا

وأمســكَ مــن ندمانِــه بالمخنَّقِ

تهديـد وهجـاء عمرو بن كلثـوم التَغلبىَ للنَعمـان بن المنذر اللخمىَ

ثمَ حدثت بعض المنازعات بين الملك النّعمان بن المنذر –وهو ابن أخ الملك عمرو بن هند – الذى هدّد عمرو بن كلثوم بالقتل، فكان أن هجاه عمرو وهدّده، وسخر منه، قال عمرو (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أَلا أَبلغِ النُعمانَ عَنّى رِســالَةً

فَمَجــدُكَ حَــولِىٌّ وَذمُّــكَ قــارِحُ

مَتى تَلقَنى فى تَغلِبَ اِبنَةِ وائِلٍ

وَأَشــياعها تَرقــى إِلَيكَ المَســالِحُ

وقال أيضًا (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

لحا الله أدنانــا إلى اللُّؤم زُلْفَةً

وألْأَمَنــا خــالًا وأعجزَنــا أبــا

وأجْدَرَنا أنْ ينفُخَ الكِيرَ خالُه

يصوغُ القُروطَ والشُّنوفَ بيَثْرِبَا

حتّى أنّه هجا سلمى أمَّ النّعمان بن المنذر فقال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

خَلَت سُلَيمى بِخَبتٍ بعد فَرتاج

وَقَد تكونُ قديمًا فى بنى ناجِ

إذ لا تُرَجّى سُلَيمى أن يَكونَ لَها

مَن بالخَوَرنَقِ مِن قَيْنٍ وَنَسّاجِ

وَلا يَكونُ عَلى أَبوابِها حَرَسٌ

كما تَلَفَّفَ قِبطِيٌّ بِديباجِ

تَمشى بِعِدلَينِ مِن لُؤمٍ وَمَنقَصَةٍ

مَشيَ المُقَيَّدِ فى اليَنبوتِ وَالحاجِ

إساءة الحارث بن ظالم المرىّ لجوار الأسود بن المنذر اللخمىّ

والحارث بن ظالم المرىّ له شأن مشابه لما لكليب وائل ولعمرو ابن كلثوم، إلّا أنّه لم يذكر الشّعر ما يثبت ولاء الحارث بن ظالم للملوك التّى تحدّاها قبل حدوث الأمر الذى خلط الأبعاد الثقافيّة وأدّى بشكل أو بآخر لتفضيل أحدهم على الآخر. كان الحارث بن ظالم سيّدًا على غطفان، وكان أن قتل خالد بن جعفر بن كلاب سيّد

هوازن، وكان خالد فى دار الملك الأسود بن المنذر ملك الحيرة، وفى الشّعر ما يثبت أن خالد قد أتى بعدّة أمور تستفزّ الدّرجة العالية من الذّكورة فى المجتمع، وكذلك الفرديّة التى ستناقش فى الفصل القادم، ممّا استدعى غضب الحارث، واتّخاذه قرار قتل خالد، ومن هذه الأمور ذِكْر خالد بن جعفر خالات الحارث بن ظالم - هند والرّباب وفرتنى ولميس - بما يسيء، فقال خالد (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

دارٌ لهندٍ والرَّبَابِ وفَرْتَنَى
ولَمِيسَ قَبْلَ حوادثِ الأيَّامِ

وذكر الحارث بن ظالم حادثة قتله لخالد بن جعفر فى ديار ملك الحيرة، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

ألا سائِلِ النُّعمانَ إن كُنتَ سائِلا
وَحَيَّ كِلابٍ هَل فَتَكتُ بِخالِدِ
عَشَوتُ عَلَيهِ وَابنُ جَعدَةَ دونَهُ
وَعُروَةُ يَكلا عَمَّهُ غَيرَ راقِدِ
وَقَد نَصَبا رَجلًا فَباشَرتُ جَوزَهُ
بِكَلكَلَ مَخشِيِّ العَداوَةِ حارِدِ

فَأَضرِبُهُ بِالسَيفِ يَافوخَ رَأسِهِ

فَصَمَّـمَ حَتّى نـالَ نـوطَ القَلائِدِ

وَأَفلَـتَ عَبدُ اللَهِ مِنّـي بُذُعرَةٍ

وَعُروَةُ مِن بَعدِ اِبنِ جَعدَةَ شاهِدي

قتـل الحارث بن ظالم المرّيّ لشـرحبيل بن الأسـود بن المنذر اللخميّ

ثمّ هرب الحارث بن ظالم من الملك الأسـود، فبدأ الأسود يطلب الحارث لإسـائته جواره، والحارث يختبـئ ويلجأ إلى عدّة أقوام، إلى أن سبى الأسـود جارات للحارث، فعادت قصّة استفزاز درجة الذّكورة مرّة أخرى في نفس الحارث، فمسؤوليّة حماية النّساء هي شـأن ذكوريّ يُعيَّر به الرّجل ويقلّ شأنه إذا تقاعس عنه، فكان أن قتل الحارث بن ظالم شرحبيلَ بن الأسود بن المنذر ردًّا منه على هذا الاسـتفزاز، قال الحارث بن ظالم يذكر هذه الواقعة (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

قِفَا فاسْمَعا أخْبِرْكُما إذْ سَألْتُما

مُحـارِبُ مـولاه وثَـكْلانُ نـادمُ

أخُصَيَيْ حمارٍ باتَ يكدمُ نجمةً

أتــؤكل جاراتــي وجارُك ســالمُ

حَسِبت أبيتَ اللَّعْنَ أنك فائتٌ

ولَمـا تَــذُقْ ثُــكْلًا وأَنْفُـك راغـمُ

فإن تكُ أذوادًا أصبتَ ونســوةً

فهــذا ابنُ سَــلْمَى رأسُــه متفاقمُ

علوتُ بذى الحَيّاتِ مَفْرقَ رأسِه

وكانَ سِــلاحِى تجْتويهِ الجماجمُ

فتكــتُ بهِ كمــا فَتَكْتُ بخالدٍ

ولا يركــب المكــروهَ إلاّ الأكارمُ

بدأتُ بتلــكَ وانْثَنَيْــتُ بِهذهِ

وثالثــةٍ تبيــضّ منهــا المَقــادِمُ

عراك الحارث بن ظالم المرّىّ مع عمرو بن الإطنابة الخزرجىّ

وقصة الحارث بن ظالم مــع عمرو بن الإطنابة ملك الحجاز هى قصّة تحدّى، ومنافســة، إذ تلقّــى الحارث بن ظالم تهديدًا صريحًا بالقتل من عمرو، وذلــك لقتله خالد بن جعفر، حيث أنّ خالد كان مصافيًا وصديقًا لعمرو، قال عمرو (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أَبلغِ الحارثَ بن ظالمٍ الرِّعْـ

ديدَ والنَّاذرَ النُذورَ عَلِيّا

أنِمَا يَقتلُ النِيامَ ولا يقْـ

تلُ يُقظانَ ذا سلاحٍ كمِيّا

ومعي شِكَتي معابلُ كالجـ

مرِ وأعددتُ صارِمًا مَشرفيّا

لو هَبطتَ البلادَ أنسيَتُكَ القتـ

لَ كما يُنسِيءُ النَسِيءُ النَسِيّا

فكان أن غضب الحارث، و ذهب إلى عمرو، فاعتركا، وكاد الحارث أن يقتل عمرو، وحاول عمرو التنصّل من القتال إلى أن عفى عنه الحارث، وقال الحارث فى ذلك (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

بلغتْنا مقالةُ المرءِ عمروٍ

فأنِفْنا وكان ذاك بَدِيًا

قد هَمَمْنا بقتلِه إذ بَرَزْنَا

وَلقِيناهُ ذا سِلاَحٍ كَمِيًا

غيرَ ما نائمٍ تعلَّلَ بالحُلْـ

مِ مُعِدًّا بكَفِّه مَشْرَفِيًا

فَمَنَنَّـا عليـه بعـد عُلُـوٍّ

بوفـاءٍ وكنــتُ قِدْمًـا وَفيًا

ورجعنا بالصَّفحِ عَنْهُ وكان الـ

مَـنُّ منَـا عليـــه بعـدُ تَلِيًا

والحـارث بن ظالم، وعمـرو بن كلثوم مـن الفتّاكين، ولا تعمّم ثقافة المجتمـع بناءً على قصصهما، بل تُـدرس من أغلب النّاس، فتعميم سـلوك عدد محدود من الأفراد علـى ثقافة المجتمع يُعتبر من أخطاء البحث العلمى، ولم يكن شـأن أغلب النّاس تهديد الملوك والسّـادة وقتلهم كما ذُكِر. ستتمّ الإشـارة لقصص عمرو بن كلثوم، وكليـب وائل بن ربيعة، وغيرها فـى الفصل الخاصّ ببعد الفرديّة أيضًا، وذلك لتوضيح أهميّة بعد آخر من أبعاد الثّقافة، والّذى يسهم فى اتّخاذ قرار بتحدّى السّادة والملوك أيضًا.

قتل الأسود بن عبَاد الجديسىَ لعمليق الطسمىَ

ومن القصص الأخرى قصّة الشّـموس عَفيرة بنت عَبّاد مع عمليق ملك طَسْـم وجَديس، الـذى أمر أن لا تُزوّج بِكـر من جديس حتى يأتيها قبل زوجها، إلى أن حُملت عفيرة إليه -وهى أخت الأسود بن عبّاد - فأتاها عمليق، ثمّ خلّى سـبيلَها، فاسـتنجدت الشّموس بجديس، وفى شـعرها إشـارة أخرى للفرق الكبير فى الأدوار بين

الرّجـل والمـرأة، فهي ترى أنّ الرّجل مكلّـف بالحماية. ولا يحق لـه الافتخار بقوّتـه إن لم يقم بهذه المهمّة. بـل يصبح من اللّائق له التزيّـن والتطيّب، الذى هو من شؤون المرأة. قالت الشّموس (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أيَجْمُـلُ ما يُؤْتَـى إلى فتَياتكم

وأنتـم رجـالٌ فيكم عَـدَدُ النَّمْلِ

وتُصْبِحُ تمشى فى الدّماء عفيرةً

جِهارًا وزُفّتْ فى النّساء إلى بعلِ

ولـو أنّنـا كنّا رجـالا وكنتم

نسـاء لكُنّـا لا نُقِـرّ بـذا الفعلِ

فموتُوا كِرامًا أو أميتوا عَدُوّكم

ودِبّوا لنار الحرب بالحَطَبِ الجَزْلِ

وإلا فَخلُّـوا بطنَهـا وتحمّلوا

إلى بَلَـدٍ قَفْرٍ ومُوتوا مـن الهُزْلِ

فللبينُ خيرٌ من مُقَام على أذًى

ولَلْمَـوْتُ خير من مُقَامٍ على الذُّلّ

وإن أنتــمُ لم تغضَبوا بعدَ هذه

فكونوا نساءً لا تُعابُ مِنَ الكُحْلِ

ودونَكُم طِيــبُ العروسِ فإنَما

خُلِقتم لأثواب العروس وللغِسْــلِ

فبُعْدًا وسُحْقًا للّذى ليس دافعًا

ويختالُ يمشي بيننا مِشْيةَ الفَحْلِ

مــن الواضح من القصّة أنّ طســم وجديس ســلّمت لأمر الملك قبل حادثة الشّموس، بالرّغم أنّه أمر مهين، إلى أن فاق الأمر احتمالها، وكانت الشّــارة متعلّقة بالشّــموس، التى يستوجب ارتفاع درجة بعد الذّكــورة حمايتها من الرّجال، فكان أن قتل الأســود بن عبّاد أخوها الملكَ عمليق، وقال الأسود فى ذلك (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

ذُوقى ببغيك يا طَسْــمُ مجلّلةً

فقد أتيتِ لَعَمْرى أعجبَ العجبِ

إنّــا أبينــا فلم ننفــكَ نقتُلهم

والبَغْــىُ هيّج منّا سَــورةَ الغضبِ

ولــن يعودَ علينــا بغيُهم أبدًا

ولن يكونوا كــذى أَنْفٍ ولا ذنبِ

وإن رَعَيْتم لنا قُرْبَى مُؤَكَّدةً

كنَّا الأقاربَ في الأرحامِ والنسبِ

الفخر بالنَّفس ووصفها

وافتخر العربيّ في الجاهليّة بنفسه كثيرًا، ووصف نفسه بصفات القوّة، والعزّة، وشدّة البأس، والكرم. قال حاتم الطّائيّ واصفًا نفسه (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

وإنّي لوَهّابٌ قُطُوعِي ونَاقتي

إذا ما انتشيْتُ والكميتَ المصدَّرا

وإنّي كأشْلاءِ اللِّجَام ولَنْ ترَى

أخَا الحَرْبِ إلاّ ساهِمَ الوَجْهِ أغبَرَا

أخُو الحَرْبِ إن عضَّتْ به الحَرْبُ عضَّها

وإنْ شمَّرت عن ساقها الحَرْبُ شَمَّرا

ووصف سَعية بن عُريض الحارثيّ نفسه، فقال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

إنْ تسألي بي فاسألي خابرًا

والعِلْم قد يكفي لدى السائلِ

يُنْبيــكِ مــن كان بنــا عالمًــا

عنَّــا ومــا العــالمُ كالجاهــلِ

أَنَّا إذا حــارت دواعِي الهوى

وأنصــتَ السَّــامعُ للقائــلِ

واعتلــجَ القــومُ بألبابِهــم

فــى المنطــقِ الفاصــلِ والنَّائــلِ

لا نجعــلُ الباطــلَ حقًّــا ولا

نَلُــظُّ دونَ الحــقِّ بالباطــلِ

نخــافُ أن تَســفَهَ أحلامُنــا

فنُخْمــلَ الدَّهــرَ مــع الخامــلِ

ووصف عنترة بن شدّاد العبسيّ نفسه، فقال (العبسيّ، ٢٠٠٤):

إنّى امرُؤٌ من خَــيرِ عَبسٍ مَنصِبًا

شَــطرِى وَأَحمــى ســائِرِى بِالمُنصُلِ

إن يُلحَقــوا أَكرُر وَإن يُســتَلحَمو

أَشــدُد وَإِن يُلفَــوا بِضَنــكٍ أَنــزِلِ

حينَ النُـزولُ يَكونُ غايَــةَ مِثلِنا

وَيَفِـرُّ كُلُّ مُضَلَّـلٍ مُسـتَوهِلِ

وَلَقَـد أَبيـتُ عَلى الطَـوى وَأَظَلُّهُ

حَتّـى أَنـالَ بِـهِ كَريـمَ المَـأكَلِ

وَإِذا الكَتيبَةُ أَحجَمَت وَتَلاحَظَت

أُلفيـتُ خَـيرًا مِـن مُعَـمٍّ مُخـوَلِ

وَالخَيـلُ تَعلَـمُ وَالفَـوارِسُ أَنَّني

فَرَّقـتُ جَمعَهُـمُ بِطَعنَـةِ فَيصَـلِ

إِذ لا أُبـادِرُ في المَضيقِ فَوارِسـي

وَلا أُوَكِّلُ بِالرَعيـــلِ الأَوَّلِ

وَلَقَـد غَدَوتُ أَمـامَ رايَـةِ غالِبٍ

يَـومَ الهِيـاجِ وَمـا غَـدَوتُ بِأَعزَلِ

وقال أيضًا (العبسيّ، ٢٠٠٤):

لا أَملِكُ السَيفَ إِلّا قَد ضَرَبتُ بِهِ

وَلا تَمـوتُ جِيـادي وَهـيَ أَغمارُ

وَلا أُعَـوِّدُ مُهـري أَن أُوَقِّفَـهُ

وَسـطَ الكُماةِ وَلا يَشـقى بِنا الجارُ

وقال طرفة بن العبد البكرىّ يذكر كرمه (التّبريزىّ، ٢٠١٠):

ولســتُ بحلاّل التّلاع مخافةً

ولكنْ متى يســترفِد القــومُ أرفدِ

فانْ تبغنى فى حلقةِ القومِ تلقَنى

وإنْ تلتمِسْنى فى الحوانيتِ تصطدِ

متى تأتنى أصبحتَ كأسًا رويةً

وإنْ كنتَ عنها ذا غِنًى فاغنَ وازْدَدِ

ووصف بَشامة بن الغدير المرّىّ نفسه بالكرم، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

ألا تَرَيْــنْ وَقَــدْ قطّعْتِنى قِطعًا

ماذا من الفوْتِ بينَ البُخْلِ والجَودِ

إلّا يكــنْ ورقٌ يومًــا أراحَ بِهِ

للخابِطــينَ فإنّــى لــيّنُ العُــودِ

المبالغة فى وصف النَفس

بــل ويبالغ العربىّ فى الجاهلية فى وصف نفســه كثيرًا، حتّى يتجاوز حدود المنطق بتشبيهاته، ووصف قدراته. وصف عنترة بن شدّاد نفسه فقال (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

خلقـتُ من الحديدِ أشـدَّ قلبًا

وقـد بلـيَ الحديـدُ ومـا بليتُ

وَإنّى قَدْ شَـربْتُ دَمَ الأعادى

بأقحـافِ الـرُّؤوسِ وَمـا رَويتُ

وفى الحَرْبِ العَوانِ وُلِدْتُ طِفْلا

ومِـنْ لـبَنِ المَعامِـعِ قَدْ سُـقِيتُ

فما للرّمحِ فى جسـمى نصيبٌ

ولا للسـيفِ فـى أعضـاىَ قوتُ

ولى بيـتٌ عـلا فلـكَ الثريّـا

تَخِـرُّ لِعُظْـمِ هَيْبَتِـهِ البُيـوتُ

وقال أيضًا (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

وفـى يـوْمِ المَصانعِ قـد تَركنا

لنَـا بفعالنـا خـبرًا مشـاعا

أقمنـا بالذوابلِ سُـوق حرب

وصيَّرنـا النُفـوسَ لهـا متاعـا

حصانــى كانَ دلاَّلَ المنايـا

فخــاضَ غمارَهـا وشَـرى وباعا

وسَيفى كانَ فى الهيْجا طَبيبًا

يـداوى رأسَ من يشـكو الصَّداعا

أَنــا العبْدُ الَّذى خُــبّرْتَ عَنْهُ

وقــد عاينْتَنــى فـدعِ السَّــماعا

ولو أرْسـلْتُ رُمحى معْ جَبانٍ

لـكانَ بهيْبتــى يلْقــى السِّـباعا

ملأْتُ الأَرضَ خوْفًا منْ حُسامِى

وخصمى لم يجـْد فيها اتِّسـاعا

إذا الأَبْطالُ فَرَّت خوْفَ بأْسى

تــرى الأقطــارَ باعًــا أو ذراعــا

دراسات سابقة عن الحماسة

قال ضيف (٢٠٠٨) إنّ الحماسـة كانت الغرض الأكثر انتشارًا بين أغراض الشّـعر المختلفة فـى الجاهليّة، وأنّ الشّـعراء كثيرًا ما ذكـروا إنجازاتهم الحربيّة، وانتصاراتهـم، وأمجاد قبائلهم، وشـجاعتهم، وكرمهـم، وإغاثتهـم للملهـوف، وعفّتهم، وعدم خوفهـم من الموت، ومناقبهم، ومآثرهم، وانطوت هذه الحماسـة

علـــى الحقد على الأعـــداء، ومن ثمّ هجاءهـــم، وتهديدهم، وكثرة التعرّض لهذا الغرض من الشّـعر حذت بحفظة شـعرهم مثل أبى تمّام بتسمية مجموعته الشعريّة ب «الحماسة»، كما أكّد الهاشمىّ (١٩٦٩) على أنّ العرب فـــى الجاهليّة كثيرًا ما تمدّحوا بالمروءة، والشّجاعة، والكرم، وقد ذكر على (١٩٩٣) أن البدو فى الجاهليّة كانوا على شـــىء كبير مـــن العنجهيّة والكِـبر والغلظة والجفاء، وأنّهم فخورون بأنفســـهم ومتباهون بها، وأنّ فى مدحهم لأنفسهم مبالغة كبيرة.

وصف الأدوات الحربيّة

ولم يكتفِ العربىّ فى الجاهليّة بوصف نفســـه بالقوّة، بل أطال فـــى وصف الأدوات التى تعينه على إظهار هـــذه القوّة، والانتصار على منافسيه، فوصف العربىّ الخيل، والسّيف، والرّمح، والدّرع، وغيرها. قال عنترة العبسـّى ذاكرًا الأدوار التى يقوم بها فرسه فى حروبه (العبسىّ، ٢٠٠٤):

جَـــزى اللهُ الأَغَرّ جَـــزاءَ صِدقٍ

إذا مـــا أوقِـــدَت نـــارُ الحُـــروبِ

يَقينـــى بِالجَبـــينِ وَمَنكِبَيـــهِ

وَأَنصُـــــرُهُ بِمُطَّـــرِدِ الكُعـــوبِ

وَأُدفِئُـهُ إذا هَبَّـت شَمـالا

بَليـلاً حَرجَفًـا بَعـدَ الجَنـوبِ

أَراهُ أهـلَ ذَلِـكَ حينَ يَسـعى

رُعاءُ الحَـيِّ فى طَلَـبِ الحَلوبِ

فَيُخفِـقُ تـارَةً وَيُفيـدُ أُخرى

وَيَفجَـعُ ذا الضَغائِـنِ بِالأَريـبِ

إِذا سَمِـنَ الأَغَـرُّ دَنـا لِقـاءٌ

يُغِـصُّ الشَـيخَ بِاللَّـبَنِ الحَليبِ

شَـديدُ مَجالِزِ الكَتِفَـينِ نَهدٌ

بِـهِ أَثَـرُ الأَسِـنَّةِ كَالعُلـوبِ

وَأُكرِهُـهُ عَلى الأَبطـالِ حَتّى

يُـرى كَالأُرجُوانِـيِّ المَجـوبِ

أَلَسـتَ بِصاحِبى يَـومَ التَقَينا

بِسَـيفٍ وَصاحِبى يَـومَ الكَثيبِ

وقال امرؤ القيس الكندىّ يصف خيله (الكندىّ، ٢٠٠٤):

وقد أغْتدى قبلَ الشّروعِ بسابحٍ

أقَبَّ كيَعفُورِ الفلاةِ مجنَّبِ

بذى مَيعةٍ كأنَّ أدنى سِقاطِهِ

وتقريبهِ هَوْنًا دآليلُ ثَعلَبِ

عظيمٍ طويلٍ مطمئنَّ كأنّهُ

بأسفلِ ذى ماوان سرْحةُ مرْقبِ

يُبَارى الخنُوفَ المستقلَّ زماعُه

ترى شخصَه كأنّه عودُ مشجبِ

لهُ أيطَلا ظبيٍ وساقا نَعامةٍ

وصَهوةُ عَيرٍ قائمٍ فوقَ مرْقبِ

كثيرُ سوادِ اللّحم ما دامَ بادنًا

وفى الضّمرِ ممشوقُ القوائمِ شوذَبِ

لهُ جُؤجُؤٌ حَشرٌ كأنَّ لِجَامَهُ

يُعالى به فى رأسِ جذعٍ مُشذَّبِ

وعَينان كالماويّتَينِ ومَحجِرٍ

إلى سَنَدٍ مثْلِ الصَّفيحِ المنصَّبِ

ويخطو على صُمٍّ صلابٍ كأنّها

حجارةُ غَيلٍ وارساتٍ بِطحلُبِ

لهُ كفلٌ كالدعْــص لبَدَه النَدى

إلى حــاركٍ مثــل الغبيــطِ المذأبِ

ومُســتفلِكُ الذَّفرى كأنَّ عِنانَه

ومثناتَــه في رأسِ جذعٍ مُشــذَّبِ

وأســحمُ ريّانُ العســيب كأنَهُ

عثاقيلُ قِنوٍ مــن سُميحة مرطبِ

وبهوٌ هــواءٌ تحتَ صُلب كأنَهُ

من الهضْبةِ الخلقاءِ زُحلوق ملعبِ

يُديرُ قطاة كالمحَالة أشـرِفتْ

إلى ســندٍ مثــل الغبيــط المُـذَأَّبِ

إذا ما جرى شأوَين وابتلَ عِطفُه

تقــولُ هزيزُ الريح مــرّتْ بأثأبِ

وقال أيضا (الكندىَ، ٢٠٠٤):

وَقَد أغتَدى وَالطَيرُ فى وُكُناتِها

بِمُنجَـرِدٍ قَيــدِ الأَوابِــدِ هَيــكَلِ

مِكَــرٍّ مِفَــرٍّ مُقبِلٍ مُدبِــرٍ مَعًا

كَجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَيلُ مِن عَلِ

كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِبدُ عَن حالِ مَتنِهِ

كَمـا زَلَّـتِ الصَفـواءُ بِالمُتَنَـزَّلِ

مسحٍّ إذا ما السابحاتُ على الونى

أثـرنَ غبـارًا بالكديـدِ المـركَلِ

على العقبِ جيَّاش كأنَّ اهتزامهُ

إذا جـاش فيه حميُه غَليُ مِرْجلِ

يطيرُ الغلامُ الخفُّ عن صهواتِهِ

وَيُلْـوى بأثْوابِ العَنيـفِ المُثقَّلِ

دَريرٍ كَخُـذْروفِ الوَليدِ أمَرَّهُ

تقلُّـبُ كفَّيــهِ بخيـطٍ مُوصَّـلِ

لهُ أيطـلا ظبيٍ وسـاقا نعامةٍ

وإرخـاء سـرحانٍ وتقريبُ تتفلِ

ضَلِيْعٌ إذَا ما اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ

بِضَافٍ فُوَيْقَ الأَرْضِ لَيْسَ بِأعْزَلِ

كَأَنَّ سـراتَهُ لدى البيتِ قائمًا

مَدَاكَ عَـرُوسٍ أَوْ صَلايَـةَ حَنْظَلِ

وقال علقمة الفحل التميميّ يصف فرسه (الكنديّ، ٢٠٠٤):

وقد أغتَدى والطَّيرُ فى وُكُناتِها

وماءُ النَّدى يجرى على كلِّ مِذنَبِ

بِمُنجَــرِدٍ قَيدِ الأوابِــدِ لاحَهُ

طِــرادُ الهَوادى كلَّ شـأوٍ مُغرَّبِ

بغَــوجٍ لبانُــهُ يُتَــمُّ بَريمُــهُ

على نَفْثِ راقٍ خَشيَةَ العينِ مُجلِبِ

كُمَيتٍ كلَونِ الأُرجُوان نشرتَه

لِبَيــعِ الرِّواءِ فى الصُّــوان المُكعَّبِ

مُمَرٍّ كعَقــدِ الأنــدَريِّ يَزينُهُ

مع العتَــقِ خَلقٌ مُفعَمٌ غيرُ جَأنَبِ

لهُ حُرَّتانِ تَعرِفُ العِتقَ فيهما

كَســامِعَتىْ مَذعورةٍ وَســطَ رَبربِ

وجَوفُ هَواءٌ تحتَ مَتْنٍ كأنَّه

من الهضبَةِ الخَلقاءِ زُحلوقُ مَلعبِ

وقال أوس بن حجر المازنىّ يصف سيفه (الدّينورى، ١٩٥٨):

كأَنَّ مَدَبَّ النَّمْــلِ يتَّبِعُ الرُّبَى

ومَــدْرَجَ ذَرٍّ خاف بَرْدًا فأَسْــهَلا

على صَفْحَتَيْهِ بَعْدَ حِينِ جِلاَئِهِ

كَفَى بالَّذِى أَبْلَــى وأَنْعَتَ مُنْصُلا

ووصف عدىّ بن وادع الأزدىّ سيفه فقال (البغدادىّ، ١٩٩٩):

سَيفُ ابنِ نَشْـوانَ بكفّى وقد

سَــقاهُ شَــهرًا مِــدوسُ الصَيقَــلِ

أَخضــرُ ذو زِرِّينِ يُســقَى سِما

مًــا فــإذا أُرهِــفَ لم يَنحَــلِ

أَحمــى بِــهِ فَــرجَ سَــلُوقيّةٍ

كالشَّــمسِ تَغشَــى طَرفَ الأَنملِ

ووصف امرؤ القيس الكندىّ رمحه فقال (الكندىّ، ٢٠٠٤):

جَمَعْــتُ رُدَيْنِيًّا كأَنَّ سِــنَانَه

سَــنَا لَهَــبٍ لَمْ تَتَّصِــلْ بدُخَــانِ

وتفاخر ابن زَيَّابة التيْمىّ بتمكّنه من اسـتخدام الرّمح والدّرع، فقال (الطّائىّ، ١٩٩٨):

الرُّمْــحُ لاَ أَمــلا كَفِّــى بِــهِ

واللِبْــدُ لا أَتبــعُ تَزْوَالَــهُ

وَالــدِّرْعُ لاَ أبْغِــي بِهَــا نَثْرَةً

كلُّ امْــرِئ مُسْــتَوْدَعٌ مَالــه

وهــذه الأدوات الحربيّة هي رصيد لصاحبهــا، وإضافة لقوّته، وإعانــة له للوصول إلى الانتصار المذكور الذى يشــغل باله فى بيئة خصبة من المنافسة، فيصفها ليرهب بها عدوّه.

قال عمرو بن معد يكرب الزبيدىّ يعلن جاهزيّته لنوائب الزّمن ويعدّ أسلحته التى حضّرها لها (الطّائىّ، ١٩٩٨):

أعْدَدتُ للحدثَانِ سَــا

بِغَــةً وَعَــدَّاءً عَلَنْــدَى

نَهْدًا وذا شُــطَبٍ يَقُدُّ

البَيْــضَ والأبــدانَ قَدّا

دراسات سابقة عن وصف الأدوات الحربيّة

أكّد السّــعيدىّ وخلاوىّ (٢٠١٧) أنّ الشّــاعر الجاهلىّ كان يذكر عدّة الحرب مثل السّيوف والرّماح والقسىّ والخيل لتهديد أعداءه، وذكرت أبو الرُّبّ (٢٠٠٦) أهميّة الأسلحة -مثل السّيف، والرّمح، والدّرع - والخيل فى حماية الأفراد والقبائل.

أدوار النّساء فى الحروب

يظهر الشّــعر الجاهلىّ أدوارًا مختلفة للنّســاء عــن الرّجال فى الحروب، فالرّجال يقاتلون، ويحمون نساء قبيلتهم. قال عمرو بن معد يكرب الزبيدىّ (الطّائىّ، ١٩٩٨):

لَمَّــــا رَأيْتُ نِسَــاءَنَا

يَفْحَصْــنَ بالمَعْــــزَاءِ شَــدًّا

وَبَــدَتْ لَمِيــسُ كَأنَّهَــــا

بَــدْرُ السَّــمَاءِ إذَا تَبَــدَّى

وَبَدَتْ مَحَاسِــنُهَا الَّتِى

تَخْفَـــى وَكانَ الأمْــرُ جِــدًّا

نَازَلْــتُ كَبْشَــهُمُ وَلَمْ

أرَ مِـــنْ نِــزَالِ الكَبْــشِ بُــدًّا

وقال عمرو بن كلثوم التّغلبىّ (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

عَلَــى آثَارِنَــا بِيــضٌ كِــرَامٌ

نُحَــاذِرُ أنْ تُفَــارِقَ أوْ تَهُونَــا

ظَعَائِنَ مِنْ بَنِي جُشَـمَ بْنِ بَكْرٍ

خَلَطْنَـا بِمَيْسَـمٍ حَسَـبًا وَدِينَـا

أَخَذْنَ عَلَـى بُعُولَتِهِـنَّ عَهْدًا

إِذَا لَاقُـوا فَـوَارِسَ مُعْلَمِينَـا

لَيَسْـتَلِبُنَّ أَبْدَانًـا وَبِيضًـا

وَأَسْـرَى فِـي الحَدِيـدِ مُقَرَّنِينَا

إِذَا مَـا رُحْنَ يَمْشِـينَ الهُوَيْنَا

كَمَـا اضْطَرَبَتْ مُتُونُ الشَّـارِبِينَا

يَقُـتْنَ جِيَادَنَـا وَيَقُلْنَ لَسْـتُمْ

بُعُولَتَنَـا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَـا

إِذَا لَمْ نَحْمِهِـنَّ فَـلَا بَقِينَـا

لِشَـيْءٍ بَعْدَهُـنَّ وَلَا حَيِينَـا

وَمَا مَنَعَ الظَّعَائِـنَ مِثْلُ ضَرْبٍ

تَـرَى مِنْـهُ السَّـوَاعِدَ كَالقُلِينَـا

وإذا ما مات سيّد من سادات القبيلة، فإنّه يُخشى على حماية نساء القبيلة من بعده. قال عنترة بن شدّاد العبسيّ يرثي مالك بن زهير العبسيّ، ويستذكر حمايته معه لنساء عبس (الجزريّ، ٢٠١٠):

لقـد جلبـا جلبًـا لمصـرع مالكٍ

وكانَ كريمًـا ماجـدًا لهجـانِ

وكان إذا مـا كان يـومَ كريهـةٍ

فقـد علمـوا أنّـى وهـو فَتيـانِ

وكنّا لدى الهيجاءِ نحمى نساءَنا

ونضـربُ عنـدَ الكـربِ كلّ بنـانِ

وقال الرّبيع بن زياد العبسىّ يرثى مالك بن زهير (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

نـام الخَلِـىُّ ومـا أُغمِّـضُ حارِ

مـن سـيِّىء النّبأ الجليلِ السَّـارِى

مِنْ مِثْله تُمسِـى النّساءُ حواسِرًا

وتقـوم مُعْوِلـةٌ مـع الأسـحارِ

مَنْ كان مسـرورًا بمَقْتَـلِ مالكٍ

فَلْيَـأْتِ نِسـوَتنا بوَجْـهِ نهـارِ

يَجد النّسـاءَ حواسـرًا ينْدُبْنَه

يبكـينَ قبـل تبلُّـجِ الأسـحارِ

قـد كُنَّ يَخْبـأن الوُجوهَ تسـتُّرًا

فاليـومَ حـين بـدَوْنَ للنُّظّـارِ

يَخْمِشْنَ حُرَّات الوُجوهِ على امرئٍ

سَـهْلِ الخليقـةِ طيّـب الأخبـارِ

أفبَعْـدَ مَقْتَـل مالك بـن زُهَيْر

تَرْجُـو النّسـاءُ عواقـبَ الأطهـارِ

وقال المهلهل بن ربيعة يصف حال نساء تغلب بعد مقتل كليب وائل بن ربيعة (الجزرى، ٢٠١٠):

كنّا نغارُ علـى العواتق أنْ تُرى

بالأمـسِ خارجــةً عـن الأوطانِ

فخرجنَ حينَ ثوى كليبُ حُسَّرًا

مسـتيقناتٍ بعـــده بهـوانِ

فترى الكواعـبَ كالظّباء عواطلا

إذ حـانَ مصرعُــه مـن الأكفـانِ

يخمُشن من أدِم الوجوه حواسرًا

مِـن بعـده ويعـــدنَ بالأزمـانِ

متسـلّباتٍ نكدهـنّ وقـدْ ورى

أجوافهـنّ بحرقـةٍ وورانـــــــى

وحماية النّساء أمر مهم ويؤخذ بالحسبان عند التّفكير بالوقائع والحـروب. قـال لقيط بـن يعمر الإيـادىّ يحذّر إياد من كسـرى (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

يا قومُ لا تأْمَنوا إن كُنتُمْ غُيُرًا

على نسـائِكم كِسـرى وما جَمَعا

وكان الرّجال يفتخرون بالسّبى فى الحـروب، فهو دليل على قوتهم مقارنة برجال القبيلة المنافِسـة، والّذين عجزوا عن حماية نسائهم منهم. قال الأفْوَه الأودىّ مفتخرًا على بنى عامر (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

نُقاتِل أقوامًا فنسْـبِى نساءَهم

ولم يـرَ ذو عـزٍّ لنسـوتنا حِجْلا

نقودُ ونَأبـى أنْ نُقَادَ ولا نرى

لقـوم علينا فـى مُكارَمـةٍ فضلا

وإنّا بِطاءُ المشـى عندَ نِسـائِنا

كما قَيَّـدتْ بالصّيفِ نجْديّةٌ بزلا

نظــلُّ غَيارى عندِ كلِّ ســتيرةٍ

نُقلِّب جيدًا واضحًا وشَــوًى عبْلا

وكانــت القبيلــة التى لم تســتطع حماية نســائها تعيَّر بذلك، وتُوســم بالضعف والهوان والعار. قارن عروة بن الورد العبسىّ بين سبى عبس لليلى بنت شعواء العامريّة لمدّة طويلة، وسبى بنى عامر أسماءَ العبســيّة لفترة وجيزه، قبل أن ينقذها قومها، وافتخر على بنى عامر بذلك، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

إن تأخُذوا أسماءَ موقفَ ساعةٍ

فمأخذُ ليلى وهــى عذراءُ أعجبُ

لبسنا زمانًا حسنَها وشبابَها

ورُدَتْ إلى شــعواءَ والرأسُ أشيبُ

كمأخذنا حسناءَ كرهًا ودمعُها

غــداةَ اللّــوى معصوبــةً يتصَبّبُ

وقــال زهير بن جَنــاب الكلبىّ معيّرًا تغلب بســببه نســائهم (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

تَبًّا لِتَغْلبَ أنْ تُســاقَ نِساؤُهم

سَــوْقَ الإمــاء إلى المواسِــم عُطّلا

وقال أيضًا في ذلك (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

وسَـبَيْنا من تَغْلـب كلَّ بَيْضا

ءَ رَقُـودِ الضُّحى بَـرُود الرُّضابِ

وقـال عبيد بن الأبرص الأسـديّ يفتخر بإحـدى معارك قومه (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

وأوانِـس مثـلِ الدُّمـى

حُـورِ العيـون قد اسـتبينا

وإذا ردّ السـابي سـباياه لقبيلتهنّ، فهي معايرة أخرى لرجال القبيلة. ذكر زهير بن جَناب غزوه غطفان، وسـبى نساء منهم، ثمّ ردّ السبايا لهم، ومنّته عليهم بذلك، فقال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

ولم تَصْـبر لنـا غطفَـانُ لَمّـا

تلاقَيْنـا وأُحـرِزَت النِّسـاءُ

فَلَوْلا الفَضْـلُ منّا ما رَجَعتم

إلى عـذراءَ شِـيمَتُها الحَيـاءُ

دراسات سابقة عن أدوار النّساء في الحروب

وقـد أكّد عدّة باحثين وقوع مسـؤوليّة حماية نسـاء القبيلة من

السّبى على رجالها، وأنّ سبى النّساء يجلب العار والسّبة (طقّوش، ٢٠٠٩؛ ضيف، ٢٠٠٨؛ أبو الرُّبّ، ٢٠٠٦). وأشار الحوفى (١٩٦٣) إلى أكثر من هذه الأدوار المذكورة للنّساء فى الحرب فى الجاهليّة، فرأى أنّ من النّساء من حاربن، ومنهنّ من قادت جيوشًا عربيّة، ومن أدّت دورًا جاسوسيًّا، أو حماسيًّا. ولكنّ الحوفى (١٩٦٣) عدّد فئة قليلة لا تظهر أمام أعداد الرّجال الّتى تقوم بهذه الأدوار، فمثلًا ذكر أربع نساء قادت جيوشًا فى الجاهليّة والفترة الأولى من الإسلام فقط، ولكن لا يصحّ استنتاج أنّ النّساء كُنّ يَقُدْنَ الجيوش بناءً على هذا العدد الضئيل مقارنةً بعشرات الآلاف من القادة الرّجال، بل الأصحّ القول بأنّهن استثناء لا يُذكر، والاستثناء أمر طبيعى، وجزء من أىّ قاعدة، فليس من المعقول أن لا تظهر امرأة تقود جيشًا فى فترة أكثر من ١٥٠ عام وفى هذا العدد الكبير من القبائل.

***

الفرديَة

تعريف ببُعد الفرديَة

يعيش الأفـراد ضمن مجموعـات أكبر، ولا يعيشـون فرادى، وينشـؤون في إطار هذه المجموعات علاقات مع أفرادها الآخرين، ولـكلّ مجموعة تأثير معيَن بقوّة مـا على أفرادها، قوّة تأثير الفرد ضمـن مجموعته تشـير إلى ارتفـاع درجة الفرديّـة، وتطغى فيها الاهتمامـات الفرديّـة، ومصلحة الفرد علـى اهتمامات المجموعة ومصلحتها، والدرجة المنخفضة جدًّا من الفرديّة تُسمَى الجماعيّة، وتشـير إلى قوّة تأثير المجموعـة على أدوار الفـرد، وتطغى فيها مصلحة المجموعة واهتماماتها على مصلحة الفرد واهتماماته.

الدّرجـة العالية من الفرديّة تجعل الرّوابط بين الأشـخاص في المجموعـة ضعيفة، والأفكار والقيـم متباينة، حيث يختلف فكر الأفـراد عـن بعضهم بشـكل كبير، بسـبب حريّة اختيـار الفكر وأسـلوب الحياة للجميع، أمّا الدرجة العالية من الجماعيّة فتفرض علـى أفراد المجموعة طريقة تفكير واحدة، وعادات وتقاليد مُتَبعة من الجميع، ولا تسمح بأيّة فكرة جديدة لدى الأفراد.

فبالتّالى يمكن تعريف الفرديّة على أنّها السّماح العالى للأفراد داخل المجموعة الواحدة بالاختلاف الفكرى، أمّا الجماعيّة فهى المدى العالى من الولاء الفكرى، والتّشابه بين الأفراد فى المجموعة الأكبر.

تأثير الفرديَة فى الأسرة

ولدرجة الفرديَة - مثل باقى الأبعاد الثقافيَة الأخرى - تأثيرات على كلّ مؤسّسات المجتمع، وأوّلها الأسرة، إذ تختلف علاقة الأفراد ببعضهم البعض فى الأسر الفرديّة عن الأسر الجماعيَة. فى الأسر الجماعيّة يعيش الأقارب فى مجموعات كبيرة معًا، أو قريبين من بعضهم البعض جغرافيًّا، وغالبًا ما تكون الأسر ممتدَّة، ومكوّنة من الأب، والأمّ، والأبناء، والأجداد، وأحيانًا الأعمام والعمّات، ويعيشون معًا طوال حياتهم، والسّبب فى كون الأسر ممتدّة ومتميّزة بعلاقة طويلة الأمد هو الولاء المطلق لها من قبل أفرادها.

يفكّر الأبناء بنفسهم كجزء من المجموعة، ويطغى فكر «نحن» على فكر «أنا»، حيث يفكّر الأبناء بعقليّة الأسرة، وقوانينها، وعاداتها، ويجب أن يتناغم تفكيرهم ويتناسق مع الأهل، فلا توجد آراء شخصيّة، فالآراء محدّدة مسبقًا، و يعتبر إظهار أىّ رأى مخالف تحدّيًا ومواجهة مرفوضة، ويُصنّف صاحبه بأنّ له شخصيّة سيّئة، ويُنظر له نظرة المعاقب على عدم احترامه القوانين الأسريّة غير المكتوبة، وظهور رأى جديد مخالف لما ألفته الأسرة قد يستوجب اجتماعًا عائليًّا لمناقشته والتّصدّى له، وهذا مهمّ لتنمية حسّ الولاء عند الأبناء، فعلاقتهم بالأهل علاقة تستمرّ

العمر بأكمله، إذ يعيش الأبناء فى منزل الأهل أو فى منطقة قريبة منهم حتّى بعد زواجهم، ويستمرّ الولاء فى الطّقوس، والأعياد، والاحتفالات، والمناسبات.

يتدخّل الأهل فى كلّ القرارات المصيريّة التى تخصّ الأبناء، مثل الزّواج، والعمل، بل ويعتبر رأيهم أهمّ من رأى الفرد صاحب الشّأن نفسه، فالزّواج مثلًا شأن عائلى تلتقى فيه أسرتا الزّوجين، وليس الزّوجان فقط، ممّا يستوجب تكافؤ الأسرتين اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا، وقد يُرفَض زواج ما لعدم حصول هذا التّكافؤ، أو قد تدفع العصبيّة والولاء للأسرة الأكبر -مثل القبيلة - بقرار زواج أفرادها لأن يكون داخليًّا فقط، بمعنى أن يكون العروسان من نفس العائلة.

تعطى هذه العلاقة طويلة المدى أطرافها إحساسًا بالأمان النّفسى والمادّى، فالأهل مثلًا يساعدون ابنهم على مصاريف الدّراسة، فيكبر الابن ويجد وظيفة، ثمّ يساعد أهله ماديًّا، ويساعد الأفراد العاملون الأفرادَ الّذين فى مرحلة الدراسة، أو الباحثين عن العمل، وتمتدّ العلاقات والاهتمامات والدّعم لتشمل الأشخاص الذين يتعاملون كثيرًا مع العائلة، مثل الأصدقاء.

أمّا الابن الذى يكسر قواعد وعادات المجموعة، فيُوصم بالعار، ويلحقه الخزى أحيانًا إذا كان الموضوع يتطرّق لقيم أخلاقيّة معيّنة، والخزى والعار أحاسيس خارجيّة تنتج من معرفة الأقارب بالأمر الذى حصل، وتأثير معرفتهم على هذا الإحساس، وهذا التّأثير

يزداد قوّة كلّما ازدادت درجة الجماعيّة، ويستمدّ هذا التّأثير قوّته من درجات الخصوصيّة المنخفضة الّتى تتّسم بها هذه الأسر، حيث ليس هناك ما يعرف بشأن خاصّ، فالشّأن لا بدّ أن يكون عامًّا، لذلك تُناقَش الأمور الخاصّة بالأفراد بشكل جماعى، وينتشر الحديث فى شؤون الآخرين كثيرًا.

على الطـرف الآخر من المقياس هناك الأسـر عاليـة الفرديّة، وفيهـا يعيش الأبناء الصّغـار مع أبيهم، وأمّهم فقـط، أمّا الأبناء الكبار فيعيشون حياة مستقلّة، حتّى قبل زواجهم وتأسيس أسرهم الخاصّة بهم، إذ يغادر الابن منزل الأبوين فور استقلاليّته الماديّة، واستطاعته الاعتماد على نفسه، فتبقى الأسر صغيرة، وولاء أفرادها لهـا قليل، فنادرًا ما يزور الأقـارب بعضهم، وحتّى علاقة الأبناء بالأبوين قد لا تستمرّ كثيرًا بعد مغادرة الأبناء منازل آبائهم، فتقلّ أو تنتهى نفسيًّا وماديًّا.

فـى هذا النوع من الأسـر يتعلّـم الأبناء أن يكون لهـم آراؤهم الشـخصيّة، فلا تطغى شخصيّة الأسرة على شـخصيّة الأبناء، بل العكـس هو الصّحيح، فيطغى فكر «أنا» علـى فكر «نحن»، ويفكّر الأبناء بنفسـهم كجزء مسـتقلّ، وليس بالضّرورة أن يتناغم تفكير الأبناء مع عادات وطقوس معيّنة يمارسها أحد أفراد الأسرة، بل إنّ الابن الذى تشـبه آراؤه آراء الآخرين يتمّ تصنيفه على أنّه شخصيّة ضعيفـة ومُقلّدة، إذ يجب أن تكون له آرائه وطرقه المختلفة، حيث

أنّ اختلاف الآراء يُعدّ أمرًا صحّيًّا.

يجعل عدم ولاء الأبناء لأهلهم الأسرة مصدرًا غير فعّال للإحساس بالأمان النّفسي والمادّى، فالابن يعمل ويعول نفسه مبكّرًا، ويخرج من الإطار المادّى والنّفسى والفكرى للأسرة، أمّا الأهل فلا ينتظرون مساعدة ابنهم مستقبلًا. ولا يتدخّل الأهل فى القرارات الّتى تخصّ الأبناء مثل الزّواج والعمل أبدًا، فهى شـؤون شـخصيّة لصاحبها، فالـزّواج مثلًا قد يتـمّ إذا تكافأ الزّوجان علميًّـا أو فكريًّا بعيدًا عن الوضع الاجتماعى أو الاقتصادى لأسرة أحدهما.

الابن الذى يخالـف القوانين الخاصّة بالأسـرة يوصم بالذّنب، وليس العار، والفرق بين الذّنب والعار هو أنّ الذّنب شعور داخلى، وليـس لأطراف خارجيّـة دور فى تكوينه، أمّا العار فهو شـعور خارجى ينشـأ من نظرة المجتمـع، وذلـك لأنّ الخصوصيّة مهمّة ومحفوظة فى هذه الأسـر، فلا يتحدّث الأفراد فى شؤون الآخرين، ولا يتناقلون أخبارهم، لأنّهم لا يعتقدون أنّها من شأنهم.

***

الأسرة العربيّة الجاهليّة على مقياس الفرديّة

العيش فى مناطق جغرافيّة متقاربة

القراءة المتمعّنة فى الشّعر الجاهلى تعطى إشارات واضحة على ارتفاع درجة الجماعيّة فى الأسرة فى ذلك العصر، حيث كانت الأسر ممتدّة، يعيش أفرادها فى مناطق جغرافيّة متقاربة، وكانت تشمل أكثر من الأبّ، والأمّ، فتمتدّ إلى الأعمام، والعمّات، وكانت العشيرة كلّها، وأحيانًا القبيلة، تعيش فى منطقة جغرافيّة واحدة. تَحدّث ذو الإصبع العدوانىّ عن قومه، وأشار إلى سكناهم معًا بكلمة الحىّ، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

عذِيـرَ الحَـيِّ مِـنْ عَدْوَا
نَ كانـوا حَيّـةَ الأَرْضِ
بَغَـى بَعْضُهُـمُ بَعْضًـا
فَلَـمْ يُبْقـوا علـى بَعْـضِ
فَقَـدْ صَـاروا أحاديثًـا
بِرفْـعِ القَـوْلِ والخَفْـضِ
ومِنْهُـمْ كَانَـتِ السَّـادا
تُ وَالمُوفُـونَ بِالقَـرْضِ

دراسات سابقة عن العيش فى مناطق جغرافيَة متقاربة

لم يكتــفِ طقّــوش (٢٠٠٩) بذكر عيش أفراد الأســرة الواحدة فــى الجاهليّة معًا فقط، بل ذهــب إلى وجود فكرة الملكيّة الجماعيّة للماء والكلأ بين أفراد الأسرة الواحدة كضرورة اقتصاديّة، ويشرف عليهــا غالبًا الابن الأكبر، وقد ذهب علــى (١٩٩٣) إلى أنّ القبيلة بأكملها تسكن مكان واحد، وليس فقط الأسرة، وذلك بغرض حماية الأموال والأعراض.

نصرة الأقارب لبعضهم

ولعلّ الســبب الرّئيسى لسَــكَنهم فى مناطق جغرافيّة قريبة من بعضها البعض هو حماية أملاكهم وأعراضهم، فما أن يحدث حادث لأحدهم، حتّى يهبّ الجميع لنجدته، وهذا أعطى الشّــعور بالأمان والقوّة، ولهذا كثر مديح الأقارب، فهم الدّعم والنجدة والأمان. قال زهير السَّكب يمدح بنى عمومته (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فنعــمَ بَنــو العــمِّ والأقربون
لــدى حُطمَــةِ الزَمــن المُمْحــلِ
ونعــمَ المواســونَ فــى النّائبا
تِ للجَــارِ والمعتفــى المُرْمِــلِ

ونعـمَ الحماةُ الكفـاةُ العظيمَ

إذا غائِـظُ الأمـر لم يُحلَـلِ

ميامينُ صُبْرٌ لـدىَ المعضلاتِ

علـى مُوجـع الحـدثِ المعضِـلِ

مباذيـلُ عفوًا جزيـلَ العطاءِ

إذا فَضلـةُ الـزّاد لم تُبـذَلِ

هم سـبقوا يوم جَـرْى الكرام

ذَوى السَّـبق فى الزّمـــن الاوّلِ

وسامَوْا إلى المجد أهلَ الفَعال

فطالـوا بفعلهـــم الأطـوَلِ

وأكّد عبيد بن عبد العزّى السّـلاميّ على حـقّ القريب بالنصرة حتّى فى وجود الخلافات، فقال (البغدادىّ، ١٩٩٩):

وَلا أَدفَعُ ابنَ العَمّ يَمشى عَلى شَفا

وَلَـو بلَّغتنـى مـن أَذاهُ الجَنـادِعُ

وَلكـن أَواسـيهِ وأنسـى ذُنوبَـهُ

لترجِعَـهُ يَومًـا إِلـيَ الرَّواجِـعُ

وأُفرِشُــهُ مــالى وَأحفَـظُ عَيبَــهُ

لِيَســمعَ إنِّــى لا أُجازيــهِ ســامعُ

وَحَســبُكَ من جَهلٍ وَسوءِ صَنيعَةٍ

مُعــاداةُ ذى القُربى وإن قيــلَ قاطِعُ

فسـلِمْ عَناكَ الأهلَ تَسلم صُدورُهم

وَلا بُــدَّ يَومًــا أن يروعَــكَ رايــعُ

الدّهر، فقال (الكندىّ، ٢٠٠٤):

أبَعْــدَ الحارثِ الملِكِ ابن عَمْرٍو

وَبَعْــدَ الخيرِ حُجْــرٍ ذى القِبابِ

أرجّى مــن صروفِ الدّهرِ لينًا

ولم تَغْفَــلْ عــن الصــمِّ الهضابِ

وكان من المســتغرب عدم نصــرة القريب لقريبه. عاتب قيس بن زهير العبسىّ ابنَ عمّه الرّبيع بن زياد لتردّده فى نصرته على بنى بدر بعــد قتلهم أخاه مالكًا، وكان الرّبيع مــتردّدًا لخلاف قد وقع بينــه وبين قيس، ولكــنّ الرّبيع نصر قيس بعــد معاتبته له، قال قيس (الجزرىّ، ٢٠١٠):

أينجــو بنو بَــدرٍ بمقتلِ مالكٍ

وَيخذلُنــا فــى النَّائبــات ربيعُ

وكان زيــادٌ قبلــه يُتّقــى بهِ

مــن الدّهــرِ إنْ يــومٌ ألمّ فظيــعُ

فقُلْ لربيعٍ يحتذى فِعلَ شيخِهِ

ومــا النّــاسُ إلّا حافــظٌ ومضيعُ

وإلّا فَمــا لى فى البــلادِ إقامةٌ

وأمــرُ بَنــى بــدرٍ علــىّ جميــعُ

كذلك فقد لام طرفة بن العبد البكرىّ بُعْدَ وجفاء ابن عمّه، فهذا غير مألوف وقاسٍ على النّفس، قال طرفة (التبريزىّ، ١٩٨٠):

فما لى أرانى وابنَ عمّى مالِكًا

متى أدنُ منــه ينأى عنى ويبعدِ

يَلومُ وَمــا أدرى عَلامَ يَلومُنى

كَما لامَنى فى الحَيِّ قُرطُ بنُ مَعبَدِ

وأيأســنى من كلِّ خيرٍ طلبتُه

كأنّــا وضعنــاه إلى رمــسِ مُلحَدِ

على غير شيءٍ قلتهُ غير أنّنى

نَشَــدْتُ فلم أُغْفِــلْ حَمُولةَ مَعبَدِ

وقال فى ذلك أيضًا (التَبريزىَ، ١٩٨٠):

وإن يَقذِفوا بالقَذع عِرْضَك أسقِهمْ
بشرْبِ حياضِ الموتِ قبلَ التهدُّدِ
بلا حَــدَثٍ أحْدَثْتُهُ وكَمُحْدِثٍ
هجائى وقذفى بالشَّكاةِ ومطردي
فلو كان مولاى امرءًا هو غيره
لَفَــرّجَ كَرْبــى أوْ لأنْظَرَنى غَدى
ولكنّ مــولاى امرؤٌ هو خانقي
على الشّــكرِ والتّسْآلِ أو أنا مُفتَدِ
وظلمُ ذوى القربى أشدُّ مضاضةً
على المرءِ من وَقْعِ الحُســامِ المُهنّدِ

الثأر شأن أسرىَ

وظهرت نصرة الأقارب لبعضهم البعض جليًّا فى تفشّــى الثّأر، فالمقتــول يجب أن يظهر من يطالب بدمه مــن أقاربه، مثل الأب، أو الابــن، أو الأخَ، أو العــمّ، ولا يتحقّــق الثأر بقتــل القاتل فقط، إذ تُطلــب أســرة القاتل كلّها بالثــأر، وأحيانًا عشــيرته، وأحيانًا قبيلتــه بأكملها -وهذا بحســب قوّة أهل المقتــول ونفوذهم - إذ لا

يُنظـر إلى القاتل بصفته الفرديّة، فمفهـوم الفرد غير موجود، بل يُنظر إليه بصفتـه جزء من مجموعته، وهنا تظهر الدرجة العالية من الجماعيّة بقطبى المعادلة، فأسـرة القتيل بأكملها تريد الثّأر من أسرة القاتل بأكملها. والأمثلة على الثّأر كثيرة، منها ثأر قيس بن الخطيم بن عدىّ الأوسىّ لأبيه وجدّه، حيث أنّ رجل من عبد القيس قتـل جدَّه، ورجلٌ من بنى حارثـة من الخزرج قتل أباه، وذلك فى حادثـين منفصلـين، فثأر لهما -لأبيه وجـدّه - قيس، فقتل قاتل أبيه بيثرب، وقتل قاتل جدّه بذى المجاز، على الرغم أنّ قيس كان طفـلاً وقت الحادثتين، وكان أخْذُه بالثّأر عندما كبر، قال قيس بن الخطيم فى ذلك (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

ثأرتُ عديًّا والخطيمَ فلم أضعْ

ولايـةَ أشـياخٍ جُعلـتُ إزاءَهـا

ضربتُ بذى الزّجّين ربقةَ مالكٍ

فأبـتُ بنفسٍ قد أصبتُ شـفاءَها

وقـد ثأر دريد بن الصمّة لمقتـل أخيه عبد الله، ولم يكن ثأره من القاتل فقط، ولا حتّى من عشـيرته، بل هاجـم غطفان بأكملها يوم الغدير، قال دريد فى ذلك (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فأبلـــغ سُــلَيْمًا وألفافَها

وقـد يَعْطِـفُ النَّسَـبُ الأكـبرُ

بأنِّـى ثـأرتُ لإخوانِكـم

وكُنـتُ كأنِّـى بهـم مُخْفِـرُ

وقال فى ذلك أيضًا (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

جَزيْنـا بنـى عبـسٍ جـزاءً موفَّرًا

بمقتـلِ عبــدِ الله يـوم الذَّنائـبِ

ولـولا سـوادُ الليـلِ أدركَ رَكْضُنـا

بذى الرِّمْثِ والأرْطى عِياضَ بنَ ناشِـب

قتلنـا بعبــدِ الله خـيرَ لداتِـه

ذُؤابَ بـن أسمـاء بـنِ زيد بـن قارِب

وقال أيضًا فى نفس المناسبة (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

قَتَلْنـا بعبـدِ اللهِ خـيرَ لِداتِـهِ

وخـيرَ شـبابِ النّاسِ لو ضُـمَّ أجمَعَا

ذؤابَ بـنَ أسماءَ بن زيد بنَ قارِبٍ

منيّتـهُ أجْـرَى إليهـا وأوْضَعـا

فتىً مثلَ مَتْنِ السيف يَهتزُّ للنَّدى

كعاليـةِ الرُّمْـحِ الرُّدَيْنـىِّ أرْوَعـا

وذكـر الشَّـنفرى الأزديّ ثـأره لأبيـه، فقال بعد مقتـل قاتِله (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

شـفَيْنا بعبد الله بعضَ غليلِنا
وعوفٍ لدى المَعْدَى أوانَ استهلَّتِ
قتلنـا حزامًـا مُهدِيًـا بمُلَبّدٍ
محلّهمـا بين الحجيـجِ المصوِّتِ
فإن تُقبِلوا تُقبل بمَنْ نِيل منهمُ
وإن تُدْبِـروا فـأُمَ مَنْ نِيـلَ فُتّتِ

وقـد يطلب الثّأر أيضًا ابنُ عمّ القتيـل، فأبناء العمومة جزء من الأسـرة الكبيرة، ومن الممكن أن يطالبوا بحقّ القتيل. قال شِرحاف بن المُثلّم العائذيّ الضبّيّ بعد قتله عُمارة بن زياد العبسيّ بابن عمّه (الجزريّ، ٢٠١٠):

ألا أبلـغْ سَـراةَ بنـي بَغيض
بمـا لاقـتْ سـراةُ بنـي زيـادِ
وما لاقتْ جَذيمـةُ إذ تحامى
ومـا لاقى الفـوارسُ مـن بِجادِ
تركنـا بالنّقيعـة آلَ عبـس
شَـعاعًا يُقْتَلـون بـكلّ وادِ

وما إن فاتنا إلاّ شريدٌ
يَؤمُّ القفرَ فى تيهِ البلادِ
فسلْ عنّا عُمارةَ آل عبسٍ
وسَلْ وردًا وما كلٌّ بَدادِ
تركتُهمُ بوادى البَطِن رَهْنًا
لِسيدَانِ القَرارة والجِلادِ

دراسات سابقة عن كون الثأر شأن أسرىَ

ذكر على (١٩٩٣) أنّ أقرب عصبيّة فى الجاهليّة كانت بين أفراد الأسرة الواحدة، على اعتبار أنّ أقرب دم للإنسان هو دم أسرته، وهذا السّبب الرّئيسى الّذى كان يدفع أفراد الأسرة أولًا لطلب الثأر لأهلهم.

الفخر بالأسرة وإنجازاتها

ونتيجة لهذا الانصهار للهويّة الفرديّة ضمن بوتقة الأسرة الواحدة، فإنّ إنجازات الأفراد هى إنجازات الأسرة، ويحقّ لأىّ فرد الافتخار بها. قال الأفْوَه الأودىّ مفتخرًا بأبيه (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أبى فارسُ الشوهاء عمرو بن مالكٍ
غداة الوغى إذ مال بالجدّ عاثِرِ

وقال حاجز بن عوف الأزدىّ مفتخرًا بإنجازات أبيه وعمّه يوم داج، وهو يوم بين بنى سلامان وبنى هلال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أبى رَبَـعَ الفـوارِسَ يوم داج

وعمِّـى مالـكٌ وَضَـعَ السِّـهاما

فلـو صاحَبْتِنـا لَرَضيـتِ منا

إذا لم تَغْبُـقُ المائـةُ الغلامـا

وقال لبيد بن ربيعة العامرىّ مفتخرًا بأبيه وأعمامه (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أبُنيَّ هـل أَبْصَرْتَ أعْـ

مامـى بنـى أمِّ البنينـا

وأبى الـذى كان الأرا

ملُ فى الشِّـتاء لـه قَطينا

وأبـا شَـرِيكٍ والمُنـا

زِلُ فـى المضِيـق إذا لقينا

مـا إنْ رأيتُ ولا سمعْـ

تُ بمثلهـمْ فـى العالَمينا

فبقيــتُ بعدَهُــمُ وكنـ

تُ بطول صُحبتهم ضنَينا

دَعْنــى وما مَلَكَتْ يَميـ

نى إنْ سددْتُ بها الشؤونا

وافعــلْ بمالِــك ما بدا

لــك مُســتعانًا أو مُعينــا

وقال أيضًا مفتخرًا بعشيرته (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

إنّا إذا التقتِ المجَامِعُ لم يَزَلْ

منّــا لِــزَازُ عظيمــةٍ جَشّــامُها

وَمُقَسّــمٌ يُعْطِى العشيرةَ حَقَّهَا

وَمُغَذْمِــرٌ لحقوقِهــا هَضّامُهــا

فضلًا وذو كرمٍ يعينُ على النَّدى

ســمــحٌ كسُــوبُ رغائــبٍ غنّامُها

وقال فيهم أيضًا (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

وإذا الأمانةُ قُسّــمتْ فى مَعْشَــرٍ

أوْفَــى بأوْفَــرِ حَظّنَــا قَسّــامُهَا

فَهُمُ السُّعَاةُ إذا العشيرةُ أُفْظِعَتْ

وهـمُ فوارِسُـهَا وَهـمْ حُكّامُهـا

وهـمُ رَبيـعٌ للمُجَـاورِ فيهـمُ

والمرمِـلاتِ إذا تطـاولَ عَامُهـا

وَهُمُ العَشـيرةُ أنْ يُبَطِّىءَ حاسدٌ

أو أن يَلُـومَ مـعَ العـدوِّ لوَامُهـا

وقالت الحمراء بنت ضمرة النهشـليّة مفتخـرة بأبيها وأخيها ضمرة (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

إنّـى لبنـت ضَمرة بـن جابرِ

سـادَ معـدًّا كابـرًا عـن كابـرِ

إنّـى لأخت ضَمرة بـن ضَمرهْ

إذا البـلاد لُفّعـت بجمـرهْ

وتعدّى الفخر بالقرابة مـن الدّرجة الأولى، فوصل إلى الافتخار بالنّسـب أيضًا. ذكر مُضاض بـن عمرو الجرهمىّ جـدّه -جدّه هو مضاض الجرهمىّ الّذى زوّج ابنته لإسماعيل عليه السّـلام- ونسبه مفتخرًا، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

وأَنكحَ جدّى خَيْرَ شخصٍ علمْتَهُ

فأبنـاؤه مِنّـا ونحـنُ الأصاهـرُ

دراسات سابقة عن الفخر بالأسرة وإنجازاتها

أكّد على (١٩٩٣) فخر الأفراد الجاهليّين بأفراد أسـرتهم، مثل الأعمـام والأخوال، وأنّ كثرتهم أيضًا كانـت مصدر للعزّ والفخر، خاصّةً إذا كانوا أصحاب سـيادة، فكانوا يقولون مفتخرين: «رجل مُعمّ ومُخول».

وراثة الإنجازات الأسريَة

بالإضافـة لحقّ الافتخار، فهناك حـقّ وراثة الإنجازات أيضًا، قـال زهير بن جناب الكلبيّ مخاطبًا أحد أحفاده، ومؤكّدًا على هذا الحقّ (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أبَنِـيَ إنْ أهْلِـكْ فقدْ
أوْرَثْتُكُمْ مَجْـــدًا بَنِيَّهْ
وَتَرَكْتُكُـم أبناءَ سـا
داتٍ زِنَادُكـــم وَرِيَّـهْ

ولـكُلُّ ما نـالَ الفَتَى
قـد نِلْتُـه إلا التَّحِيَّـهْ

وكذلك فعل الســموأل بناءً على وصيّة جدّه الّذى أورثه المجد، وأوصاه بالحفاظ عليه، قال السموأل (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

وفيْتُ بـأدرُع الكِنـدىَ إنّى

إذا مـــا ذُمَّ أقـوامٌ وفيْـتُ

وأوصَــى عاديًـا يومًـا بـألاً

تُهـدّم يـا سمـوأل مـا بنيـتُ

بنى لى عاديًـا حِصنًا حصينًا

ومـاءً كلمـا شـئتُ اسـتقيْتُ

أهميَة النَسب الأسرىَ

وبناءً على ذلك فإنّ النسب مهمّ وذو قيمة كبيرة، وهو إشارة إلى مجد، أو عار. أشـارت دخْتَنوس بنـت لقيط بن زُرارة التميميّة إلى نسـب أبيها عند ذكرها مناقبه فى مرثيّته، وكان أباها قد قتل يوم شـعب جبلة – وهو يوم بين تميم وحلفائها، وبنى عامر وحلفائها – فقالت (الجزرىَ، ٢٠١٠):

عثر الأغرُّ بخير خنِـ

دفَ كهلِهـــا وشـبابِها

وأضرَّهـــا لعدوِّهـا

وأفكِّهـــــا لرقابِهـا

وقريعِهـــا ونجيبِهـــا
فـــي المطبقـــاتِ ونابِهـــا
ورئيســـها عنـــد الملو
كِ وزَيْـــنِ يـــوم خطابِها
وأتمِّهـــا نســـبًا إذا
رجعـــــت إلى أنســـابِها

دراسات سابقة عن أهميَة النَسب الأسرىَ

رأى ضيف (٢٠٠٨) أنَ السَيادة فى القبيلة فى الجاهليَة غالبًا ما تكون عن طريق الوراثة الأســريَة، من الأب لأبنائه، ولكنَ طقَوش (٢٠٠٩) نفى تمامًا أن تكون السَــيادة بالوراثة الأســريَة، بل ذهب إلى أنَ العرب كانت تأنف من توريث السَــيادة، وكانت تُسوَد من توافرت فيه ستَ خصال، وهى الكرم، والنَجدة، والحلم، والصَبر، والتَواضع، والبيان، أمَا الهاشمــى (١٩٦٩) فقد ذكر أنَ العرب فى الجاهليَة كانت تفتخر بأنسابها، وأكَد أنَ الرَئاسة القبليَة والشَرف تكون متوارثة فى أسرة معيَنة لامتيازها بصفات معيَنة، وقد اتَخذ علــى (١٩٩٣) رأيًا محايدًا بخصوص السَــيادة فى القبيلة، وأكَد أنَ بعض السَادة ورثوا سيادتهم بسبب القرابة، بينما استحقَها آخرون بسبب صفات معيَنة فيهم.

انعدام الخصوصيَة الأسريَة

ونظراً لاعتبار الفرد جزءًا من أسرته، فإنّ ما يخصّه يعتبر شأنًا جماعيًّا يستطيع أىّ فرد التحدّث فيه، ويترتّب على هذا الأمر انعدام الخصوصيّة. اشتكى الشّنفرى الأزدىّ من هذا الأمر فى أهله، وذكره كأوّل الأسباب التى دعته لمغادرتهم، والعيش مع الوحوش، قال الشّنفرى (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

ولى دونكم أهلونَ سِيْدٌ عَمَلَّسٌ

وأرقطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جيألُ

هم الأهلُ لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ

لديهم ولا الجانى بما جَرَّ يُخْذَلُ

وقد أدرك امرؤ القيس الكندىّ أهميّة حفظ اللّسان، فقال (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

إذا المرءُ لم يخزن عليه لسانَه

فَلَيْسَ على شَيْءٍ سِوَاهُ بخزّانِ

أثر الشّائعة فى الأسرة والتّعامل معها

ونتيجة لتفشّى ظاهرة كلام الأفراد فى شؤون غيرهم، وانعدام الخصوصيّة، فإنّ الشّائعة لها أثر قوى فى هذه الأسر، والعار قد

يلحق بأىّ فرد إذا تناقل النّاس شؤونه، لذلك يسعى الأفراد لدرء أىّ شائعة تطالهم. قال قيس بن الخَطيم ردًّا على من اتّهموه بالتّقاعس عن ثأر أبيه وجدّه (الطّائىّ، ١٩٩٨):

وَكُنْتُ امْرَأً لاَ أسْمَعُ الدَّهْرَ سُبَّةً
أسَــبُّ بِهَــا إلاّ كَشَــفْتُ غِطَاءَهَا

أمّــا العبّاس بن مرداس السلمىّ حين ردّ علــى خفاف بن ندبة هجائــه فقد ذكر أنّ الحــىّ يعلم من هو العبّــاس، فهو موضوع ذو أهميّــة، فالحىّ يجب أن يعلم، وسمعة المــرء مهمّة، قال العبّاس (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فقد يعلم الحىُّ عندَ الصِّياح
بــأنَّ العَقِيلــةَ بــى تُسترُ
وقد يعلم الحَىُّ عند الرهانِ
أنّــى أنـــا الشـامخ المُخْطِرُ
وقد يعلم الحىُّ عند السؤالِ
أنــى أجـــودُ وأُسْـتَمْطَرُ
فأنّــى تعيّرنــى بالفخـارِ
فهــا أنــا هــذا هــو المُنْكَــر

تأثير الفرديَة على المجتمع

وتؤثّـر درجـة الفرديّـة على علاقـات الأفراد فـي المجتمع، فتختلف المجتمعات عالية الفرديّة عن المجتمعات عالية الجماعيّة اختلافًا جذريًّا وجليًّا. في المجتمعات التي تحمل درجة عالية من الجماعيّـة، يتعامل الأفراد مع أنفسـهم، ويتمّ التّعامل معهم أيضًا على أنّهم جزء مـن مجموعتهم الأكبر، وغالبًا مـا تكون العائلة، فيُلاحظ بوضوح أنّ هذه المجتمعات غالبًا ما تكون مجتمعات قبليّة.

يترتّب علـى هذه النظرة للفرد كجزء مـن مجموعته – قبيلته– الكثـير مـن التّبعات الاجتماعيّـة، فتكون أهميّة الفـرد من أهميّة مجموعته، ويُعدّ النّسـب مهمًّـا، ومعيارًا أساسـيًّا لمفاضلة النّاس، فيصبح بعض الأفراد أهمّ وأكثر نفوذًا بسـبب انتمائهم القبليّ، وهذا يؤثّر على الكثير من المعاملات مثل الزّواج، والعمل، وحلّ الخلافات، فيكون اسم العائلة مهمًا في الزّواج، والحصول على فرصة عمل، فمن الشّائع والمألوف أن يطغى اسم عائلة معيّن على مجال مهني ما.

وحـلّ الخلافـات يتمّ بشـكل جماعي أيضًـا، ويتعـدّى الفرد صاحب الخلاف، فمن الشـائع مثلًا اعتبار الثّـأر قبليًّا يُطالب كلّ أفـراد القبيلة به، وغالبًا ما يتمّ حـلّ الخلافات بعيدًا عن المحاكم والجهـات الرسميّة، فقـوّة ضغط المجموعات والعادات الرّاسـخة كفيلة بحلّ أغلب النّزاعات.

نظـرًا لإحساس الجماعة أنّ الفرد جزء منهــا، فإنّ المجموعة تتكفّل بحماية أفرادها، ومســاعدتهم فى حلّ مشــاكلهم، ويشعر الفــرد بالأمان لانتمائه لمجموعة، وإحســاس الفــرد أنّه جزء من مجموعته من شــأنه زيادة الولاء لهــذه المجموعة ليصل إلى الولاء المطلق فى أغلب الأحيان، وهذا الولاء لا يكون نفسيًّا فقط، بل يكون فكريًّــا أيضًا، فيَفْقِد الأفراد حريّــة التّفكير، ويجب أن يفكّروا كما اعتادت قبائلهم، فالعادات القديمــة المتوارثة مهمّة جدًّا، ولا يتمّ قبول شــخصيّة مختلفة عن المجموعة، بل تُرفض، وقد يصل الأمر أحيانًــا إلى أكثــر من الرّفض، ممّا يجعل هــذه المجتمعات مقاومة بشــكل كبير لأيّة فكــرة جديدة، كلّ هذا يجعل الأفــراد يتكلّمون بصيغــة الجماعة، فيكثر فى حديثهم مفردات الجمع مثل «نحن»، و«لنــا»، و«إنّا»، بل تتأثّر حتّى لغتهم، فيتحدّث الأفراد فى بعض المجتمعات بصيغة الجمع عند الحديث عن أنفسهم بشكل فردى.

كذلك فــإنّ الخصوصيّة غير موجودة فى مثل هذه المجتمعات، إذ أنّ مفهوم شــىء فردى خاصّ بصاحبه غــير موجود، فالفرد جزء من مجموعته، وعليه فإنّ الشأن جماعى، يخصّ كلّ المجموعة، ويستطيع أى فــرد التحدّث فيه، ويترتّب على ذلك وجود أثر كبير للشّــائعة، يصل إلى العار، الّذى يطال أفراد المجموعة كلّهم فى بعض الأحيان، فتحاول المجموعات تجنّب وردّ الشائعات التى تخصّ أفرادها.

تقبـع المجتمعـات الفرديّة علـى الجهة المقابلـة للمجتمعات الجماعيّـة على مقياس البعد الخـاصّ بالفرديّة، وتختلف الأفكار فيها تمامًا، فالفرد يتعامل مع نفسه، ويتمّ التعامل معه باستقلاليّة تامّـة عن مجموعتـه، فهو فرد لا يقدّمـه أو يؤخّـره إلّا أفكاره، ومميّزاتـه الفرديّة، مثل شـهاداته العلميّة، وخبراتـه العمليّة، ومميّزاته الشخصيّة.

بناءً على ذلك، فإنّ اختيار الأفـراد للمعاملات الاجتماعيّة في مثل هذه المجتمعات يكـون لمؤهّلاتهم الفرديّة، وليس الجماعيّة، فالـزّواج مثلًا يتمّ بناء على موافقة الطرفـين وملائمتهم لبعضهم، ويتمّ ترشـيح شـخص ما لعمل ما بناءً على خبراتـه الفرديّة فقط، وليس هناك قوى اجتماعيّة متمثّلة بالعادات من شأنها أن تعيقه أو تدعمه، وفي حال حدوث خلافات، يتمّ حلّها بشكل قانوني، ويتمّ التعامل فيها مع الأفراد أصحاب الشّأن فقط.

استقلاليّة الفرد ترتّب عليه حماية نفسه، وحلّ مشاكله بنفسه أيضًا، وهذا يجعل ولاء الفرد لنفسـه فقط، وتصل الاسـتقلاليّة إلى التّفكـير، فالفرد حرّ في اختيار وتشـكيل أفكاره - بما لا يخالف قانـون الدّولة - ولا تشـكّل أي مجموعة ضغطًـا عليه لتبنّي أفكار معيّنة، ممّا يجعل التّباين في الأفكار وأسـلوبَ الحياة بين الأفراد كبـيرًا جدًّا، وهذا يُفقد العادات المتوارثـة قيمتها، ويتيح المجال لدخـول أيّة أفكار جديـدة إلى المجتمع، واسـتقلاليّة الفرد تحفظ

خصوصيّته أيضًا، فشـأنه يعنيه فقط، ولا ينتهكه أحد، ومسـتوى الشّائعات منخفض، وثبوتها يجلب الذّنب، وليس العار.

المجتمع العربىَ الجاهلىَ على مقياس الفرديَة

العصبيَة القبليَة

يـدلَ تحليل الشّـعر الجاهلى علـى أنّ الفرد فـى الجاهليّة قد حمـل العادات والأفـكار التى تربّى عليها فى أسـرته، ونقلها إلى مجتمعه، فبالتّالى فإنّ الأفـكار الجماعيّة، واعتبار الفرد جزءًا من مجموعته قد انتقل من الأسرة إلى المجتمع، فأصبح المجتمع يحمل درجة عالية جدًّا من الجماعيّة، والشّـواهد على هذا كثيرة، وتُعدّ العصبيّـة القبيلة أبرزها. افتخر عبيد بن عبـد العزّى بقومه بنى سـلامان بن مفرّج – والملاحظ من كلام الشّـاعر اللّهجة الجماعيّة – فقال (البغدادىّ، ١٩٩٩):

لعمرى لنعمَ الحىُّ إنْ كنتَ مادحًا
هـمُ الأزدُ إنَّ القـولَ بالصِّدقِ شـايعُ
كرامٌ مسـاعيهمْ جسـامٌ سماعهمْ
إذا ألغـتِ النَّـاسَ الأمورُ الشَّـرايعُ
لَنا الغُرَفُ العُليا من المَجدِ وَالعُلى
ظَفِرنـا بِهـا وَالنّـاسُ بعـدُ تَوابعُ

لَنـا جَبَـلا عِـزٍّ قَديـمٌ بناهُمـا

تَليعـانِ لا يألوهُمـا مـن يُتالِـعُ

فَكَـم وافـدٍ منّـا شَـريفٌ مَقامُه

وَكَـم حافِـظٍ للقِـرنِ والقِـرنُ وادعُ

وَمن مُطعِمٍ يَـومَ الصَّبا غَيرَ جامِدٍ

إِذا شَـصَّ عَـن أَبنائِهِـنَّ المَراضِـعُ

يُشَـرِّفُ أَقوامًـا سِـوانا ثيابُنـا

وَتَبقـى لَهـم أَن يَلبسـوها سَمايـعُ

إِذا نَحنُ ذارَعنا إِلى المَجدِ وَالعُلى

قَبيـلًا فَمـا يسـطيعُنا مـن يُـذارِعُ

وَمنّـا بنـو مـاءِ السَماءِ وَمُنذِرٌ

وَجفنَـةُ منّـا وَالقـرومُ النزايـعُ

قَبائِـلُ من غَسّـانَ تَسـمو بعامِرٍ

إِذا أنتسـبَت والأزدُ بعـدُ الجَوامـعُ

أدانَ لَنـا النُعمانُ قَيسًـا وَخِندِفًا

أَدانَ وَلَم يمنـع ربيعـــةَ مانِـعُ

وقال عبدالله بن سليم مفتخرًا بقومه الأزد (البغدادى، ١٩٩٩):

المانِعونَ السَّربَ مطَّردًا

وَالخَيلُ تَنحَطُ فى القَنا السُّمرِ

والضَّارِبونَ الكَبشَ ضاحيةً

حَتّى يَخِرَّ مُخَضَّبَ النَحرِ

والباذِلونَ رِقابَ مالِهم

لِعُفاتِهم إن ضُنَّ بالوَفرِ

فَبمثلِهم إن كنتَ مُفتَخِرًا

فافخَر تَحُز أَقصى مَدى الفَخرِ

وهذا زهير بن أبى سلمى المزنىّ قد تعامل مع هَرِم بن سِنان المرّى، والحارث بن عَوْف المرّى - وهما السيّدان اللذان أنهيا حرب داحس والغبراء - على أنّهما جزء من قومهما بنى مرّة، فمدحهما ضمن مديح قومهما، قال زهير (المزنىّ، ١٩٨٨):

فأقسمتُ جهدًا بالمنازلِ من منىً

وما سحفتْ فيهِ المقاديمُ والقملُ

لأرْتَحِلَنْ بالفَجْرِ ثمَ لأدأبَنْ

إلى اللَّيْلِ إلاّ أنْ يُعْرّجَنى طِفْلُ

إلى مَعشَـرٍ لم يُورِثِ اللّؤمَ جَدُّهُمْ
أصاغرهُـم وكلُّ فحـلٍ لـهُ نجـلُ
تربـصْ فإنْ تقـوِ المـروراةُ منهمُ
وداراتُهـا لا تُقْـوِ مِنهُـمْ إذًا نخْـلُ
فـإنْ تُقْوِيَـا مِنْهُمْ فـإنَّ مُحَجَّرًا
وجِزْعَ الحِسـا منهُمْ إذا قَلَّ ما يخلو
بـلادٌ بهـا نادَمْتُهُـمْ وألِفْتُهُـمْ
فـإنْ تُقْوِيَـا مِنْهُـمْ فإنّهُمـا بَسْـلُ
إذا فزعـوا طاروا إلى مسـتغيثِهم
طـوالَ الرّمـاحِ لا ضعـافٌ ولا عزْلُ
بِخَيْـلٍ عليهـا جِنـةٌ عبقريـةٌ
جَديـرونَ يَوْمًا أن يَنالوا فيَسـتَعلُوا
وإنْ يُقْتَلُـوا فيُشْـتَفَى بدِمائِهِـمْ
وكانُـوا قَديمًـا مِـنْ مَنَاياهُـمُ القَتلُ
عَلَيها أُسُـودٌ ضارِياتٌ لَبُوسُـهُمْ
سـوابغُ بيـضٌ لا تخرّقُهـا النبـلُ

إذا لَقِحَــتْ حَــرْبٌ عَــوَانٌ مُضِرَّةٌ

ضروسٌ تهــرُّ النَّــاسَ أنيابها عصلُ

قُضاعِيَــةٌ أوْ أُخْتُهــا مُضَرِيَّــةٌ

يحرقُ فى حافاتهــا الحطبُ الجزلُ

تَجِدْهُــمْ على ما خَيَّلَتْ همْ إزاءها

وَإنْ أفسَــدَ المالَ الجماعــاتُ والأزْلُ

يحشــونها بالمشــرفيَّةِ والقنــا

وَفِتيــانِ صِــدْقٍ لا ضِعــافٌ ولا نُكلُ

تِهامــونَ نَجْدِيّونَ كَيْــدًا ونُجعَةً

لــكُلِّ أُنــاسٍ مِــنْ وَقائِعهــمْ سَـجْلُ

هُمُ ضَرَبُــوا عَن فَرْجِهــا بكَتيبَةٍ

كبيضاءِ حرسٍ فــى طوائفها الرجلُ

مَتى يَشــتَجِرْ قوْمٌ تقُلْ سرَواتُهُمْ

هُــمُ بَيْنَنــا فهُمْ رِضًــى وَهُــمُ عدْلُ

هــمُ جــدّدوا أحــكامَ كلِّ مضلَّــةٍ

مــنَ العُقْــمِ لا يُلْفى لأمثالِهــا فَصْلُ

بعزمـةِ مأمـورٍ مطيـعٍ وآمـرٍ

مطـاعٍ فـلا يلفَـى لحزمهـمُ مثـلُ

ولسـتُ بلاقٍ بالحجـازِ مجاورًا

ولا سـفرًا إلاَّ لـهُ منهـمُ حبـلُ

بلادٌ بهَـا عَـزّوا مَعَـدًّا وغَيْرَهَا

مَشـارِبُها عـذْبٌ وأعلامُهـا ثَمْـلُ

وهـم خير حيٍّ من معـدٍّ علمتهمْ

لهم نائـلٌ فـى قومهم ولهـم فضلُ

فَرِحْـتُ بما خُبِّرْتُ عن سـيِّدَيكُمْ

وكانـا امرأيـنِ كلُّ شـأنهما يعلـو

تَدارَكْتُما الأحلافَ قد ثُلَّ عَرْشُها

وذبيـانَ قد زلَّـت بأقدامهـا النعلُ

فأصْبَحتُمـا منهَا على خَيرِ مَوْطِنٍ

سَـبيلُكُما فيـهِ وإن أحزَنوا سَـهلُ

إذا السنةُ الشهباءُ بالنَّاس أجحفتْ

ونـالَ كِرامُ المالِ فـى الجحرةِ الأكلُ

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتهم
قطينًا بها حتّى إذا نبتَ البقلُ

هنالكَ إنْ يُستخبلوا المالَ يُخبلوا
وإنْ يسألوا يُعطوا وإنْ ييسروا يُغلوا

وفيهمْ مقاماتٌ حسانٌ وجوُههم
وأنديةٌ ينتابها القولُ والفعلُ

على مكثريهم رزقُ من يعتريهمُ
وعندَ المقلّينَ السماحةُ والبذلُ

وإنْ جئتَهم ألفيتَ حولَ بيوتِهم
مجالسَ قد يُشفَى بأحلامِها الجَهلُ

وإنْ قامَ فيهِمْ حامِلٌ قال قاعِدٌ
رَشَدْتَ فلا غُرْمٌ عليكَ وَلا خَذْلُ

سعى بعدهم قومٌ لكي يدركوهمُ
فلَمْ يَفعَلُوا ولم يُليموا ولم يألُوا

فما يَكُ مِنْ خَيرٍ أتَوْهُ فإنّمَا
تَوَارَثَهُمْ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وهــلْ ينبتُ الخطيَّ إلاَّ وشــيجهُ
وتُغــرَسُ إلاَّ فــي مَنابِتِهــا النَّخْــلُ

دراسات سابقة عن العصبيَة القبليَة

ذكر ضيف (٢٠٠٨) عصبيّة الفــرد الجاهليّ لقبيلته، واعتزازه الشّديد بها، وتقديســه لها أكثر من شعائره الدينيّة، وأكدّ طقّوش (٢٠٠٩) علــى وجــود رابطة العصبّية بين أفــراد القبيلة، وكونها مصدر القوّة السياسيّة والعسكريّة للقبيلة، وعامل مهمّ في الحروب بين القبائل، وفي الحفاظ على كيان القبيلة، وأكّد الهاشميّ (١٩٦٩) على دفع العصبيّة القبليّة في الجاهليّة للأفراد إلى السّير على منهج القبيلة ســواءً أصابــت أو أخطأت، وقد ذكر علي (١٩٩٣) تمسّــك العرب الجاهليّين بالعصبيّة القبليّة، وتلبية ندائها عند الملمّات.

نصرة القبيلة لأفرادها

وعلاقــة الفرد في الجاهليّةِ بمجتمعه -المتمثّل بقبيلته - علاقة منفعة متبادلة، يتبادل فيها الفرد مع قبيلته الحقوق والواجبات، فالقبيلة تحمي أفرادها، فــي المقابل يجب أن يُظهِر أفرادها الولاء المطلق لها. ذكر دريد بن الصمّة الجشــميّ نصر قبيلته له عند أخذه بثأر أبيه من بني يربوع، فقال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

دَعَوتُ الحَيَّ نصرًا فاستَهَلّوا
بِشُبّانٍ ذوى كَـرَمٍ وَشـيبِ
عَلى جُردٍ كَأمثالِ السَّـعالى
وَرَجْـلٍ مِثـلِ أهمِيَـةِ الكَثيبِ
فَمـا جَبُنـوا وَلَكِنّـا نَصَبنا
صُـدورَ الشَـرعَبِيَّةِ لِلقُلـوبِ
فَكَم غـادَرنَ مِن كابٍ صَريعٍ
يَمُـجُّ نَجيـعَ جائِفَـةٍ ذَنـوبِ
وَتِلكُـم عـادَةٌ لِبَنـى رِبابٍ
إذا مـا كانَ مَـوتٌ مِـن قَريبِ
فَأَجلَوا وَالسَّـوامُ لَنـا مُباحٌ
وَكُلُّ كَريمَـةٍ خَـوٍّ عَـروبِ
وَقَد تُرِكَ اِبـنُ بَكرٍ في مَكَرٍّ
حَبيسًـا بَـينَ ضِبعـانٍ وَذيبِ

وذكـر عمـرو بن كلثـوم التّغلبىّ منعـة قومه وحمايـة قبيلته لأفرادها، فقال (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

وَنَحْنُ إِذَا عِمَـادُ الحَيِّ خَرَّتْ

عَـنِ الأَحْفَـاضِ نَمْنَعُ مَـنْ يَلِيْنَا

نَجُـذُّ رُؤُوْسَـهُمْ فِي غَـيْرِ بِرٍّ

فَمَـا يَـدْرُوْنَ مَـاذَا يَتَّقُوْنَـا

كَأَنَّ سُـيُوْفَنَا منَّـا ومنْهُـم

مَخَارِيْـقٌ بِأَيْـدِي لاَعِبِيْنَـا

كَأَنَّ ثِيَابَنَـا مِنَّـا وَمِنْهُمْ

خُضِـبْنَ بِأُرْجُـوَانٍ أَوْ طُلِيْنَـا

وافتخر ودَّاكُ بنُ ثُمَل المازنيّ بقومه ووعد بني شيبان بالحرب، وذكـر أنّ قومه ينصرون ويمنعـون أيّ فرد منهم، فـى أىّ مكان، وبغضّ النّظر عن السّبب، فقال (الطّائيّ، ١٩٩٨):

إذَا اسْـتُنْجِدُوا لَمْ يَسـألُوا مَنْ دَعَاهُمُ

لأَيَّـةِ حَـرْبٍ أمْ بِـأَيِّ مَـكَانِ

وتتعـدّى الحماية أفراد القبيلة لتصل الأنسـباء والحلفاء أيضًا. ذكـر زهـير بن جذيمة العبسـيّ تصدّى خالد بـن جعفر بن كلاب العامريّ له حين طالب غنيًّا بدم ابنه شأس، وغنيّ هم أخوال خالد بن جعفر، وحلفاء لبنـى عامر بن صعصعة، قال زهير (الجزريّ، ٢٠١٠):

فلـولا كلابٌ قـد أخـذتُ قرينَتـي
بــردٍ غـنـيٍّ أعبـدًا ومواليـا
ولكـنْ حَمَتهـم عصبـةٌ عامريّـةٌ
يهـزّون فـي الأرضِ القصـارَ العواليـا
مساعيرُ في الهيجا مصاليتُ في الوغى
أخوهـم عزيـزٌ لا يخـافُ الأعاديـا
يقيمـون فـي دارِ الحفـاظِ تكرّمًـا
إذا مـا فـنيَ القـومِ أضحـتْ خواليـا

دراسات سابقة عن نصرة القبيلة لأفرادها

أكّد عدّة باحثين ودارسـين للمجتمع الجاهليّ على نصرة القبيلة لأفرادهـا في الملمّـات، بغضّ النّظر عن كونهـم ظالمين أو مظلومين (طقّـوش، ٢٠٠٩؛ وضيف، ٢٠٠٨؛ وعلـي، ١٩٩٣؛ والهاشميّ، ١٩٦٩).

الثّأر شأن قبليّ

ولا تقتصر الحماية على الأحياء فقط من أفراد القبيلة، بل تصل إلى أمواتهـا، ويكون ذلك بأخذ الثّأر مـن قاتليهم وقبائلهم. حضّ لبيد بـن ربيعة العامريّ على الأخذ بثأر عـروة بن عتبة العامريّ

- عــروة الرحّال - من البرّاض بن قيــس الضمرىّ، وكان نتاج هذا الثّــأر يوم الفجار الثّانى بين قيس عيلان بأكملها وكنانة، قال لبيد (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فأبلــغْ إن عرضتَ بنــى نُمَيْرٍ
وأخــوالَ القتيــل بنــى هِــلالِ
بــأنَّ الوافــدَ الرحَّــال أضحى
مقيمًــا عنــد تَيْمَــنَ ذى الظِّلالِ

وقام المنخَل اليشــكرىّ بعد أن عرف بنيّة عِكَبّ قتلَه بتحريض قومه على الأخذ بثأره، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

طُلَّ وسطَ العراقِ قتلى بلا جُرْ
مٍ وقومــيَ يُنَتِّجــون السِّــحالا

وقال أيضًا فى ذلك (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

ألا مَــن مبلِــغ الحيّــين عنّى
بــأنَ القــومَ قـــد قتلــوا أُبَيّــا
فــإن لم تثأروا لى مــن عِكَبٍّ
فــلا رَوَّيْتُــمُ أبـــدًا صَدِيّــا

دراسات سابقة عن كون الثَّأر شأن قبلىَ

أجمع دارسو المجتمع العربىّ فى الجاهليّة على واجب القبيلة بالثّأر لأفرادها، وأنّ أفراد القبيلة تسخّر نفسها لخدمة هذا الواجب، وأنّ تركه يُعدّ سُبّة وعار، فلم يكن أفراد القبيلة يرضون بالدية، فكان الثّأر سبب رئيسى لحروب القبائل فى ما بينها (طقّوش، ٢٠٠٩؛ وضيف، ٢٠٠٨؛ وعلى، ١٩٩٣ والهاشمىّ، ١٩٦٩).

الولاء المطلق للقبيلة

وللقبيلة على أفرادها واجبات أهمّها الولاء المطلق. قال زهير بن مسعود يظهر ولائه لقومه بنى ضبّة (البغدادىّ، ١٩٩٩):

إنّ بَنى ضَبّة قَومى فَلَن
أَشرِبَهُم ما حَنّتِ النّيبُ
قَولهُم بِرٌ وَجارَاتهم حِجرٌ
فَلا هُجرٌ وَلا حوبُ
يَنمى بهم آباؤهُم لِلعُلى
وَنِسوَةٌ بيضٌ مَناجيبُ

حروب القبيلة الواحدة

وليست الحروب التى تحدث داخل القبيلة الواحدة إلّا اصطدام بعدين ثقافيّين ببعضهما البعض، ينتج عنه تحييد للجماعيّة نتيجة انخفاض درجتها أمام البعد الآخر، والجدير بالذّكر أنّ تحييد الجماعيّة لم يصل بالقبائل إلى الفرديّة، بل قسّم القبيلة إلى مجموعتين أو أكثر -عمادها العشائر الأصغر - وبقيت المجموعات الجديدة الأصغر محافظة على درجتها العالية من الجماعيّة، ومن الأمثلة على الحروب داخل القبيلة الواحدة حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان وهى قبائل من غطفان، وحرب البسوس بين بكر وتغلب وهى قبائل من وائل، وحروب متفرقة بين الأوس والخزرج وهى قبائل من الأزد.

داحس والغبراء

وكانت القبيلة الأكبر قبل حروبها الداخليّة تمثّل بأكملها مجتمعًا واحدًا للأفراد، فبالتّالى فإنّ الفكر الواحد، والحماية، وكلّ ما يفرضه ارتفاع درجة الجماعيّة موجود فيها، فكانت غطفان مُجتمعًا واحدًا قبل داحس والغبراء. لام الرّبيع بن زياد العبسىّ حذيفةَ وحملَ ابنى بدر الفزارىّ الذبيانىّ ضمَّ قيس بن زهير العبسىّ ونصرته بعد خلاف حصل بينه وبين قيس، وقد أشار الرّبيع فى لومه إلى واجباته، وعلاقة أبيه أيضًا من قبله مع قبيلة فزارة، فقال

الرّبيع (الجزرىّ، ٢٠١٠):

ألا أبْلِـغْ بنـى بـدرٍ رسـولًا
علـى مـا كانَ مـن شـنأٍ ووتـرِ
بأنّـى لم أزلْ لكـمُ صديقًـا
أدافـعُ عـن فـزارةَ كلَّ أمـرِ
أسـالمْ سـلمكم وأردُّ عنْكـم
فـوارسَ أهـل نجـرانٍ وحجـرِ
وكانَ أبـى ابـنُ عمَّكـم زيادٌ
صفـيّ أبيكـمُ بـدرِ بـن عمـرو
فألجـأتم أخا الغدراتِ قيسًـا
فقـد أفعمتـم إيغـارَ صـدري
فحسـبى من حذيفةَ ضمَّ قيسٍ
وكانَ البـدءُ مـن حملِ بـن بدرِ
فإمّـا ترجعـوا أرجـع إليكم
وإن تأبـوا فقـد أوسـعتُ عذرى

ثمّ حدث حادث فصل هذا المجتمع إلى مجتمعين محافظين على درجتهمـا العالية من الجماعيّة، وليس هذا الحادث إلّا رهانًا على

الخيـل، وهو من التّنافس الذى تمليـه الدّرجة العالية من الذّكورة على الأفراد، فغلبت درجة الذّكورة على درجة الجماعيّة، وانقسم المجتمع، ولكن مع حفاظ مجموعاته الجديدة على الدرجات العالية من الجماعيّة داخلها. ناشـد أبو جعدة الفزاريّ حمل وحذيفة أبناء بدر على ترك الرّهان على الخيل، فقال (الجزرىّ، ٢٠١٠):

آل بـدرٍ دعـوا الرّهـانَ فإنّا
قـدْ مَلْلنا اللّجـاجَ عنـدَ الرِّهانِ
ودعـوا المرءَ فى فـزارةَ جارًا
إنّ مـا غـابَ عنكـمُ كالعيـانِ
ليتَ شعرى عن هاشمٍ وحصينٍ
وابـنِ عـوفٍ وحـارثٍ وسـنانِ
حـينَ يأتيهمُ لجاجُكَ قيسًـا
رأى صـاحٍ أتيـت أم نشـوانِ

وحتّى أثناء الحرب فإنّ العلاقة الجماعيّة القديمة بين القبيلتين لم تنتـهِ تمامًا، فهذا قيس بن زهير العبسـىّ قد عـرف أنّ ذبيان وعبس مجتمع واحد مُشـتَرك المصير، وأنّ مُصـاب ذبيان فى مقتل حمل وحذيفة لا يقلّ عن مصاب عبس، فقال فى قتله لحمل وحذيفة الفزاريّين (الطّائىّ، ١٩٩٨):

شفيتُ النَّفسَ من حَمَلِ بن بدرٍ

وسـيفى مـنٍ حُذَيْفَة قد شَـفانى

فَإِنْ أكُ قدْ بَـرَدْتُ بهمْ غَليلى

فَلَـمْ أَقْطَـعْ بهـمْ إِلَّا بَنانـى

ورثى قيس حذيفةَ وحملَ أيضًا، وفى شعره بعض الأسف على ما سارت إليه القبيلة الواحدة، قال قيس (الطّائىّ، ١٩٩٨):

تَعَلَّـمْ أنَّ خَـيْرَ النّـاسِ مَيْتٌ

علـى جَفْـرِ الهَبـاءَةِ لا يَريـمُ

ولـولا ظُلْمُـهُ ما زلـتُ أبكى

عليـهِ الدَّهـرَ مـا طَلَـعَ النُّجومُ

ولكـنَّ الفتـى حَملَ بـنٍ بَدرٍ

بَغـى والبَغْـىُ مَرْتَعُـهُ وخيـمُ

أظـنُّ الحِلْـمَ دلَّ علـيَّ قوْمى

وقـدْ يُسْـتَجْهَلُ الرَّجُـلُ الحليمُ

البسوس

وحرب البسوس أيضًا مرّت بنفس التّسلسل من الجماعيّة العالية فى وائل، ثمّ حدثَ رجَح كفّة الذّكورة على الجماعيّة، فقسم القبيلة

الأكـبر إلى قبائل أصغر تحمل الدّرجـة العالية من الجماعيّة. وفى كلام زهير بن جنـاب الكلبىّ القضاعىّ مفتخرًا بانتصاره على وائل -وكان ذلك قبل حرب البسـوس - دلائل واضحـة أن تغلب وبكر قبائـل تقاتل معًا، وتنصر بعضها البعـض، قال زهير (الجزرى، ٢٠١٠):

أيـنَ أيـنَ الفرارُ مِن حـذرِ المو
تِ إذ يتّقـــونَ بالأسلابِ
إذ أسـرنا مهلهـلاً وأخـاهُ
وابنَ عمرٍو فى القَيْدِ وابنَ شـهابِ
وسـبينا مِـنْ تغلـبَ كلَّ بيضا
ء رقـودَ الضّحـى بـرودَ الرّضابِ
حـينَ يدعـو مهلهـلاً يالبكرٍ
هـا أهـذى حفيظـةَ الأحسـابِ
وَيْحَكـمْ وَيْحكمْ أُبيـحَ حِماكم
يـا بنى تغلـبَ أنـا ابـنُ رضابِ
وَهُـمْ هاربـونَ فـى كلّ فـجٍّ
كشـريدِ النَّعـامِ فـوقَ الرّوابـى

واستدارتْ رحى المنايا عليهم

بليوثٍ من عامرٍ وجنابِ

فهم بين هاربٍ ليس يألو

وقتيلٍ معفَّرٍ في التّرابِ

فضلُ العزِّ عزّنا حين نسمو

مثل فضل السّماء فوق السّحابِ

وقال الحارث بن عباد البكريّ يذكر مشاركة بكر وتغلب في خزاز، وكانت خزاز قبل البسوس أيضا (شيخو، ١٩٩١):

نَحنُ مَنعناكُم وُرودَ النهرِ

بالمُرهفاتِ والرّماحِ السُمرِ

فَوارِسٌ مِن تَغلِبٍ وَبَكرِ

عَلى خُيولٍ شُزَّبٍ وَضُمرِ

وذكر عمرو بن الأسود مشاركة بكر وتغلب في ذي قار، وكانت قبل البسوس أيضًا، فقال (الأصمعيّ، ١٩٦٣):

لمَّا سمعتُ نَداءَ مُرَّةَ قد عَلا

وابني رَبيعة في العَجاجِ الأَقتمِ

ومحلّمًا يَمْشون تحت لوائهم
والموتُ تحت لواءِ آل مُحلّم
وسمعتُ يَشْكر تدّعى بحُبَيِّب
تحتَ العجَاجةِ وهى تَقْطُر بالدّمِ
وحُبيِّبٌ يُزْجون كلَّ طِمِرَّةٍ
ومنَ اللّهازم شخْتُ غيْرِ مصَرَّمِ
والجَمع من ذُهل كأنَّ زُهاءهم
جُرد الجمالِ يَقودها ابنا شَعْثمِ

ثمّ حكم كليب وائل بن ربيعة التّغلبيّ معدًا، وكان يحمى حماه التى ترعى فيها نوقه وإبله، ومعها إبل أبناء عمّه البكريّين، وعند البكريّين خالتهم البسوس ضيفة، فجعل جسّاس بن مرّة البكرىّ إبلَ خالته ترعى مع إبله فى حمى كليب، فرفضها كليب، وبعد عدة مناوشات قتلها، وقال فى ذلك (شيخو، ١٩٩١):

سَيَعلَمُ آلُ مُرَّةَ حَيثُ كانوا
بِأَنَّ حِماىَ لَيسَ بِمُستَباحِ

وكان جسّاس يعتبر أنّ خالته وإبلها فى جواره، وأنّ قَتْلَ النّاقة تعدّيًا على هذا الجوار، وأشعلت الدّرجة العالية من التّنافس هذه

الفكــرة، وحوّلت قتل النّاقــة إلى صراع على حمايــة الحمى، قال جسّاس (شيخو، ١٩٩١):

إنّما جــارى لَعَمرى
فَاعلَمــوا أَدنــى عِيالى
وَأرى لِلجــارِ حَقًّــا
كَيَمينــى مِــن شِمــالى
وَأرى ناقَــةَ جارى
فَاعلَمــوا مِثــلَ جمالى
إنَّمــا ناقَــةُ جارى
فــى جِــوارى وَظِــلالى
إنَّ لِلجــارِ عَلَينــا
دَفــعَ ضَيــمٍ بِالعَوالــي
فَأَقِلّــى اللّــومَ مَهلا
دونَ عِــرضِ الجارِ مالى
سَــأُوَدّى حَقَّ جارى
وَيَــدى رَهــنُ فِعــالى
أَو أَرى الموتَ فَيَبقى
لُؤمُــهُ عِنــدَ رِجــالى

ثمّ قتل جسّــاسٌ كليبًا، وكانت حرب البسوس ثأرًا لمقتل كليب،

وانقسم المجتمع المكوّن من وائل إلى مجتمعين مختلفين يحملان الدرجات العالية من الجماعيّة، عمادهما قبيلتي بكر وتغلب، وفي شعر جسّاس أيضًا الأسى على انقسام هذا المجتمع، ولكنها مقتضيات حماية الجار، والنديّة التي تفرضها الدّرجة العالية من الذّكورة، خاطب جسّاس مهلهلًا أخا كليب وصاحب ثأره أنّ المصاب بكليب قد لحق وائلًا بأسرها، قال جسّاس (شيخو، ١٩٩١):

ألا أبلِغ مُهَلهِلَ ما لَدَينا
فَأَدمُعُنا كَأَدمُعِهِ غِزارُ

بَكَينا وائِلَ الباغي عَلَينا
وشَرُّ العَيشِ ما فيهِ غِيارُ

وَنَحنُ مَعَ المَنايا كُلَّ يَوم
وَلا يُنجي مِنَ المَوتِ الفِرارُ

وَكُلٌّ قَد لَقي ما قَد لَقينا
وَكُلٌّ لَيسَ مِنهُ لَهُ اصطِبارُ

أيّام بين الأوس والخزرج

وبلغ التّنافس ذروته بين قبائل الأوس والخزرج -وهي قبائل من الأزد من كهلان القحطانيّة، سكنت المدينة المنوّرة- فامتدّت حروبهم لأكثر من مئة عام، بدأت بحرب سمير، وتبعتها عدّة

حــروب مثل يوم السّــرارة، وحرب فارع، وحــرب حاطب، ويوم الرّبيــع، ويوم البقيع، ويــوم الفجار الأوّل للأنصــار، يوم معبّس ومضرّس، ويوم الفجار الثانى للأنصــار، ويوم بُعاث، وغيرها من الأيّام، وانتهت حروبهم بدخولهم الإسلام.

وظهر التّنافس جليًا فى أشــعار الطرفين، ومنها قول حسّان بن ثابت الخزرجىّ يوم السَّــرارة يفتخر على قيس بن الخطيم الأوسىّ (الجزرىّ، ٢٠١٠):

وَإنّــى لَمِنْجــاءُ المَطِىّ عَلــى الوَجى
وإنّــى لنَــزّالٌ لمــا لمْ أعــوّدِ
وإنّى لَقَــوّالٌ لذى اللّــوثِ مَرْحبًا
وأهْــلًا إذا مــا ريــعَ مــنْ كلِّ مَرْصَدِ
وإنّــى ليدعونــى النّــدى فأجيبهُ
وأضــربُ بيــضَ العــارضِ المتوقّــدِ
فــلا تَعْجَلَنْ يا قَيــسُ وَارْبعْ فإنّما
قُصَــارَاكَ أنْ تُلْقَــى بِــكُلّ مُهنّــدِ
حُسَــامٍ وَأرْمــاحٍ بأيْــدى أعِــزّةٍ
مَتــى تَرَهُــمْ يــا بْــنَ الخَطيــمِ تَلَبَّدِ

أسودٌ لدى الأشْبَال يَحْمى عَرِينَها

مَدَاعِيسُ بالخَطِّىّ فى كلّ مَشهدِ

فردّ عليه قيس، وقال (الجزرى، ٢٠١٠):

فَإنّى لأغنى النّاسِ عَن مُتَكَلِّفٍ

يَرى النّاسَ ضُلّالًا وَلَيسَ بِمُهتَدِ

لساءَ عمرًا ثورًا شَقِيًّا مُوَعَّظًا

ألَدَّ كَأَنَّ رَأسَهُ رَأسُ أصيَدِ

كَثيرِ المُنى بِالزّادِ لا صبرَ عِندَه

إذا جاعَ يومًا يَشتَكيهِ ضُحى الغَدِ

وَذى شيمَةٍ عَسراءَ خالفَ شيمَتى

فقُلْتُ لَهُ دَعنى وَنَفسَكَ أرشِدِ

فَما المالُ وَالأَخلاقُ إلّا مُعارَةٌ

فَما اسطَعتَ مِن مَعروفِها فَتَزَوَّدِ

مَتى ما تَقُد بِالباطِلِ الحَقَّ يَأبَهُ

وَإن قُدتَ بِالحَقِّ الرَواسِيَ تَنقَدِ

إذا ما أَتَيتَ الأَمرَ مِن غَيرِ بابِهِ

ضَلِلتَ وَإن تَدخُل مِنَ البابِ تَهتَدِ

وخاطب صخر بن سـلمان البيّاضيّ الخزرجيّ سويدَ بن الصّامت الأوسـيّ يوم الرّبيـع، وفي خطابه مـا يدلّ علـى أنّ الحرب بين العشـيرتين لم تنسـهِ حقوق القبيلة الأكبر، قال صخر (الجزرىّ، ٢٠١٠):

ألا أبلغا عنّي سوَيْدَ بنَ صامتٍ

ورهطَ سـويدٍ بلّغا وابنَ الأسـلتِ

بأنّا قتلنـا بالرّبيع سَـراتَكم

وأفلـتَ مجروحًا بـه كلّ مفلتِ

فلولا حقوقٌ في العشيرة إنّها

أدلّـت بحـقٍ واجـب إنْ أدلّـتِ

لنالهـمُ منّـا كمـا كان نالهمْ

مقانبُ خيـلٍ أهلكت حين حلّتِ

فردّ عليه سويد بن الصامت (الجزرىّ، ٢٠١٠):

ألا أبلغـا عنّـي صخـيرًا رسـالةً

فقد ذُقْتَ حربَ الأوسِ فيها ابنَ الأسلتِ

قتلنـا سـراياكم بقتلـى سَـراتِنا

وليـسَ الـذى ينجـو إليكـم بمفلـتِ

تأثير الفرديّة في علاقة الأفراد بالملوك والسّادة

وعلاقة الفرد بالحاكم فى الجاهليّة تحكمها بالمقام الأوّل درجة بُعد المسافة كما تمّ شرحها فى الفصل الأوّل من الكتاب، إلا أن هذه العلاقة قد يؤثّر عليها أبعاد ثقافيّة أخرى فى مواقف معيّنة، فتطغى درجة أحدها على درجة الآخر، وقد تمّ شرح تأثير الذّكورة فى الفصل الثّانى، والجدير بالذّكر هنا أنّ درجة الجماعيّة العالية تؤثّر أيضًا على هذه العلاقة.

قتل عمرو بن كلثوم التّغلبىّ لعمرو بن هند اللخمىّ

فى قصّة مقتل الملك عمرو بن هند على يد عمرو بن كلثوم التّغلبى المذكورة والمفصّلة فى الفصل الثّانى من الكتاب، استخدم عمرو بن كلثوم صيغة الجماعة كثيرًا، فكان يستمدّ قوّته من قوّة تغلب قبيلته باعتباره جزءًا منها، قال عمرو بن كلثوم فى الحادثة (الزّوزنىّ، ١٩٩٣):

أَبَـا هِنْـدٍ فَـلا تَعْجَـلْ عَلَيْنَـا
وَأَنْظِرْنَـا نُخَـبِّرْكَ اليَقِيْنَـا
بِأَنَّـا نُـوْرِدُ الرَّايَـاتِ بِيْضًـا
وَنُصْدِرُهُـنَّ حُمْـرًا قَـدْ رُوِيْنَـا

وَأَيَّـــــام لَنَـا غُـرٍّ طِـوَالٍ

عَصَيْنَـا المَلْـكَ فِيهَـا أَنْ نَدِيْنَـا

وَسَـيِّدِ مَعْشَـرٍ قَـدْ تَوَّجُـوْهُ

بِتَـاجِ المُلْـكِ يَحْمِـى المُحْجَرِيْنَـا

تَرَكْنَـا الخَيْـلَ عَاكِفَـةً عَلَيْـهِ

مُقَلَّـدَةً أَعِنَّتَهَـا صُفُوْنَـا

وَأَنْزَلْنَـا البُيُـوْتَ بِـذِى طُلُـوْحٍ

إِلَى الشَّـامَاتِ نَنْفِـى المُوْعِدِيْنَـا

وَقَـدْ هَـرَّتْ كِلاَبُ الحَـيِّ مِنَّـا

وَشَـذَّبْنَا قَتَـادَةَ مَـنْ يَلِيْنَـا

مَتَـى نَنْقُـلْ إِلَى قَـوْمٍ رَحَانَـا

يَكُوْنُـوا فِـى اللِّقَـاءِ لَهَـا طَحِيْنَـا

يَكُـوْنُ ثِقَالُهَـا شَـرْقِيَّ نَجْـدٍ

وَلُهْوَتُهَـا قُضَاعَـةَ أَجْمَعِيْنَـا

وتغلـب قبيلة كبيرة، أفرادها كُثْـر العدد، وهذا عامل مهمّ فى زيادة قوّتها، حتّى قال فيهم عمرو بن كلثوم (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

مَلأنَا البَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا
وَمَاءَ البَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِينَا

هزيمة الحارث بن أبى شمَر الغسَانى فى تغلب ومقتل أخيه

وفى قصَّة أخرى لعمرو بن كلثوم التَّغلبى أنَّ الحارث بن أبى شمَّر الغسَّانى ملك غسَّان بالشَّام مرَّ بتغلب فلم يستقبلوه، فساءه ذلك، فتوعَّدهم، فردَّ عليه عمرو بن كلثوم بالصيغة الجماعيَّة، وقال (الجزرىّ، ٢٠١٠):

أَلا فَاعِلَم أَبَيتَ اللَعنَ أَنَا
أَبَيتَ اللَعنَ نَأبى ما تُريدُ
تَعَلَم أَنَّ مَحمَلَنَا ثَقيلٌ
وَأَنَّ دِبارَ كُبَّتِنا شَديدُ
وَأَنَّا لَيسَ حَيٌّ مِن مَعَدٍّ
يُقاوِمُنا إِذا لُبِسَ الحَديدُ

وكعادة الملوك فى غزو من يهجوهم أو يتوعَّدهم، فقد غزا الحارث الغسَّانى تغلب، إلا أنَّه انهزم فيها، وقُتل أخوه، وعدد كبير من جيشه، وقال عمرو بن كلثوم فى ذلك (الجزرىّ، ٢٠١٠):

هَـلاَّ عَطَفتَ عَلـى أُخَيِّـكَ إذ دَعا
بالثُّـكلِ وَيـلَ أَبيكَ يا اِبـنَ أَبي شَمِر
فَذُقِ الَّذي جَشَّمتَ نَفسَكَ واعْتَرِفْ
فِيهـا أَخـاكَ وَعامِـرَ بنَ أَبـي حُجُر

قتل أبو حَنَش التَغلبيَ لشرحبيل بن الحارث الكنديَ

والتَّغلبـيّ الآخر الذى قتل ملكًا ثأرًا لأخيه هو أبو حنش، الّذى قتل الملك شـرحبيل بـن الحارث الكندىّ ثأرًا لأخيه ذى السُّـنينة التّغلبىّ، ومعلوم ارتباط الثّأر بالدرجة العالية من الجماعيّة، فكان أن هدّده الملك سلمة – وهو أخو شرحبيل – بالقتل، فقال أبو حَنَش التّغلبىّ يردّ على سلمة تهديده (الجزرىّ، ٢٠١٠):

أحـاذر أن أجيئـكَ ثم تحبو
حِبَـاءَ أبيـك يـوم صُنَيْبعـاتِ
وكانـت غَـدْرةٌ شَـنْعاءُ تَهفُو
تقلّدهـا أبـوكَ إلى المـاتِ

تهديد عامر بن جوين الطّائىّ للمنذر بن النّعمان اللخمىّ

وفـى حالة أخرى لم تتعدَّ المناوشـة، قام عامر بن جوين الطّائىّ

بتهديـد المنذر بـن النّعمان الأكـبر ملك الحيرة، وحـذّره عاقبة مهاجمـة قومه طئ، وقد كان عامر أجار امرؤ القيس بن حجر بعد مقتـل أبيه، ممّا أثار النّعمـان عليه، فهدّده النّعمـان، فردّ عليه عامر، وصيغة الجماعة واضحة فى كلامه، فقال (القالى، ١٩٧٦):

تَعَلّـمْ أبيـتَ اللّعـنَ أنَّ قناتَنـا
تزيـدُ علـى غمـزِ الثِّقـافِ تصعُّبـا
أتوعِدُنـا بالحـربِ أمُّـكَ هابـلٌ
رُويـدكَ بَرْقًـا لا أبـا لـكَ خُلَّبـا
إذا خطـرتْ دونى جديلـةُ بالقَنا
وحامَـت رجالُ الغَـوْثِ دونى تحدُّبا
أبيتُ التى تَهْـوَى وأعطيتكَ التى
تسـوقُ إليـك المـوت أخْـرَجَ أكْهَبـا
فإنْ شئتَ أنْ تَزْدارَنا فأتِ تَعترِفْ
رجـالًا يُذيلـونَ الحديـدَ المُقْرَبـا
وإنّـكَ لـو أبصرتَهم فـى مجالِهم
رأيـتَ لهـم جمعًـا كثيفًـا وكوكبـا

وذكَــركَ العيْشَ الرّخــئَ جلادُهم

وملهًــى بأكنــافِ السَّــديرِ ومَشْــرَبا

فأغْــضِ على غيــظٍ ولا تَــرُم التى

تحكَــم فيــكَ الزَّاعِبــئَ المُحَرَّبــا

وقال أيضا فى ذلك (البغدادئ، ١٩٩٩):

أبلــغِ الملــوكَ مألَكَــةً

مَن نأى فى الأَرضِ أو قرُبا

أنَّ حَولى مِن ذُرى أجأ

زَلَقًــا تَخالُــه نُصُبــا

حَولَهُ تَرعى حَمولتُنا

تــأكُلُ العِضــاهَ وَالكَنَبــا

تهديد عارق الطائئ لعمرو بن هند اللخمئ

وفــى حادثة أخرى بين الملك عمرو بن هند ورجل آخر من طئ، وهو قيس بن جروة – المُلقَّب بعارق – فقد كان الملك قد نكث عهده مع طــئ الّذين كان لهم عهد على ألّا يغزو، ولا ينازعوا، ولا يفاخروا، فقام قيس على إثر ذلك بتهديد الملك، وأرسل أبياتًا بدرجة واضحة من الجماعيّة العالية، فقال (الأصفهانئ، ٢٠١٠):

إلى الملكِ الخيْر ابن هند تزوره

وليس من الفوْت الّذى هو سابقُه

وإنَّ نســاءً هُــنَّ ما قــال قائلٌ

غنيمــةُ سَــوءٍ بينهــنَ مَهارقُــه

ولو نِيلَ فى عهدٍ لنا لحمُ أرنب

رَدَدْنا وهذا العهــد أنت مُعالقُه

فهبك ابنَ هندٍ لم تعُقك أمانةٌ

ومــا المــرء إلا عَقــده وَمَواثِقُــه

وكنّا أناسًــا خافضــين بنعمةٍ

يسـيل بنــا تلْــع المَــلا و أبارقُه

فأقســمتُ لا أحتلُّ إلاّ بصهوةٍ

حــرامٌ علــىَّ رَملُــه وشــقائِقُه

وأقسم جَهدًا بالمنازِل من مِنًى

وما خبَّ فى بطحائِهــنَّ دَرادِقُه

لئن لم تغيّر بعضَ ما قد فعلتُم

لأنتحــيَن العظــم ذو أنــا عارقُه

ولأنّ درجة بُعد المسافة عالية، فقد هدّده عمرو بن هند بالقتل،

فاستهزأ قَيس من تهديد عمرو له، فما كان من الملك عمرو بن هند إلّا أن غزا طئ وأسر منها، قال قيس (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

مــن مبلــغ عَمرو بــنَ هندٍ رســالةً
إذا استحقبتها العِيس تنضى على البعدِ
أيوعدُنــى والرّمــل بينــى وبينــه
تبــين رويــدًا مــا أمامــهُ مــن هنــدِ
ومــن أجــأٍ دونــى رِعــانٌ كأنّهــا
قنابــل خيــلٍ مــن كميــتٍ ومــن وَرْدِ
غدرتَ بأمــر أنت كنــتَ اجتذبْتنا
عليــه وشــرُّ الشــيمة الغــدرُ بالعهدِ
فقد يــترُك الغــدرَ الفتــى وطعامه
إذا هــو أمسَــى حَلبــةُ مــن دم الفصدِ

عمرو بن هند اللخمىَ والعبديّون

وكانــت علاقــة الملك عمرو بن هنــد بالعبديّــين متوتّرة، وكان سويد بن خذاق من بنى عبد القيس من العبديّين قد هجاه وتوعّده، وأيضًا صيغة الجماعة واضحة فى شعر سويد الّذى قال (الدّينورىّ، ١٩٥٨):

جَــزَى اللهُ قابُــوسَ بنَ هِنْــدٍ بفِعْلِهِ
بِنَــــا وأَخـــــاه غَـدْرَةً وأَثَامَـا
بمـا فَجَــرَا يَــوْمَ العُطَيْـفِ وفَرَّقَا
قَبَائِـلَ أَحْلافًـا وحَيًّـا حَرَامَـا
لَعَـلَّ لَبُـونَ المُلْـكِ تَمْنَـعُ دَرَّهـا
ويَبْعَـثُ صَـرْفُ الدَّهْـرِ قَوْمًـا نِيَامَا
وإلاَّ تُغادِينـى المَنِيَّـةُ أُغْشِـكُمْ
علـى عُـدَوَاءِ الدَّهْـرِ جَيْشًـا لُهَامَـا

وانتهت مشـاكل العبديّين مع عمرو بـن هند بغزو عمرو لهم، والسّـبى منهم، حتّى اسـتجداه الممزّق العبدىّ، فقال (الأصمعىّ، ١٩٦٣):

حَقًّـا أبَيْتَ اللَّعْنَ أنّ ابـنَ فَرْتَنَا
عَلَــى غَيْرِ إجــرام بِريقِى مُشَـرِّقِى
فَإن كُنتُ مَأكـولًا فَكُن خَيرَ آكِلٍ
وَإلَّا فَأدرِكنــــــى وَلَّــــا أُمَـزَّقِ
أكَلَّفتَنِــى أدواءَ قَـوم تَرَكتُهُــمْ
وَإلَّا تدارَكْنِــى مِـنَ البَحـرِ أغـرَقِ

إنْ يُتْهِمُـوا أُنْجِـدْ خِلافًا عليهِمُ

وإنْ يُعْمِنُوا مُستَحْقِبى الحربِ أُعرِقِ

فـلا أنا مَوْلاهُـمْ ولا فى صَحِيفةٍ

كَفَلْـتُ عليهِـمْ والكفالـةُ تَعْتَقِـى

وظَنِّـى بـهِ أنْ لا يُكَـدِّرَ نِعْمَـةً

ولا يَقْلِـبَ الأعـداءَ مِنْـهُ بمَعبَـقِ

قتل علباء بن الحارث الأسدىَ لحجر بن الحارث الكندىَ

وفى مقتل الملك حجر بن الحارث ملك كندة موقف آخر من طغيان درجـة الجماعيّة على درجة بعد المسافة، وبدأت القصّة حين كان حجر حاكمًا على بنى أسـد فى فترة حكم أبيه الحارث بن عمرو، وكانوا يدفعون له الإتاوة، فهم مسلّمون لمقتضيات بعد المسافة، إلى أن رفضوا دفعها فى أحد الأيّام، فغزاهم حجر، وسبى منهم -وهى مقتضيات الدّرجة العالية من بعد المسـافة - وكان ممّن سباهم عبيد بـن الأبرص الشّـاعر، الذى طلب العفو من الملـك له ولقومه، فقال عبيد (الدّينورىّ، ١٩٥٨):

مَهلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ مَهْلا

إِنَّ فيمـا قُلْـتَ آمـــةْ

فـي كُلِّ وادٍ بَـيْنَ يَثْـ

رِبَ والقُصُـورِ إلى اليمَامَةْ

تَطْرِيـبُ عـانٍ أَوْ صِيَا

حُ مُحَـرِّقٍ وزُقَـاءُ هامَـةْ

أنْـتَ المَلِيـك عليهـمُ

وهُـمُ العَبِيـدُ إلى القِيَامَةْ

ثمّ ملك حجر بعد موت أبيه الحارث، واستغلّ بنو أسد عدم استقرار مملكته، وعداواته الكثيرة مع المناذرة، ومشاكله الداخليّة مع القبائل العربيّة، ورفضوا دفع الإتاوة مرة أخرى، فغزاهم حجر، فقتله عِلباء بن الحارث، فطالب امرؤ القيس بثأر أبيه، قال امرؤ القيس حين كاد يهاجم كنانة ظانًّا أنّهم بنو أسد (الجزرىّ، ٢٠١٠):

أَلا يـا لَهـفَ هِنـدٍ إِثـرَ قَوم

هُـمُ كانـوا الشِـفاءَ فَلَـم يُصابوا

وَقاهُـم جِدُهُـم بِبَنـي أَبيهِم

وَبِالأَشـقينَ مـا كانَ العِقـابُ

وَأَفلَتَهُـنَ عِلبـاءُ جَريـض

وَلَـو أَدرَكتَـهُ صَفِـرَ الوِطـابُ

وردّ عبيـد على امرئ القيـس، وفى كلامه الصيغـة الجماعيّة الواضحة، واعتبار شـأن مقتل حجر الملك شـأنًا جماعيًّا تُعنى فيه قبيلة أسد بأكملها، وليس قاتله فقط، قال عبيد (الأسدىّ، ١٩٩٤):

يـا أيّها السّـائلُ عـنْ مجدِنَا

إنَّـكَ عـن مسـعاتِنا جاهـلُ

إنْ كنْـتَ لمْ تأتِـكَ أيّامنُـا

فاسـألْ تُنَبَّـأ أيّهـا السـائلُ

سـائِلْ بِنـا حُجْـرًا وأجنادَهُ

يـومَ تَـوَلّى جمعَـهُ الحافـلُ

يـومَ أتـى سـعدًا علـى مَأقِطٍ

وَجَاوَلَـتْ مِـنْ خَلْفِـهِ كَاهِـلُ

فَـأوْرَدُوا سِـرْبًا لَـهُ ذُبَّـلا

كأنّهـنَّ اللّهَـبُ الشّـاعِلُ

مظاهـر ارتفاع درجة الجماعيّة والذّكورة فى المجتمع العربىّ الجاهلىّ

أظهـر الفصل السّـابق من الكتـاب ارتفاع درجـة الذكورة فى المجتمع الجاهلىّ، ومـا ترتّب عليها من التّهديد، والفخر، وذكر

الإنجـازات، النّاتـج عن التّنافس بين الأفـراد، وإذا اقترن ارتفاع الذّكورة في المجتمـع بدرجة عالية من الجماعيّة، فإنّ الفرد الذي يرى نفسـه، والذي يتـمّ التعامل معه على أنّه جـزء من قبيلته، سـينقل نفس الفكر التّنافسـي إلى سـياق جمعي، وبالتّالي فإنّ هذه اللهجة الحادّة سيتمّ استخدامها بصيغة المجموعة أيضًا، فسيضرب الفرد بسيف قبيلته، ويهدّد باسمها، ويفتخر بها، وبإنجازاتها، ويبالغ في وصفها.

التّحدّي بصيغة الجماعة

مـن الأمثلة على التّحدّي بصيغـة الجماعة قول عمرو بن كلثوم التّغلبيّ (الزّوزنيّ، ١٩٩٣):

نَعُـمُّ أُنَاسَـنَا وَنَعِـفُّ عَنْهُمْ
وَنَحْمِـلُ عَنْهُـمُ مَـا حَمَّلُوْنَـا
نُطَاعِنُ مَا تَرَاخَـى النَّاسُ عَنَّا
وَنَضْرِبُ بالسَّـيُوْفِ إِذَا غُشِـيْنَا
بِسُـمْرٍ مِـنْ قَنَا الخَطِّـيِّ لُدْنٍ
ذَوَابِـلَ أَوْ بِبِيْـضٍ يَخْتَلِيْنَـا
كَأَنَّ جَمَاجِـمَ الأَبْطَـالِ فِيْهَـا
وُسُـوْقٌ بِالأَمَاعِـزِ يَرْتَمِيْنَـا

نَشُــقُّ بِهَا رُؤُوْسَ القَوْمِ شَــقًّا
وَنَخْتَلِـبُ الرِّقَـابَ فَتَخْتَلِيْنَـا

وقوله أيضًا (الزّوزنيّ، ١٩٩٣):

إِذَا مَـا عَـيَّ بِالإِسْـنَافِ حَيٌّ
مِـنَ الهَـوْلِ المُشَـبَّهِ أَنْ يَكُوْنَـا
نَصَبْنَـا مِثْلَ رَهْـوَةِ ذَاتَ حَدٍّ
مُحَافَظَـةً وَكُنَّـا السَّـابِقِيْنَا
بِشُـبَّانٍ يَـرَوْنَ القَتْـلَ مَجْدًا
وَشِـيْبٍ فِي الحُـرُوْبِ مُجَرَّبِيْنَا
حُدَيَّـا النَّـاسِ كُلِّهِـمُ جَمِيْعًا
مُقَارَعَـةً بَنِيْهِـمْ عَـنْ بَنِيْنَـا
فَأَمَّـا يَـوْمَ خَشْـيَتِنَا عَلَيْهِـمْ
فَتُصْبِـحُ خَيْلُنَـا عُصَبًـا ثُبِيْنَـا
وَأَمَّـا يَـوْمَ لاَ نَخْشَـى عَلَيْهِمْ
فَنُمْعِـنُ غَـــارَةً مُتَلَبِّبِيْنَـا

بِرَأْسٍ مِنْ بَنِي جُشْـم بِن بَكْرٍ
نَـدُقُّ بِـهِ السُّــهُوْلَةَ وَالحُزُوْنَـا
أَلاَ لاَ يَعْلَـمُ الأَقْـوَامُ أَنَّـا
تَضَعْضَعْنَـا وَأَنَّـا قَـدْ وَنِيْنَـا
أَلاَ لاَ يَجْهَلَـنْ أَحَـدٌ عَلَيْنَـا
فَنَجْهَلَ فَـوْقَ جَهْـلِ الجَاهِلِيْنَا

التّهديد والوعيد بصيغة الجماعة

قام دريد بن الصمّة الجشـميّ بتهديد بنى الحارث من مذحج، وكان أحدهـم قـد قتل أخاه خالـد، وبتحليل شـعر دريد، يلاحظ أنّـه يهدّد مجموعة بمجموعة أخرى، علـى الرغم أنّ القاتل فرد، والمقتـول فرد، ولكن الفرد ليس إلّا جـزءًا من قبيلته، فبالتّالى فإنّ المألوف أن تهاجِـم قبيلة دريد كلّها بنى الحارث كلّهم، قال دريد (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

يـا بنى الحارثِ أنتم معشـرٌ
زَنْدكـم وارٍ فـى الحـرب بُهَـمْ
ولكـم خيـلٌ عليهـا فتيـةٌ
كأسـودِ الغـابِ يحمـين الأجَمْ

ليس فــى الأرضِ قبيلٌ مثلُكم

حــينَ يَرْفُــضُ العَدا غيرَ جُشَــمْ

لَســتُ لِلصُمَّــةِ إن لَم آتِكُــم

بالخَناذيــذِ تَبــارى فــى اللُجُمْ

فَتَقَــرَّ العَــينُ مِنكُــم مَــرَّةً

بِانبِعــاثِ الحُــرِّ نَوحًــا تَلتَــدِمْ

وَتَــرى نَجــرانُ مِنكُــم بَلقَعًا

غَــيرَ شَمطــاءَ وَطِفــلٍ قَــد يَتِــمْ

فَانظُروهــا كَالسَّــعالى شُــزَّبًا

قَبــلَ رَأسِ الحَــولِ إن لَم أُختَرَمْ

فــكان أن ردّ عبد الله بن عبد المــدان على دريد، وكان ردُّه بنفس اللّهجة الجماعيّة فى التّهديد، قال عبد الله (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

نُبِّئْتُ أنَّ دُرَيْــدا ظَلَّ معترضًا

يُهدى الوعيدَ إلى نجرانَ من حضنِ

كالكلبِ يعوى إلى بيداءَ مقفرةٍ

من ذا يواعدنــا بالحربِ لمْ يحنِ

إن تلقَ حيَّ بنى الديّانَ تلقهمُ

شُـمُّ الأنـوفِ إليهم عـزّةُ اليمنِ

ما كانَ فى النّاسِ للديّانِ من شبهٍ

إلّا رعـيْن وإلّا آلُ ذى يـزنِ

أغمض جفونَك عمّا لستَ نائلَه

نحنُ الّذينَ سـبقنا النّاسَ بالدّمنِ

نحنُ الذينَ تركنا خالدًا عطبًا

وسـطَ العجاجِ كأنَّ المـرءَ لمْ يكنِ

إنْ تَهْجُنَا تهجُ أنجادًا شرامحةً

بيضَ الوجوهِ مرافيدًا على الزّمنِ

أوْرَى زِيـادُ لنا زَنْـدًا ووالدُنا

عبـدُ المَـدَان وأَوْرَى زنـدَه قَطَنِ

وقال الأعشـى ميمون القيسـىّ يهدّد يزيد بنى شيبان، ويذّكره بأفعال قومه القيسيّين (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

لا أعرفنّكَ إنْ جـدّتْ عداوتُنا

والتمسَ النّصر منكم عوضُ تحتملُ

تلزمُ أرماحَ ذى الجدّينِ سورتنا

عنْدَ اللّقاءِ فتُرْدِيهِمْ وَتَعْتَزِلُ

لا تقعدنَ وقدْ أكّلتها حطبًا

تعوذُ منْ شرّها يومًا وتبتهلُ

سائلْ بنى أسدٍ عنّا فقد علموا

أنْ سَوْفَ يأتيكَ من أنبائِنا شَكَلُ

وَاسْألْ قُشَيرًا وَعَبْدَ الله كُلّهُمُ

وَاسْألْ رَبيعَةَ عَنّا كَيْفَ نَفْتَعِلُ

إنّا نُقَاتِلُهُمْ حتّى نُقَتِّلَهمْ

عِندَ اللّقاءِ وَإنْ جارُوا وَإنْ جهلوا

وقال عبيد بن الأبرص الأسدىّ يردّ على امرئ القيس الكندىّ تهديده بنى أسد بأخذ الثّأر لأبيه منهم (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

نحنُ الأُلى فاجمعْ جمو

عَكَ ثمّ وجّههم إلينا

واعلمْ بأنّ جِيادَنا

آلَيْنَ لا يقضين دَيْنَا

ولقـدْ أبَحنا مـا حَمَيـ

تَ ولا مبيـح لـما حميْنـا

هذا ولـو قـدرت عَلَيْـ

كَ رماحُ قومـي ما انتهينا

حتّـى تنوشـكَ نَوْشَـةً

عاداتهـنَّ إذا انتوينـا

نغلي السِّـباء بـكلِّ عا

تقـةٍ شمـولٍ مـا صحونا

وقـال خِداش بن زهـير العامرىّ يتوعّد قريـش فى يوم الفجار الثّانى (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

يا شَدَّةً ما شـددْنا غيرَ كاذبةٍ

على سَـخِينَةَ لولا الليلُ والحَرَمُ

إذ يَتَّقِينَـا هشـامٌ بالوليدِ ولو

أنَّـا ثَقِفنا هشـامًا شـالت الخَدَمُ

بين الأراكِ وبين المرج تبطحُهم

زُرقَ الأسِـنَّةِ فى أطرافِها السُهُمُ

فإن سمعتم بجيشٍ سالكٍ سَرِفًا

وبطنَ مُرّ فأخفوا الجرسَ واكْتَتِمُوا

وقال حسّان بن تُبَّع ملك اليمن يتوعّد الرّوم (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

أيّها النّاسُ إنّ رأيي يُريني

وهو الرأيُ طوفَةً في البلادِ

بالعوالي وبالقنابلِ تَرْدى

بالبطاريقِ مِشيةَ العُوَّادِ

وبجيشٍ عرمرَم عربيٍّ

جَحْفلٍ يستجيبُ صوتَ المنادي

من تميمٍ وخندِفٍ وإيادٍ

والبهالِيلِ حِمْيرٍ ومرادِ

فإذا سرتُ سارتْ النّاسُ خَلفي

ومَعي كالجبالِ في كلِّ وادِ

سَقّني ثم سقّ حميرَ قومي

كأسَ خمرٍ أولي النّهى والعِمادِ

وقال حسّان بن ثابت يفتخر بنصر الخزرج على الأوس في يوم

السَّارة، ويتوعَّد قيس بن الخُطَيم (الجزرىَ، ٢٠١٠):

وإنَّـــى لَمِنْجاءُ المطىّ علــى الوَجَى
وإنَّـــــى لَنــزَّالٌ لمـــــا لم أُعَــوَّدِ

وإنّى لَقــوَّالٌ لذى اللّــوْثِ مَرحبًا
وأهــلاً إذا مــا ريــع مِــن كلّ مرصدِ

وإنَّـــى لَيدعونى النَّــدى فأجيبُه
وأضــربُ بيــضَ العــارضِ المتوقَّــدِ

فلا تَعْجَلنْ يا قيــسُ واربعْ فإنّما
قُصــاراك أن تُلقــى بــكلّ مهنَّــدِ

حســامٍ وأرمــاحٍ بأيــدى أعــزّةٍ
متــى تَرَهم يــا بــنَ الخَطِيــم تَلبَّدِ

أسودٍ لَدَى الأشبالِ يَحْمى عرينَها
مداعيــسُ بالخطّــىِّ فى كلّ مشــهدِ

التّنافس والغيرة بصيغة الجماعة

وكذلــك فقــد كان التّنافس بــين القبائل حاضــرًا، كما كان بين الأفراد، فيُلاحظ ادّعاء فــرد ما تفوّقَ قبيلته على القبائل الأخرى، على اعتبار أنّه جزء من هذه القبيلة. وجّه حاجب بن زُرارة التميمىّ

الحديث للحارث بن ظالم المرىّ عندما تخلى حاجب عن حمايته له مـن بنى عامر بلهجة لا تخلو من التّنافـس القبلىّ، والفخر، على طريقة الفرسان، ولكن بصيغة الجماعة، قال حاجب (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

لَعَمْرُ أبيك الخَيْرَ يا حارِ إنّنى
لأمنـعُ جارًا من كُليْـبِ بن وائلِ
وقـد علمَ الحـىُّ المعـدّىُّ أنّنا
على ذاك كنّا فى الخطوبِ الأوائلِ
وأنّا إذا ما خـافَ جارٌ ظُلامةً
لبِسْـنا لـهُ ثوبـىْ وفـاءٍ ونائلِ
وأنَّ تميمًـا لم تحـارب قبيلةً
مـن النّاسِ إلّا أولَعـتْ بالكواهلِ
ولـو حاربتْنا عامرٌ يا بنَ ظالم
لعضّـت علينًـا عامـرٌ بالأناملِ
ولاسـتيقنتْ عُلْيَا هَوازنَ أنّنا
سـنُوطئها فـى دارِها بالقنابلِ

وقـال عمرو ين كلثوم مفتخـرًا بقبيلته تغلب بنبرة لا تخلو من

المنافسة مع القبائل الأخرى (التّبريزىَ، ١٩٨٠):

مَتَـى نَعْقِـد قَرِيْنَتَنَـا بِحَبْلٍ
تَجُـذَّ الحَبْـلَ أَوْ تَقْـصِ القَرِيْنَا
وَنُوْجَـدُ نَحْنُ أَمْنَعَهُـمْ ذِمَارًا
وَأَوْفَاهُـمْ إِذَا عَقَـدُوا يَمِيْنَـا

وذكر الحارث بن حلّزة اليشكرىّ البكرىّ نظرة القبائل الأخرى لقبيلـة بكر، وما فى هذه النّظرة من حسـد وكره لإنجازاتهم، قال الحارث (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

فبقينـا علـى الشّـناءةِ تَنميـ
ـنـا حصـونٌ وعـزّةٌ قعسـاءُ
قبلَ ما اليومِ بيَّضتْ بعيونِ النّـ
ـاسِ فيهـا تغيُّظٌ وإبـاءُ

دراسات سابقة عن التّنافس والغيرة بصيغة الجماعة

ذكـر ضيف (٢٠٠٨) تضمُّن الحماسـة الشّـديدة بـين القبائل العربيّة الجاهليّة حقدًا على القبائل الأخرى، وهذا الحقد مصدره الخصومة والمنازعة بين هذه القبائل.

ذكر إنجازات القبيلة والفخر بها

والفخـــر أيضًــا كان جماعيًّا يشــمل مآثر القبيلـــة وانجازاتها، فكثر الفخر بالقبيلة، قال الأعشـى ميمون يفتخر بقومه القيسيِّين (التَّبريزىَ، ١٩٨٠):

نحنُ الفوارسُ يومَ الحنو ضاحيةً
جنبــيْ فطيمـــةَ لا ميــلٌ ولا عزلُ
قالوا الطِّرادُ فَقُلنــا تلْكَ عادَتُنا
أوْ تنزلــونَ فإنّــا معشــرٌ نُــزُلُ
قَدْ نَخضِبُ العَيرَ في مَكنونِ فائِلِهِ
وقدْ يشــيطُ علــى أرماحِنــا البطلُ

وقال زهير بن جناب الكلبيّ يفتخر بقومه (الجزرىّ، ٢٠١٠):

فإنّــا حيثُ لا يخفــى عليكم
ليــوثٌ حــينَ يحتضــرُ اللــواءُ

قال الحــادرة الذّبيانىّ يفتخر بيوم كفافـــة، ونصر فزارة وبنى ثعلبة على تميم (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

وَنحنُ منعنا منْ تميمٍ وَقدْ طغت

مَرَاعى المَلا حتّـى تضَمَّنَها نَجْدُ

وقال مَعْقِل بن عامر العامريّ فى يوم شعب جبلة، وهو يوم بين تميم وغطفان وبين بنى عامر (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

نحن حُمَاةُ الشِّـعبِ يومَ جبلةْ

بـكلِّ عَضْـبٍ صـارم ومِعْبَلَـهْ

وهَيْكَلٍ نَهْدٍ معًا وهَيْكَلَهْ

وقال لبيد بن ربيعة العامريّ يوم شـعب جبلـة (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

وهُمُ حُمَاةُ الشِّـعب يومَ تواكلتْ

أسَـدٌ وذُبْيَـانُ الصَّفَـا وتميـمُ

فارتَـثَّ كَلْماهم عَشِـيَّةَ هَزْمِهم

حَـيٌّ بمُنْعَـرَجِ المَسِـيلِ مُقِيـمُ

وقـال الأفْـوَه الأوديّ فـى قتـال حدث بـين أوْد وبنــى عامر (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

ألا يا لهف لو شـهدتْ قناتى

قبائـلَ عامـرٍ يـوم الصبيـبِ

غـداةَ تجمَعـت كعـبٌ إلينا

حلائـبَ بـين أفنـاءِ الحـروبِ

فلمّـا أن رأوْنـا فـى وَغَاهـا

كآسـادِ الغَريفـةِ والحجيـبِ

تداعـوْا ثـم مالُوا عـن ذراها

كفعـلِ الخامعاتِ مـن الوجيبِ

وطـاروا كالنَّعـام ببطـن قَوٍّ

مُواءلَـة علـى حـذرِ الرقيـبِ

وقال خِداش بن زهير العامـرىّ يفتخر بفعل هوازن فى قريش فى الفجار الثّانى (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فَعاركْنـا الكُمـاةَ وعاركونـا

عِـراكَ النُّمْـر عاركتِ الأسـودا

فولَّوْا نضْـربُ الهاماتِ منهم

بما انتهكوا المحـارِمَ والحُدودا

تركنا بطـن شَمْطَـةَ من علاءٍ

كأنَّ خلالهـا معَـزًا شـريدا

ولم أرَ مثلَهم هُزِموا وفُلُّوا

ولا كذِيادِنَا عَنَقًا مذودا

وقال الفِند الزِّمَّاني يفتخر بموقعة لبكر على تغلب (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

فلمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ

وأمسَى وهْو عُرْيانُ

ولم يبقَ سِوَى العُدْوا

نِ دِنَّاهُمْ كما دانُوا

شَدَدنا شَدَّةَ اللَّيثِ

غَدا واللَّيثُ غضْبانُ

بضَرْبٍ فيه تَفْجيعٌ

وتأييمٌ وإرْنانُ

وطَعْنٍ كفَمِ الزِّقِّ

غَذَا والزِّقُّ ملآنُ

وقال طرفة بن العبد يذكر انتصار قومه بكر على تغلب يوم تحلاق اللمم (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

سـائلوا عنّـا الـذى يَعرِفنـا

بقُوَانـا يـومَ تَحْـلاَق اللِمَـمْ

يومَ تُبدِى البِيضُ عن أَسُـؤقها

وتَلُـفُّ الخيـلُ أَعْـراجَ النَّعَـمْ

وقال الأعشـى ميمون يذكر انتصار بكر على تميم يوم الزُّوَيْرَيْن (الجزرىَ، ٢٠١٠):

يا سـلمَ لا تسـألى عنّا فلَا كُشِـفَتْ

عنـدَ اللقـاءِ ولا سـودٌ مقَاريـفِ

نحـنُ الذينَ هزمنـا يـومَ صبّحنا

يـومَ الزَويرَيْـن فى جمـعِ الأحاليفِ

ظلّـوا وظلّـت تكرّ الخيلُ وسـطهُمُ

بالشـيِّب منّـا وبالمُـرْدِ الغطاريـفِ

تستأنس الشَـرف الأعلى بأعينها

لَمْـح الصقـور علـتْ فـوق الأظاليـفِ

انسلّ عنها بسَيل الصّيف فانجردت

تحـت اللّبُـود متـونٌ كالزحاليـفِ

وقال عُروة بن الورد العبسـىَ يفتخر بفعال ذُبيان فى بنى عامر

يوم ساحوق (الجزرى، ٢٠١٠):

ونحن صبَحنا عامرًا فى ديارها

غُلالــةَ أرمــاحٍ وضربًــا مذكَــرا

بكلِّ رُقــاق الشــفرتينِ مهنّدِ

ولــدْنٍ من الخطىِّ قــد طُرَّ أسمرا

عجبتُ لهم إذْ يخنقون نفوسهم

ومقتلُهم تحت الوغى كان أجْدرا

وقــال عنترة بن شــدّاد فى غارات قومه عبس علــى قبائل ضبّة وتميم (العبسىّ، ٢٠٠٤):

نُزاحِــفُ زَحفًــا أو نُلاقــى كتيبَةً

تُطاعِنُنــا أو يَذعَــرُ السَّــرحَ صائِــحُ

فَلَمّــا اِلتَقَينــا بِالجِفــارِ تَضَعضَعــو

وَرُدَّت عَلــى أَعقابِهِـــــنَّ المَسالِحُ

وَسارَت رِجالٌ نَحوَ أُخرَى عَليهُمُ الـ

حَديــدُ كَمــا تَمشــى الجِمالُ الــدَوالِحُ

إِذا ما مَشَوا فى السّابِغاتِ حَسِبتَهُم

سُــيولًا وَقَــد جاشَــت بِهِــنَّ الأَباطِــحُ

فَأَشـرَعتُ رايـاتٍ وَتَحـتَ ظِلالِها
مِـنَ القَـومِ أَبنـاءُ الحُـروبِ المَراجِحُ
وَدُرنا كَما دارَت عَلى قُطبِها الرُّحى
وَدارَت عَلـى هـامِ الرِجـالِ الصَّفائِحُ
بِهاجِـرَةٍ حَتّـى تَغَيَّـبَ نورُهـا
وَأَقبَـلَ لَيـلٌ يَقبِـضُ الطَّـرفَ سـائِحُ
تَداعـى بَنـو عَبـسٍ بِـكُلِّ مُهَنَّـدٍ
حُسـامٍ يُزيـلُ الهـامَ وَالصَّـفُّ جانِحُ
وَكُـــلَّ رُدَينِـــيٍّ كَأَنَّ سِـنانَهُ
شِـهابٌ بَدا فـي ظُلمَـةِ اللَيـلِ واضِحُ
فَخَلَّـوا لَنـا عـوذَ النِّسـاءِ وَجَبَّبوا
عَبابيـدَ مِنهُـم مُسـتَقيمٌ وَجامِـحُ
وَكُلَّ كَعـابٍ خَذلَـةِ السـاقِ فَخمَةٍ
لَهـا مَنصِـبٌ فـي آلِ ضَبَّـةَ طامِـحُ
تَرَكنـا ضِـرارًا بَـينَ عـانٍ مُكَبَّـلٍ
وَبَـينَ قَتيـلٍ غـابَ عَنـهُ النَّوائِـحُ

وَعَمـرًو وَحَبَّانًـا تَرَكنـا بِقَفـرَةٍ

تَعودُهُمـا فيهـا الضِّبـاعُ الكَـوالِحُ

يُجَـرِّرنَ هامًـا فَلَّقَتهـا رِماحُنـا

تَزَيَّـلُ مِنهُـنَّ اللِحـى وَالمَسـائِحُ

وقال يذكر أفعـال عبس بقبيلة كلب عند مـاء عُراعِر، وقتلهم لسيِّدهم مسعود بن مصاد (العبسيّ، ٢٠٠٤):

أَلا هَـل أَتاها أَنَّ يَـومَ عُراعِرٍ

شَفى سَقَمًا لَو كانَتِ النَفسُ تَشتَفي

فَجِئنا عَلى عَمياءَ ما جَمَعوا لَنا

بِأَرعَـنَ لا خَـلٍّ وَلا مُتَكَشِّـفِ

تَمارَوا بِنا إِذ يَمدُرونَ حِياضَهُم

عَلى ظَهرِ مَقصِيٍّ مِنَ الأَمرِ مُحصَفُ

وَما نَذِروا حَتّى غَشَينا بُيوتَهُم

بِغَبيَةِ مَوتٍ مُسبَلِ الوَدقِ مُزعِفِ

فَظَلنـا نَكُـرُّ المَشـرَفِيَّةَ فيهِمُ

وَخُرصانَ لَدنِ السَـمهَرِيِّ المُثَقَّفِ

عُلالَتُنا في كُلِّ يَومٍ كَريهَةٍ

بِأَسيافِنا وَالقَرحُ لَم يَتَقَرَّفِ

أَبَينا فَلا نُعطي السَّواءَ عَدُوَّنا

قِيامًا بِأَعضادِ السَّراءِ المُعَطَّفِ

بِكُلِّ هَتوفٍ عُجسُها رَضَوِيَّةٍ

وَسَهمٍ كَسَيرِ الحِميَرِيِّ المُؤَنَّفِ

وقال مُضاض بن عمرو الجرهميّ مفتخرًا بنصر جرهم على قطوراء (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

ونحنُ قتلنا سيِّدَ الحيِّ عَنْوةً

فأصبحَ منها وهو حَيْرانُ مُوجَعُ

وما كان يبغي أنْ يكونَ سواؤُنا

بها ملكًا حتّى أتانا السميدعُ

فذاقَ وَبالًا حينَ حاولَ مُلكنا

وحاولَ منّا غصّةً تَتَجَرَّعُ

ونحنُ عَمَّرْنا البيتَ كنّا ولاتَه

نضاربُ عَنْهُ مَنْ أتانا وندفعُ

وما كانَ يبغي ذاكَ في النّاسِ غيرَنا

ولمْ يكُ حيٌّ قبْلَنا ثمَّ يَمنعُ

وكنّا مُلوكًا في الدُّهورُ التي مَضَتْ

وَرِثْنا مُلوكًا لاتُرامُ فَتوضَعُ

وقال حاجز بن عوف الأزدىّ يفتخر بأيّام قومه (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

إنْ تذكروا يومَ القَرِىّ فإنَّهُ

بَواءٌ بأيامٍ كثيرٍ عديدُها

فنحن أبحنا بالشّخيصةِ واهِنًا

جهارًا فجئنا بالنّساءِ نَقُودُها

ويوم كِرَاء قد تداركَ ركضُنا

بنى مالكٍ والخيلُ صُعْرٌ خدودُها

ويوم الأراكاتِ اللّواتِى تأخّرتْ

سراةُ بني لهبانَ يدعو شريدُها

ونحن صبَحْنا الحيَّ يَوْمَ تَنومةٍ

بملمُوْمَةٍ يُهوى الشّجاعَ وئيدُها

ويوم شَـرُوم قد تركنا عِصابةً

لدى جانب الطَّرْفاء حُمرًا جلودُها

فما رغمت حلفًا لأمرٍ يصيبها

مـنَ الذلّ إلا نحـنُ رغمًا نزيدُها

وقـال زهـير بن جَنـاب الكلبـىّ يذكـر إحدى وقعـات قومه (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

سُـيوفٌ وأرمـاحٌ بأيـدى أعزَّةٍ

ومَوْضُونـةٌ مِمَّـا أفـاد مُحَـرِّقُ

فما بَرحُوا حتى تَرَكْنا رئيسَهم

وقـد مـار فيـه المَضْرَحِـىُّ المُذَلَّقُ

وكائِنْ تَرَى من ماجدٍ وابْنِ مَاجدٍ

لهُ طَعْنـةٌ نجـلاءُ للوَجْه يشْـهَقُ

المبالغة فى وصف القبيلة

كذلـك فإنّ الوصف المبالغ فيه يكون أيضًا على مسـتوى القبيلة، فيصف الشّعراء قبائلهم باعتبارهم جزءًا منها. أكثر عمرو بن كلثوم فى وصف قومه تغلب، وكان ممّا قاله فيهم (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

وَقَـدْ عَلِـمَ القَبَائِـلُ مِـنْ مَعَدٍّ

إذَا قُبَـبٌ بِأَبْطَحِهَـــا بُنِينَــا

بِأَنَّــا العَاصِمُــونَ بِــكُلِّ كَحْــلٍ

وَأَنَّــا البَاذِلُـــــونَ لِمُجْتَدِينَــا

وَأَنَّــا المَانِعُــونَ لِمَــا يَلِينَــا

إذَا مَــا البِيــضُ زَايَلَــتِ الجُفُونَا

وَأَنَّــا المُنْعِمُــونَ إذَا قَدَرْنَــا

وَأَنَّــا المُهْلِكُـــــونَ إذَا أُتِينَــا

وَأَنَّــا الشَّــارِبُونَ المَــاءَ صَفْــوًا

وَيَشْــرَبُ غَيْرُنَــا كَــدْرًا وَطِينَــا

وقال فيهم أيضًا (الزّوزنىّ، ١٩٩٣):

مَتَــى نَنْقُــلْ إلَى قَــوْمٍ رَحَانَا

يَكُوْنُــوا فِــى اللِّقَاءِ لَهَــا طَحِيْنًا

يَكُــوْنُ ثِقَالُهَــا شَــرْقِيَّ نَجْدٍ

وَلُهْوَتُهَــا قُضَاعَــةَ أَجْمَعِيْنَــا

وقال أيضًا (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

وَنَحْنُ غَـدَاةَ أَوْقِدَ فِـى خَزَازٍ

رَفَدْنَـا فَـوْقَ رِفْـدِ الرَّافِدِيْنَـا

وَنَحْنُ الحَابِسُـوْنَ بِذِى أَرَاطَى

تَسَـفُّ الجِلَّـةُ الخُـوْرُ الدَّرِيْنَا

وَنَحْـنُ الحَاكِمُـوْنَ إِذَا أُطِعْنَا

وَنَحْـنُ العَازِمُـوْنَ إِذَا عُصِيْنَـا

وَنَحْـنُ التَّارِكُوْنَ لِمَا سَخِطْنَا

وَنَحْـنُ الآخِـذُوْنَ لِمَـا رَضِيْنَـا

وقال أيضًا (الزّوزنىّ، ١٩٩٣):

إِذَا بَلَـغَ الفِطَـامَ لَنَـا صَبِـىٌّ

تَخِـرُّ لَـهُ الجَبَابِـرُ سَـاجِدِيْنَا

وقـال السّـموأل بن عادياء يصـف قومه بنى الدّيّـان (الطّائىّ، ١٩٩٨):

تُعَيِّرُنَـا أَنَّـا قَليـلٌ عَديدُنَـا

فَقُلْـتُ لَهَـا إِنَّ الكِـرامَ قَليـلُ

وَما قَلَّ مَن كانَت بَقاياهُ مِثلَنا

شَبابٌ تَسامى لِلعُلى وَكُهولُ

وَما ضَرَّنا أَنّا قَليلٌ وَجارُنا

عَزيزٌ وَجارُ الأَكثَرينَ ذَليلُ

لَنا جَبَلٌ يَحتَلُّهُ مَن نُجيرُهُ

مَنيعٌ يَرُدُّ الطَرفَ وَهُوَ كَليلُ

رَسا أَصلُهُ تَحتَ الثَرى وَسَما بِهِ

إِلى النَجمِ فَرعٌ لا يُرامُ طَويلُ

هُوَ الأَبلَقُ الفَردُ الَّذى سارَ ذِكرُهُ

يَعِزُّ عَلى مَن كادَهُ وَيَطولُ

وَإِنّا لَقَومٌ ما نَرى القَتلَ سُبَّةً

إِذا ما رَأَتهُ عامِرٌ وَسَلولُ

يُقَرِّبُ حُبُّ المَوتِ آجالَنا لَنا

وَتَكرَهُهُ آجالُهُم فَتَطولُ

وَما ماتَ مِنّا سَيِّدٌ فى فِراشِهِ

وَلا طُلَّ مِنّا حَيثُ كانَ قَتيلُ

تَسيلُ عَلى حَدِّ الظُباتِ نُفوسُنا

وَلَيسَت عَلى غَيرِ الظُباتِ تَسيلُ

صَفَوْنا فَلَم نَكدُر وَأَخلَصَ سِرَّنا

إِناثٌ أَطابَت حَملَنا وَفُحولُ

عَلَونا إِلى خَيرِ الظُهورِ وَحَطَّنا

لِوَقتٍ إِلى خَيرِ البُطونِ نُزولُ

فَنَحنُ كَماءِ المُزنِ ما في نِصابِنا

كَهامٌ وَلا فينا يُعَدُّ بَخيلُ

وَنُنكِرُ إِن شِئنا عَلى النّاسِ قَولَهُم

وَلا يُنكِرونَ القَولَ حينَ نَقولُ

إِذا سَيِّدٌ مِنّا خَلا قامَ سَيِّدٌ

قَؤُولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعُولُ

وَما أُخمِدَت نارٌ لَنا دونَ طارِقٍ

وَلا ذَمَّنا فى النازِلينَ نَزيلُ

وَأَيّامُنا مَشهورَةٌ فى عَدُوِّنا

لَها غُرَرٌ مَعلومَةٌ وَحُجولُ

وَأَسيافُنا فى كُلِّ شَرقٍ وَمَغرِبٍ

بِها مِن قِراعِ الدارِعينَ فُلولُ

مُعـوَّدةً ألاّ تُسَـلَّ نِصالُهـا

فَتُغمَـدَ حَتّـى يُسـتَباحَ قَبيـلُ

سلي إن جَهِلتِ النّاسَ عنّا وعنهمُ

وَلَيـسَ سَـواءً عـالِمٌ وَجَهـولُ

فَإنَّ بنـي الدَّيّانِ قُطبٌ لِقومِهِم

تَـدورُ رَحاهُـم حَولَهُـم وَتَجولُ

وقال الأعشى ميمون القيسيّ في قومه (القيسيّ، ١٩٥٠):

مَتى تَلقَنا وَالخَيلُ تَحمِلُ بَزَّنا

خَنانيـذَ مِنها جِلَّـةٌ وَصَـلادِمُ

فَتَلقَ أُناسًـا لا يَخيمُ سِلاحُهُم

إِذا كانَ حَمًّـا لِلصَّفيـحِ الجَماجِمُ

وَإِنّا أُناسٌ يَعتَدي اليَأسَ خَلفُنا

كَما يَعتَدي المـاءَ الظِماءُ الحَوائِمُ

وقـال الحارث بن حلّـزة يذكر قومـه البكريّـين (التبريزيّ، ١٩٨٠):

فبقينا على الشناءة تنمى

نا حصونٌ وعزّة قعساء

قبلَ ما اليوم بيّضتْ بعيون ال

ناس فيها تغيُّظ وإباء

وكأنَّ المَنُونَ تَرْدى بنا أرْ

عنَ جَوْنًا ينجابُ عنهُ العماءُ

مكفهرًا على الحوادثِ ما ترْ

تُوهُ للدَّهْرِ مُؤيدٌ صمّاءُ

وصف الأدوات الحربية الخاصة بالقبيلة

قال زهير بن مسعود الضبي يصف قطعان الإبل، والخيول، والسيوف لدى قومه (البغدادي، ١٩٩٩):

وَقد أرى الحَيَّ بها فيهمُ

كهمَكَ الشُّبانُ والشيبُ

وَالجامِلُ الحومُ لَهُ رَجّةٌ

كأنّهُ للناظِرِ اللوبُ

وَالصَّافِناتُ الجُردُ كُلٌّ إلى

صـالحِ عِرقِ الخَيلِ مَنسـوبُ

وَقُضُبُ الهنـديِّ مجلوزةً

قَـد قوِّمَـت منهـا الأَنابيبُ

وقـال معقر بن حمار يصـف خيول قومه بنى بـارق -وهم من الأزد - فى يوم جبلة (البغدادىّ، ١٩٩٩):

يُفَـرِّجُ عَنّـا كُلَّ ثَغـرٍ مَخافَةً

جَـوادٌ كسِـرحانِ الأَبـاءَةِ ضامِرُ

وَكُلُّ طَموحٍ فـى الجِراءِ كَأَنَّها

إذا أغتمسَت فى الماءِ فتخاءُ كاسِرُ

لَها ناهِضٌ فى المَهدِ قَد مَهدَت لَهُ

كَمـا مَهَّدَت للبَعلِ حَسـناءُ عاقِرُ

قال الأعشى ميمون يصف الرّماح والسّيوف لدى قومه القيسيّين، ويهدّد بها الحارث بن وَعْلَة (القيسىّ، ١٩٥٠):

فلا وأبيـكَ لا نعطيكَ منها

طِـوَالَ حَيَاتِنَـــا إلاّ سِـنَانَا

وَإلاَّ كُلَّ أسْمَـر وَهْـوَ صَدْقٌ

كأنَّ اللّيـطَ أنبـتَ خيزرانـا

وَإلاَّ كُلَّ ذِى شُـطب صَقِيـل

يَقُـدّ إذا عَـلا العُنُـقَ الجِرَانا

أكَـبَّ عَلَيْهِ مِصْقَلَتَيْـهِ يَوْمًا

أبـو عجـلانَ يَشْـحَذُهُ فَتَانـا

فَظَـلّ عَلَيْهِ يَرْشَـحُ عَارِضَاهُ

يَحُـدّ الشَّـفْرَتَينِ فَمَـا ألانـا

دراسات سابقة عن وصف الأدوات الحربيّة الخاصّة بالقبيلة

تطـرّق ضيـف (٢٠٠٨) لوَصْـف العـرب الجاهليّـين لأدوات الحرب الخاصّة بقبائلهم كثيرًا مثل السّـيوف، والقسيّ، والرّماح، والخيـول، وأكّد أنّ هذا الوصف جاء لترهيـب الأعداء من القبائل الأخرى، وللمفاخرة عليهم.

أهميّة النّسب ووراثة الأمجاد القبليّة

وللنظـرة إلى الفرد على أنّـه جزء من مجتمعه عـدّة مظاهر تمّ نقاشـها سـابقًا، منها أهميّة النّسـب، ولأنّ المجتمع العربى فى الجاهلية ذو درجـة عالية من الجماعيّة، فمـن المتوقّع ظهور هذا

المظهــر فيه. قال عمرو بن كلثــوم يذكر الأمجاد التى ورثتها قبيلة تغلب من أسلافه (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بِنْ سَـيْفٍ
أَبَـاحَ لَنَـا حُصُـوْنَ المَجْـدِ دِيْنَا
وَرِثْـتُ مُهَلْهِـلاً وَالخَيْرَ مِنْهُ
زُهَـيْرا نِعْـمَ ذُخْـرُ الذَّاخِرِيْنَـا
وَعَتَّابًـا وَكُلْثُوْمًـا جَمِيْعًـا
بِهِـمْ نِلْنَـا تُـرَاثَ الأَكْرَمِيْنَـا
وَذَا الـبُرَةِ الـذِى حُدِّثْتَ عَنْهُ
بِـهِ نُحْمَـى وَنَحْمِـى المُلْتَجِينَـا
وَمِنَّـا قَبْلَـهُ السَّـاعِى كُلَيْبُ
فَـأَىُّ المَجْـدِ إِلاَّ قَـدْ وَلِيْنَـا

وقال فى ذلك أيضًا (التبريزىّ، ١٩٨٠):

وَرِثْنَـا المَجْدَ قَـدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ
نُطَاعِـنُ دُوْنَـهُ حَتَّـى يَبِيْنَـا

وقال مُضاض بن عمرو الجرهمىّ (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

وكُنّا ملوكًا فى الدّهور التى مضَتْ
وِرثْنــا مُلــوكًا لا تُــرام فتُوضَـعُ

دراسات سابقة عن أهميّة النّسب ووراثة الأمجاد القبليّة

اعتنى العــرب كثيرًا بالأنســاب القبليّة، لدرجــة فصله كعلم منفصــل، وظهور من برعوا فيه، و لاحقــا أُلّفت عدّة مراجع مهمّة تحدّثت بهذا الشّــأن. منها مثلًا جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلســى، والّــذى أكّد فى مقدّمتــه على الضّــرورات الاجتماعيّة والدّينيّــة لمعرفة الأنســاب. كما شــرح ابن حزم بالتّفصيل نســب العرب كلّها، وبعض البربر، وتطرّق أيضًا لمفاخرات العدنانيّين مع القحطانيّــين على المُلك، والدّين، كما ذكر افتخار القبائل الجاهليّة على بعضها البعض بالشّــجاعة، والكرم، والحكمة، والرّئاســة، والشّــعر (الأندلســى، ١٩٦٢)، وقد أكّد علــى (١٩٩٣) هذا الرّأى أيضًا، وذكر حرص القبائل الجاهليّة على حفظ أنسابها، والتّعصّب لها.

انعدام الخصوصيّة فى القبيلة

وتمنح النّظرة إلى الفرد كجزء من مجموعته أيضًا الحقّ للمجموعة فى مناقشــة أموره، ممّا يؤدى إلى انعدام الخصوصيّة، ونظرة العار التى تلحق الأفراد ومجموعاتهم حال شــيوع فعلهم لشىء مخالف

للأعــراف، فكان مجرد الكلام له وقع كبير على القبائل -حتّى وإن لم يجئ بدليل عليه - وكان العرب فى الجاهليّة يســتخدمون هذا الأســلوب -محاولة إلحاق العار بالخصم - لمعرفتهم بأثره القوى.

قال الأعشــى ميمون يردّ مزاعمًا ليزيد الشّــيبانى على قبيلته قيس (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

أبْلغْ يَزِيدَ بَنى شَـيْبانَ مَألُكَةً
أبَـا ثُبَيْـتٍ أمَـا تنفَـكُ تأتَـكِلُ
ألَسْتَ مُنْتَهِيًا عَنْ نَحْتِ أثلَتِنَا
وَلَسْـتَ ضَائِرَهَـا مَا أطَـتِ الإبِلُ
كناطـحٍ صخرةً يومًـا ليفلقها
فلَـمْ يضرْها وأوهــى قرنهُ الوعلُ
تُغْرِى بِنَا رَهْطَ مَسعُودٍ وَإخْوَتِهِ
عِنـدَ اللقاءِ فـتُرْدى ثـمّ تَعتَزِلُ
لا أعرفنّكَ إنْ جـدّتْ عداوتُنا
والتمسَ النّصر منكم عوضُ تحتملُ

وقال الحارث بن حلّزة يشــكو كلام التغلبيّــين عن قبيلته بكر (الزّوزنىّ، ١٩٩٣):

وَأتانـا مِنَ الحَـوادِثِ والأَنبا

ءِ خَطـبٌ نُعنـى بِـهِ وَنُسـاءُ

إنَّ إخْوَانَنَـا الأرَاقِـمَ يَغلُـو

نَ علينـا فـى قيلهـــم إحفاءُ

وقال أيضًا فى نفس المناسبة (التَّبريزىّ، ١٩٨٠):

أيُهـا النَّاطـقُ المرقّـشُ عنّـا

عِنْـدَ عَمْـرٍو وَهَـلْ لِـذاكَ بَقـاءُ

لا تَخَلْنَـا عَلـى غَرَاتِـكَ إنَّـا

قبـلُ مـا قدْ وشـى بنـا الأعداءُ

وهذا عمرو بن كلثوم يفتخر بكرم تغلب قبيلته، وضيافتهم لبنى الطمّاح ودعمىّ، ولكنّ عمرو مهتمّ برأيهم فى منزلهم، ويخشى ذكر تغلب بسوء، وهذا أمر يشغله، قال عمرو (التَّبريزىّ، ١٩٨٠):

أَلا أَبْلِـغْ بَنِـى الطَّمَّـاحِ عَنَّـا

وَدُعْمِيًّـا فَكَيْـفَ وَجَدْتُمُونَـا

نَزَلْتُـمْ مَنْـزِلَ الأضْيَـافِ مِنَّا

فَعَجَّلْنَـا القِـرَى أَنْ تَشْـتُمُونَا

قَرَيْنَاكُـمْ فَعَجَّلْنَـا قِرَاكُـمْ
قُبَيْـلَ الصُّبْـحِ مِـرْدَاةً طَحُونَـا

أثر الشَّائعة فى القبيلة والتَّعامل معها

وأثر الشـائعة قوىّ جدًا فـى هذه المجتمعات، فهـذا النَّابغة الذّبيانـىّ قـد فرّ من الملـك النّعمان بن المنذر لشـائعة أطلقها عليه كلّ من المنخّل اليشـكرى ومرّة بن ربيع بن قريع، وأرسـل النَّابغة الاعتـذرارات تلو الأخرى للملك، وهذا لمجردّ شـائعة، وكان ممّا قال (الذّبيانىّ، ١٩٩٦):

فـلا لعمرُ الذى مسـحتُ كعبَتَهُ
وما هريقَ على الأقصابِ مِنْ جسـدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطّيرَ تمسَحُها
ركبـانُ مكةَ بـينَ الغيلِ والسّـعدِ
ما قلتُ من سـيئٍ مما أُتيتَ بِهِ
إذاً فـلا رفعـتْ سـوطى إلىَّ يَـدي
إلاّ مقالـةَ أقـوام شـقيتُ بهـا
كانَـتْ مقالَتُهُـمْ قَرْعاً علـى الكَبِدِ

إذنْ فعاقبنـــي ربَـــي معاقبـــةً

قــرَتْ بها عــينُ منْ يأتيــكَ بالفندِ

وقال أيضًا (الذَبيانىّ، ١٩٩٦):

أتاكَ امرُؤٌ مُسْــتَبْطِنٌ ليَ بِغْضَةً

له مــن عَــدُوٍّ مثــل ذلك شــافعُ

أتاكَ بقَوْلٍ هلهلِ النَّسج كاذب

ولم يأتِ بالحقِّ الــذى هوَ ناصعُ

أتــاكَ بقَــوْلٍ لم أكُــنْ لأقولَهُ

ولو كبّلتْ فى ســاعدىَّ الجوامعُ

وقال عامر بن جوين الطّائى يردّ مزاعم بنى جرم، وهم بطن من طئ، كانوا قد ادّعوا أنّ شعره ملتبس بغيره (البغدادىّ، ١٩٩٩):

وَبَنو جَــرمٍ وَإِن زَعَموا

أَنَّ شِــعرى كانَ مؤتَشِــبا

إِنَّنى غَــيرَ الّذى زَعَموا

واسِــطٌ فــى طَــئٍ نَسَــبا

إِنَّنى مِــن غَضبَةٍ فَرَعَت

ذِروةً لمــا تَكــن ذَنَابــا

الفكر الواحد والنّظرة إلى أصحاب الأفكار الجديدة

ونتيجـة لوحدة مصـير الأفراد مع قبائلهـم، وانصهار الهويّة الفرديّـة فيها، فقد فقدوا الحريّة المطلقـة للتفكير، ووجب عليهم التّفكير ضمن إطـار القبيلة الذى رسمته عاداتهـا وتقاليدها، وقد ساعد على هذا أيضًا انعدام الخصوصيّة، وتناول شؤون الأفراد على أنها شأن قبلى جماعى، فبالتّالى تعميم حقّ التحدّث فيها، والشّعور بالعار المرافق لأيّة شـائعة، والنّتيجة أنّه ليس لأحد من الأفراد أن يأتى بجديد، وإلّا سيقابَل باستهجان القبيلة، ورفضها، وكلامها. ظهـرت معاناة طرفة بن العبـد، الذى ذكر تجنّب قومه له، لكثرة شربه الخمور، وتبذيره فى الإنفاق، فقال (القيسىّ، ٢٠٠٢):

وَمَا زَالَ تَشْرَابِى الخُمُورَ وَلَذَّتِى
وبَيْعِـى وإنْفَاقِى طَرِيْفِـى ومُتْلَدِى
إِلَى أنْ تَحَامَتْنِى العَشِـيرةُ كُلُّهَا
وأُفْـرِدْتُ إِفْـرَادَ البَعِـيْرِ المُعَبَّـدِ
رَأَيْتُ بَنِى غَبْرَاءَ لاَ يُنْكِرُونَنِى
وَلاَ أَهْـلُ هَـذَاكَ الطِّـرَافِ المُمَدَّدِ
أَلاَ أَيُّهذا اللّائمى أحضرَ الوَغَى
وَأَنْ أشْهَدِ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِى

فإنْ كُنْتَ لاَ تَسْطِيْعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي

فَدَعْنِـــي أُبَادِرُهَا بِمَـــا مَلَكَتْ يَدى

الصّعاليك

وقد تعــدّدت ردود أفعال الأفراد نتيجة لهــذا الضّغط الجماعي على فكرهم وســلوكهم، وما تركته الطبقيّة وأهميّة النّسب من ظلم اجتماعي وعدم إعطاء الفرصة لعيش حياة مختلفة، فمن الأفراد من اكتفى بلوم أقاربه وعشيرته وشكوى جفائهم، مثل ما فعل طرفة بن العبد البكريّ، الّذى عومل بجفاء من عشــيرته لكثرة شربه الخمر وانصرافه لِلَهوهِ وإنفاقه غير المحســوب، ومنهم من انتزع حقوقه وغيّر عادات قبيلته لحاجتها إليه، وهذا ما فعله عنترة بن شـدّاد العبسيّ، الّذى كان يُعامَل معاملة الفئات الأقلّ مكانة نتيجةِ لسواد لونه، ولكنّه فرض حقوقه بفروسـيّته، ومنهم من ثار على الوضع القائـم، وترك قبيلتــه، واتّجه إلى مجتمع جديــد، أو حاول صنع مجتمع عادل، وفردى، فكان مجتمع الصّعاليك؛ والصّعاليك هم من تحرّروا من تبعيّتهم القبليّة، وعاشوا بمعزل عن قبائلهم، وقد ورد ذكر لفظ الصّعاليك صراحة في شــعرهم، قال عمرو بن برّاق النهميّ (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

تقول سُـلَيمى لا تعرّضْ لتلفةٍ

وليلُك عـن ليلِ الصّعاليـك نائمُ

ذكر ضيف (٢٠٠٨) ثلاثة أسباب أدّت للتّصعلك في الجاهليّة، وهي خلع القبائل للأفراد بسبب كثرة جرائرهم، أو مجموعة أبناء السّود الذين نُبذوا لنسبهم، أو الّذين احترفوا الصّعلكة.

بعض هذه الأسباب يشير بوضوح إلى ارتفاع درجة الجماعيّة، حيـث رفضت القبائـل من يخرج عـن مألوفها في السّـبب الأول وطردتـه، ممّا يدلّ بوضوح على عدم تقبّل أيّـة فكرة غير مألوفة، وخلع صاحبها، ممّا يدفعه إلى اللجوء لمجتمع جديد، فمال الكثير مـن هذه الفئة للصّعاليك، ومن الأمثلة على ذلك خلع خزاعة لقيس بن الحداديّة، وتبرّؤها منه، وإعلانها أنّها لا تحمل جريرة له ولا تطالب بجريرة عليه، فالتجأ قيس إلى بني عديّ بن عمرو بن خالد، ثمّ إلى الصّعاليك، وقال قيس في التجائه إلى بني عديّ (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

جزى الله خيرًا عن خليعٍ مطرّدٍ

رجالًا حموْهُ آل عَمْـرو بنِ خالدِ

وأدّت الطبقيّة، وأهميّة النّسـب - وهي من مظاهر ارتفاع درجة الجماعيّة كما ذُكر سابقًا - إلى عدم تقبّل أبناء السّود، والتّعامل معهم على أنّهم أقلّ اجتماعيًّا، ممّا أدّى إلى شعورهم بالظّلم الاجتماعي،

وبحثهم عن مجتمع أكثر عدلًا، فشكّلوا عماد الفئة الثانية من فئات الصّعاليك، ومن هذه الفئة كان السّليك بن السّلكة.

أمّا الفئة الثالثة، وهي فئة محترفي الصعلكة، فإنّ دراستها أكثر غموضًا، وربّما كان التجاء أفرادها إلى الصّعلكة أيديولوجيًا، نابعًا من نظرة شاملة للمجتمع ومعطياته، وليس شأنًا شخصيًا، وأبرز الصّعاليك من هذه الفئة كان عروة بن الورد العبسيّ. ذكر عروة صراحةً انتماء أمّه لقبيلة نهد، وهي قبيلة ليست ذات شأن كبير، وهو العار الوحيد الذي يلازمه، فقال (العبسيّ، ١٩٩٨):

وما بِي من عارٍ إخالُ علمتَهُ
سِوَى أنّ أخوالي إذا نُسِبوا نَهْدُ

وعروة وإن ذكر هذا الأمر، فإنّه كان من أشراف قومه، ذكر الحُطيئة للخليفة عمر بن الخطّاب أنّ عبس في جاهليّتها كانت تأتمّ بشعر عروة (الأصفهانيّ، ٢٠١٠)، فلا يبدو أنّ عروة قد عانى الظّلم الاجتماعي بشكل شخصي، بل كانت نظرة عروة للمجتمع أكثر شموليّة، وأشارت عدّة مصادر (الأصفهانيّ، ٢٠١٠، العبسيّ، ١٩٩٨) إلى تزعّم عروة مجتمع الصّعاليك حتّى لقّب بعروة الصّعاليك، ويبدو أنّه حاول أن يؤسّس نظامًا اجتماعيا جديدا لا طبقيّة فيه، ويتساوى فيه الأفراد مع السّادة، فلم يكن مثلًا يؤثر جزءًا من غنائم الصّعاليك لنفسه – كما اعتاد سادة القبائل – بل

كان يأويهم ويطعمهم إذا فشلوا في غاراتهم، قال عروة لرجل عيّره بنحول جسمه (العبسيّ، ١٩٩٨):

إنّي امرؤٌ عافي إنائي شِرْكَةٌ
وأنتَ امرؤٌ عافي إنائِكَ واحدُ
أتهزأُ منّي أنْ سَمِنْتَ وأنْ ترى
بوجهي شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ
أقَسِّمُ جسمي في جُسُوم كثيرةٍ
وأحْسُو قِرَاحَ الماءِ والماءُ باردُ

ودعا عروة أيضًا في شعره إلى المثابرة ونَبْذِ الكسل، فهي صفات الصّعلوك النّاجح في رأيه -وهي مختلفة عن صفات الفرد النّاجح في المجتمعات التّقليديّة الّتي يلعب فيها النّسب دورًا مهمًّا في النّجاح - قال عروة (العبسيّ، ١٩٩٨):

لحى اللهُ صُعلوكًا إذا جَنّ ليلُهُ
مصافي المشاشِ آلفًا كلَّ مجزرِ
يَعُدّ الغِنى من نفسِهِ كلّ ليلةٍ
أصابَ قِراها من صَديقٍ ميسَّرِ

يَنامُ عِشاءً ثم يصبحُ ناعسًا

يَحُثُّ الحَصى عن جنبِهِ المتعفِّرِ

قليلُ التماسِ الزّادِ إلاّ لنفسِهِ

إذا هو أمسَى كالعريشِ المجوَّرِ

يُعينُ نِساءَ الحيِّ ما يَستعِنَّهُ

ويُمسي طليحًا كالبعيرِ المحسَّرِ

ولكنَّ صعلوكًا صفيحةُ وجهِهِ

كضَوءِ شِهابِ القابسِ المتنوِّرِ

مُطِلًّا على أعدائِهِ يَزجرونَه

بساحتِهم زَجرَ المَنيحِ المشهَّرِ

إذا بَعُدوا لا يأمنون اقترابَه

تشوُّفَ أهلِ الغائبِ المتنظَّرِ

فذلكَ إنْ يلقَ المنيّةَ يَلْقَها

حميدًا وإنْ يَستَغنِ يومًا فأجدِرِ

وكانت لاميّة الشّنفرى الأزديّ من أبرز ما قيل فى الانخلاع عن

القوم والتّصعلك، قال الشّنفرى (الهاشميّ، ١٩٦٩):

أقيموا بنـــي أمّي صــدورَ مَطِيَّكم
فإنّـــي إلى قـــوم سِـــواكم لأمْيَـــلُ
فقد حمّت الحاجاتُ واللّيلُ مقمرٌ
وشُـــدّت لِطيّـــاتٍ مطايـــا وأرحُـــلُ
وفي الأرضِ مَنْأًى للكريم عن الأذى
وفيهـــا لِمَـــنْ خـــافَ القِلـــى مُتعزَّلُ
لَعَمْرُكَ ما بالأرضِ ضيقٌ على أمرئٍ
سَـــرَى راغبًـــا أو راهبًا وهـــو يعقلُ
ولي دونَكُـــم أهلـــونَ سِـــيْدٌ عَمَلَّسٌ
وأرقـــطُ زُهلـــول وَعَرفـــاءُ جَيْـــأَلُ
هم الأهلُ لا مســـتودعُ السرِّ ذائعٌ
لديهـــم ولا الجاني بما جَـــرَّ يُخْذَلُ

فمن الواضح شـكوى الشّـنفرى من انعدام الخصوصيّة، وجعلها السّـبب الأول لاتخـاذه قرار التّصعلك، وعـدم الخصوصيّة من أهم سمات المجتمعات عالية الجماعيّة.

دراسات عن الفكر الواحد والنَظرة إلى أصحاب الأفكار الجديدة

قال طقّوش (٢٠٠٩) أنّ الفرد الّذى كان يخالف أعراف القبيلة فى الجاهليّة، أو يرتكب جريرة ترفضها، فإنّه يُطرد منها، ويُسمّى الطّريد، ويتمّ خلعه في المواسم والأسواق العامّة، وتطرّق على (١٩٩٣) إلى قضيّة خلع القبيلة لأحد أفرادها، وقال إنّ الفرد الّذى لا يقوم بواجباته ويشعر بتبعيّته لقبيلته، أو يجرم ويستمرّ فى غيّه، فإنّه يُخلع من قبيلته بإعلان فى موقف رسمى وعامّ مثل الحج والأسواق، ليعلم به الجميع، من قبيلته ومن القبائل الأخرى.

وأكّد برّونة (٢٠٠٩) أنّ ظهور فئة الصّعاليك فى الجاهليّة ما هو إلّا مشروع إنشاء مجتمع جديد يميل لدرجة أعلى من الفرديّة، ويسمح بدور أكبر للأفراد، بعيدًا عن مجتمع القبيلة التّقليدى الّذى كان يتمتّع بمجموعة من المحرّمات والمقدّسات الّتى يجب ألّا تُخرق، وينتج عنها ذوبان لشخصيّة الأفراد فى عادات القبيلة ورموزها، وذهب عبد الرحيم وأحمد (٢٠١٧) إلى أنّ أسباب الصّعلكة كانت سلوك المجتمع تجاه الفقراء، وتعامل المجتمع مع الصّعاليك على أنّهم أقلّ مكانة إمّا للونهم، أو لسلوكهم.

***

عدم التَيقّن

تعريف ببُعد عدم التَيقّن

كلّ النَّــاس معرّضة لمواجهة حقيقة أنّها لا تعلم الّذى سـيحدث مستقبلًا، فالمستقبل غير مؤكّد وغامض، والغموض يزيد من القلق، والقلــق مختلف عن الخوف مــن حيث ارتباط الخوف بمسبّب، فيخاف الشـخص لسـبب ما، أمّــا القلق فغير مرتبط بسـبب، بل مرتبط بعدم التَيقّن والغموض، ودرجة الشّـعور بالقلق من الأشياء الغامضة هى درجة مكتسـبة ثقافيًا مــن البيئة المحيطة بالأفراد، ويلعب بُعد عدم التَيقّن الدّور الرّئيســى فى تشكيلها، وعدم التَيقّن هــو البعد الرّابع فى الثّقافة المجتمعيّــة، ويمكن تعريفه على أنّه مدى القلق -وما يسـبّبه من تهديد - من الأشياء الغامضة والمواقف غير المألوفة، وتؤثّر درجة عدم التَيقّن على السّلوك الجمعى للأفراد فى مجموعة ما.

يحتــاج النّاس فــى المجموعات عاليــة عدم التيقّــن إلى تنظيم المواقف، وترتيبها، وتجنب الأشـياء المفاجئة، وغير المحسوبة، ويتمّ ذلك بكثرة القوانين، والتّشـريعات، التى تسـعى لتنظيم كل شئ، بغضّ النّظر عن اتّباعها من عدمه، ولكن مجرّد وجودها مريح ومخفّــف للقلق، والمجموعــات القلقة هى مجموعــات تعبيريّة، يظهر الأفراد فيها مشاعرهم سواءً الإيجابيّة أو السلبيّة، ويلجأون

إلى طـرق للهروب من القلـق، ومن هذه الطرق شـرب الخمر، أمّا المجموعـات منخفضة عـدم التيقّن، فلا يقلق النّـاس من الغموض وعـدم التّرتيب كثيرًا، فيقلّ القلق، والعصبيّة، والتّعبير الإيجابى والسّـلبى عن المشـاعر، ولا تسـتدعى الحاجة لكثير من القوانين، فليس بالضرورة أن يكون كلّ شئ منظّمًا تمامًا.

تأثير عدم التّيقّن فى الأسرة

وعـدم التّيقّن له تأثيراته الّتى تبدأ من الأسـرة، وينقلها الفرد معـه إلى المجتمع الأكبر، شـأنه فى ذلك شـأن الأبعـاد الثّقافيّة الأخـرى. يقوم الأهـل فى المجتمعات التى تتميّـز بارتفاع درجة عدم التيقّن بتربية أبنائهم على التّسمية الصّارمة للأشياء، والقيم، والسّلوكيّات، وأنّ أىّ شىء ليس له إلّا بعدين، أحدهما جيّد تمامًا، والآخر سـيئ تمامًا، فالتّصنيف ضيّق ومطلـق، ولا يعطى الفرصة لخيارات متعدّدة، كذلك طرق عمل الأشـياء -حتّى البسيطة منها- تصبـح متوارثة، ويصعـب تغييرها، والتّفريق بين الخير والشـرّ واضح وحادّ، ولا يحتمل النسـبيّة، وأى شـئ مختلف عن الحقيقة الواحدة خطير، وبالتّالى فإنّ الغريب مثير للرّيبة والقلق، ونتيجة لارتفـاع نسـبة القلق، ترتفع نسـبة التّفكير العاطفـى، ثمّ يصبح التّعبير عن المشـاعر مقبـول، والتّصرفات العصبيّـة أو الحميميّة مقبولـة أيضًا، ووجود القوانين مهمّ كمرجعيّة للأفراد، ولكن ليس

بالضّرورة الالتزام بها.

والأسـرة فى المجتمعـات ذات الدرجة المنخفضـة على مقياس عدم التيقّن لديها تصنيفات أيضًا ومسـميّات للأشـياء، ولكنّها أقلّ دقّة، وليسـت مطلقة، إذ تحتمل خيارات عديدة، فبالتّالى أىّ شىء مختلف عن الّذى تعوّده الفرد فيها مثير للفضول والاهتمام، فالقلق لغـير المألوف منخفض، والتّفكير العاطفـى قليل، فبالتّالى التعبير العاطفى قليل أيضًا.

الأسرة العربيّة الجاهليّة على مقياس عدم التّيقّن

وضوح وصرامة وصايا الآباء للأبناء

والتّأمّل فى واقع حال الأسرة العربيّة فى الجاهليّة يكشف أنّها تميل بشـكل واضح وكبير لدرجات عليا علـى مقياس عدم التّيقّن، فالقوانين فيها صارمة، وواضحة، ولها شكل واحد للتّطبيق، وعدم تطبيقها يسـتوجب الوصـف بالصفة المطلقة علـى الطرف النّقيض الآخـر، وينقل الآباء حكمتهم على شـكل وصايـا لأبنائهم، وهى وصايا مباشـرة، ومطلقة. أوصـى ذو الإصبع العدوانىّ ابنه أسـيد بمجموعة من الوصايا المحدّدة، لدرجة لا تعطى مساحة لأسيد لأن يتعامل بنفسه مع الأحداث، فالدّرجة العالية من عدم التّيقّن ليست بسـبب مجرّد الوصايا، أو الحكم، أو مكارم الأخلاق، بل بسـبب التّسـميات المطلقة للأشياء، والحكم عليها بمنظور الحقّ المطلق، أو

الباطل المطلق، قال ذو الإصبع (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

أَأُسَيْدُ إنْ مالًا مَلَكْـ

تَ فَسِرْ بِهِ سَيْرًا جَمِيْلا

آخِ الكرامَ إنْ استطعـ

تَ إلى إخائِهِمُ سبيلا

واشرب بكأسهمُ وإنْ

شَرِبُوا بِهِ السُّمَّ الثَّميلا

أهنِ اللِّئامَ ولا تَكُنْ

لإخائِهِمْ جَمَلًا ذَلولا

إنَّ الكرامَ إذا تُوا

خيهمْ وجدْتَ لَهُمْ فُضُولا

وَدَعِ الَّذِي يَعِدُ العَشِيْـ

رَةَ أنْ يَسِيْلَ ولن يَسِيْلا

أبُنيَّ إنَّ المالَ لا

يَبْكي إذا فَقَدَ البخيلا

أأُسيدُ إنْ أزْمَعْتَ مِنْ

بَلَدٍ إلى بَلَدٍ رَحيْلا

فاحْفَظْ وإنْ شَحَطَ المَزَا

رُ أخَا أخِيكَ أو النَّزِيلا

وَارْكَبْ بِنَفْسِكَ إن هَمَمْـ

تَ بها الحُزُونَةَ والسُهولا

وَصِلِ الكرامَ وكُنْ لِمَنْ

ترجو مَوَدّتَهُ وَصُولا

وَدَعِ التّوانيَ فى الأُمو

رِ وَكُنْ لها سَلِسًا ذَلُولا

وَابْسُط يَمِيْنَكَ بالنّدَى

وامْدُدْ لها باعًا طَويلا

وابسُط يَديكَ بِمَا مَلَكْـ

تَ وشَيِّدِ الحَسَبَ الأثيلا

واعْــزِمْ إذا حاولــتَ أَم

رًا يفْــرِجُ الهَــمّ الدّخِيْلا

وَابْذُلْ لِضَيْفِكَ ذاتَ رَحْـ

لِــكَ مُكْرِمًا حتّــى يَزُولا

واحلُلْ على الأَيْفَاعِ للـ

عافــينَ واجتنبِ المَســيلا

وإذا القــرومُ تخاطَرتْ

يومًــا وأرعَــدتِ الخَصِيلا

فاهصِرْ كهَصْــرِ اللّيثِ

خَضَّبْ مِن فريسَتِهِ التّلِيلا

وانــزِلْ إلى الهَيْجَا إذا

أبطالهــا كَرِهــوا النُّزُولا

وإذا دُعِيْــتَ إلى المُهِــ

مِّ فَكُــنْ لِفَادِحِــهِ حَمُــولا

وليــس الأمــر متعلّقًا بالوصايــا فقط، بل بطريقة عمل الأشــياء

البسـيطة، فهي طريقة واحدة متوارثة، وغيرها خاطئ، فقط لأنّه مختلـف. وصف الحارث بن حلّزة موقفًا حصل له مع عمرو، حيث اعترضـت الرّمال الإبل، فقام الحارث بإعطائه مجموعة من الأوامر الصريحة، والمباشـرة، والمطلقة، والمحدّدة، ومنهـا ألّا يضع الماء البارد على ضرعها، وأن يحلب الألبان للضيوف، استخدم الحارث وصف الشـرّ للّبن المكسوع، وهو الخيار المطلق على الطرف الآخر، فليس هناك حلول أخرى، إمّا أن يسقى اللّبن للضّيوف، أو أن يصبح اللّبن شرًّا، قال الحارث (الضّبّيّ، ١٩٢٠):

قُلْتُ لعَمْـرٍو حِينَ أبْصَرْتُه

وقد حَبـا مِـنْ دُونِهـا عالِجُ

لا تَكْسَـعِ الشَّوْلَ بأَغْبارِها

إنَّـكَ لا تَـدْرِى مَـنِ النَّاتِـجُ

واحْلُبْ لأَضيافـكَ أَلْبانَها

فـإنَّ شَـرَّ اللَّـبَنِ الـوَالِجُ

رُبَّ عِشَارٍ سـوفَ يَغْتَالُها

لا مُبْطِـئِ الشَّـدِّ ولا عائِـجُ

يَسُــوقُها شَـلًّا إلى أَهلِــه

كمــا يَسُــوقُ البَكْــرَةَ الفــالِجُ

قد كُنْتَ يومًا تَرْتَجى رِسْلَها

فأُطْـرِدَ الحائِـلُ والـدَّالِجُ

بَيْنَا الفتَى يَسْعَى ويُسْعَى له

تــاحَ لــه مِـنْ أَمْـرِهِ خَــالِجُ

يَــتْرُكُ ما رَقَّحَ من عَيْشِــه

يَعِيــثُ فِيــهِ هَمَــجٌ هامِـجُ

وأوصى لبيد بن ربيعة العامرىّ ابنه مجموعة من الوصايا الدّقيقة، لدرجــة أنّه ذكر له بالتّفصيل ما يضع على قبره بعد وفاته، وكيف يضعه، وذكره أنّ المطلق الآخر -النّتيجة السّيئة- هو نتيجة عدم الالتــزام بالوصايا، بمعنى أنّه فى حال التزامه بالوصايا فلن يصبح ضعيف الرّأى، قال لبيد (العامرىّ، ٢٠٠٤):

ذَرنــى ومــا مَلَكَــت يَميْـ

نــى إن رَفَعــتُ بِــهِ شُـؤونا

وَافعَـل بِمالِـكَ مـا بَـدا

لَـكَ إنْ مُعانًـا أَو مُعينـا

وَاعفِف عَنِ الجاراتِ وامنَح

هُـنَّ مَيسِــرَكَ السَّمينا

وَابـذُل سَـنامَ القِـدرِ إنَّ

سَــوائَها دُهمًـا وجونـا

ذا القَدرَ إن نَضِجَت وَعَجِّـ

ل قَبلَـهُ مــــا يَشـتَوينا

إنَّ القُــــدورَ لَواقِـحُ

يُحلَـبنَ أَمثَــلَ مـا رُعينا

وَإذا دَفَنـتَ أَبـاكَ فَاجـ

عَـل فَوقَـهُ خَشَـبًا وَطينـا

وَصَفائِحًـــا صُمًّـا رَوا

سـيها يُسَـدِّدنَ الغُضونـا

لِيَقِــينَ وَجــهَ المَرءِ سَــفْ

ســـافَ التُرابِ ولَــن يَقينا

ثُمَّ اعتَـبر بِثَنـــاءِ رَهــ

طِـكَ إذ ثَــوى جَدثًــا جَنينا

وَتَراجَعــوا غُــبرَ المَــرا

فِــقِ مِــن أَخيهِــم يائِســينا

تِلْــكَ المَــكارِمُ إن حَفِــظ

تَ فَلَــن تُــرى أَبَــدًا غَبينــا

وقد أوصــى لبيد ابنتيه عند وفاته أيضًــا، وحدّد لهما ما يجب فعله وما لا يجب، قال لبيد (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

فإنْ حانَ يَومًا أنْ يموتَ أبوكُما

فَلا تخْمشا وجهًا ولا تحلقا شعرْ

وقولا هو المرءُ الذى لا حليفَهُ

أضاعَ ولا خــانَ الصديقَ ولا غدرْ

وذكر الأعشــى ميمون القيسىّ عزمه على توصية ابنه عدّة وصايا

عنـد اقتراب أجلـه، وهى وصايا تحمل نفس صفات سـابقاتها من حيث المباشـرة، والوضوح، والتّسمية المطلقة للأشياء، قال الأعشى (القيسىّ، ١٩٥٠):

سأوصى بصيرًا إنْ دنوتُ من البلى

وَصَـاةَ امْرئٍ قاسَـى الأمُـورَ وَجَرّبَا

بـأنْ لا تبـغِ الـودَّ مِـنْ متباعدٍ

وَلا تَنْـأَ عَـنْ ذِى بِغْضَـةٍ أنْ تَقَرّبَـا

فَـإنّ القَرِيبَ مَـنْ يُقَرِّبُ نَفْسَـهُ

لَعَمْـرُ أبِيـكَ الخَـيرَ لا مَنْ تَنَسّـبَا

مَتَـى يَغتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لا يجدْ لَهُ

عَلى مَـنْ لَهُ رَهْـطٌ حَوَالَيْـهِ مُغضَبَا

ويحطـمْ بظلـمٍ لا يـزالُ لـهُ

مصـارعَ مظلـومٍ مجـرًّا ومسـحبا

وتدفنُ منهُ الصّالحاتُ وإنْ يسـئْ

يكُنْ ما أسـاءَ النّارَ فـى رَأسِ كَبكَبَا

وليسَ مجبرًا إنْ أتى الحيَّ خائفٌ

وَلا قَائِـلا إلّا هُـوَ الْمُتَعَيَّبَـا

وذكر الأعشى ميمون وصايا والده له، فقال (القيسيّ، ١٩٥٠):

إنَّ الأعَـزَّ أبَانَـا كَانَ قَـالَ لَنَا

أوصيكـمُ بثـلاثٍ إنّنـي تلـفُ

الضَّيْفُ أُوصِيكُمُ بالضَّيْفِ إنَّ لَهُ

حَقًّـا علـيَّ فَأُعْطِيـهِ وَأعْـتَرِفُ

وَالجَارُ أُوصِيكُمُ بِالجَارِ إنَّ لَهُ

يومًا منَ الدّهـرِ يثنيهِ فينصرفُ

وَقاتِلوا القَوْمَ إنَّ القَتْلَ مَكْرُمَةٌ

إذا تلـوّى بكفِّ المعصـمِ العُرُفُ

دراسات سابقة عن وصايا الآباء للأبناء

أكّد خضر (٢٠٠٥) على الحرص الكبير من الشّـعراء الجاهليّين على تربية أبنائهم، وتقديمهم لمجتمعاتهم بشكل مناسب لتبوّئهم مواقع مهمّة فـي قبائلهم، وقد أكّد أيضًا أنّ الآباء حاولوا تشـكيل

شـخصيّة مثاليّة لأبنائهم، ورسـم صورة البطل القدوة فيهم، وقد قـدّم الباحث أنموذجًـا تربويًا متعدّد الجوانـب، ولكنّه لم يتطرّق لوضوح الوصايا ومباشـرتها وعدم إعطاء الأبناء المسـاحة المناسـبة لتعدّد الخيارات أمامهم.

تأثير عدم التيقّن فى المجتمع

وتأثيرات درجة عدم التّيقّن التى تتمتّع بها ثقافة معيّنة تنعكس على العلاقات بـين النّاس فى المجتمع أيضـا، فالمجتمعات الّتى تسـجّل درجات عالية على مقياس عدم التيقّن يتّسم أغلب أفرادها بارتفاع درجة القلق من المسـتقبل بسبب غموضه، فترتفع درجات التّوتّـر بين النّاس، وتنخفض معدّلات السّـعادة، ويحتاج الأفراد قوانـين كثـيرة تضبط إيقاع كلّ شـىء، وتبقى المسميّات والمفاهيم مطلقة، وقابعة تحت تصنيفين متعاكسـين، فالشّـىء إمّا خير وإمّا شرّ، ولا يوجد تفاوت فى طرق عمل الأشياء بسبب القلق من المختلف الغامض، ولذلك لا تدخل المفاهيم الجديدة للمجتمع، ويقاوم الأفراد أى تغيـير حتّى لو كان طفيفًا، ويتعاملـون مع الاختلاف على أنّه شـىء خطير، ومُهدّد، كما يلجأ النّاس لعدّة طرق لمعالجة التّوتّر، وأبرزها شرب الكحول بنسب عالية.

أمّا الأفـراد فى المجتمعات ذات عدم التّيقّن المنخفض لا يقلقون كثيرًا مِن المسـتقبل، أو من أىّ شـىء غامض، لذلـك لا يحتاجون

لأن يكون كلّ شئ منظّمًا تمامًا، فتقلّ القوانين، وتزيد المرونة، وتتعدّد طرق عمل الشيء الواحد، فيكون المختلف مثيرًا للفضول بدون القلق، لذلك فإنّ المفاهيم الجديدة تدخل المجتمع بسهولة، والتّغيير المستمرّ سمة المجتمع.

المجتمع العربىّ الجاهلىّ على مقياس عدم التّيقّن

القلق من الدّهر وتقلّب أحواله

وواقع حال المجتمع العربىّ فى الجاهليّة عَكَس درجة عالية من عدم التّيقّن، وذلك استنادًا لما وصلنا من شعر تلك الفترة، وقد ذكر الشّعراء قلقهم من الدّهر وتقلّباته كثيرًا، وذكّروا بضرورة الحذر منه. لم يخفِ امرؤ القيس الكندىّ قلقَه من الدّهر بعد موت أبيه وجدّه ملوك كندة، فقال (الكندىّ، ٢٠٠٤):

أبَعْدَ الحارثِ الملكِ ابنِ عمروٍ

وَبَعْدَ الخيرِ حُجْرٍ ذى القِبابِ

أرجّى من صروفِ الدّهرِ لينًا

ولمْ تَغْفَلْ عنِ الصمِّ الهضابِ

ورثى لبيد بن ربيعة العامرىّ أخاه أربد رثاء العالم بتقلّبات الدّهر ونوائبه، فقال (الهاشمىّ، ٢٠٠٤):

فَلا جَـزِعٌ إنْ فَـرَّقَ الدَّهْـرُ بَيْنَنا
فَـكُلُّ فَتًـى يَوْمًا بـهِ الدَّهْـرُ فاجِعُ

ومَـا النَّـاسُ إلاّ كالدِّيـارِ وأهْلها
بِهـا يَـوْمَ حَلُّوهـا وراحـوا بَلاقِـعُ

ومَـا المـالُ والأهْلُـونَ إلاَّ وَدائـعُ
وَلا بُـدَّ يَوْمًـا أنْ تُـرَدَّ الوَدائِـعُ

لَعَمْرُكَ ما تَدرى الضَّوارِبُ بالحصَى
وَلا زاجِـراتُ الطَّـيرِ مـا اللهُ صانِـعُ

وقال أيضًا فى دور الدّهر بزوال النّعم (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

ألا كُلُّ شَـيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ
وكلُّ نعيـم لا مَحالـةَ زائِـلُ

وكلُّ أُنَاسٍ سوْفَ تَدخُلُ بَينَهُمْ
دُوَيْهـةٌ تصفَـرُّ مِنهـا الأنَامِـلُ

وكلُّ امرىٍ يَوْمًا سـيعلمُ سعيهُ
إذا كُشِّـفَتْ عندَ الإلَـهِ المَحاصِلُ

وقال أميّة بن أبي الصّلت الثّقفيّ يذكر بفواجع الدّهر، وأهمّها الموت (الهاشميّ، ١٩٦٩):

كلُّ عيشٍ وإنْ تطاول دهرًا

منتهى أمرِه إلى أنْ يزولا

ليتني كنتُ قبل ما قد بدا لي

في رءوس الجبال أرْعى الوعولا

فاجعلْ الموت نُصب عينيك واحذرْ

غوْلة الدهر إنّ ذا الدهر غُولا

وذكّر عديّ بن زيد العبّادي شخصا بنوائب الدّهر، ودعاه إلى استحضارها دائما، قال عديّ (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

أيُّها الشامِتُ المُعَيِّرَ بالدّهـ

ـرِ أأنتَ المُبرّأُ الموفورُ

أم لَدَيكَ العَهدُ الوَثيقُ مِنَ الأيـ

ـامِ بَل أنتَ جاهِلٌ مَغرورُ

وقال ذو الإصبع العدوانيّ في اختلاف أحوال الدّهر (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

يَـا مَنْ لِقَلْبٍ شَـدِيدِ الهَمّ مَحْزُونِ

أَمْسَـــى تَذَكَّـرَ رَيّـا أُمّ هَـارُونِ

أَمْسَى تَذَكّرَها مِنْ بَعْدِ ما شَحَطَتْ

والدّهْـرُ ذو غِلْظَـةٍ حِيْنًـا وذُو لِـيْنِ

وقال السُّـليك بن السُّلكة التّميميّ –وهو من الصّعاليك – فى ذلك أيضًا (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أَلَمْ تَـرَ أَنّ الدّهْـرَ لَوْنانِ لَوْنُهُ

وطَـورانِ بِشْـرٌ مـرةً وكَـذوبُ

وقـال امرؤ القيس فى عـدم ثبات الدّهر على حـال (الكندىّ، ٢٠٠٤):

ألا إنّمَـا الدّهرُ لَيَـالٍ وَأَعْصُرُ

وليسَ على شـيء قويم بمسـتمرْ

وقـال عبيد بـن الأبرص الأسـدىّ يذكر تقلّب أحـوال النّاس، كنتيجة لتقلّبات الدّهر (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

فَـكُلُّ ذى نِعمَةٍ مَخلوسُ

وَكُلُّ ذى أَمَـلٍ مَكـذوبُ

وَكُلُّ ذى إِبِـلٍ مَـوروثُ

وَكُلُّ ذى سَـلَبٍ مَسـلوبُ

وَكُلُّ ذى غَيبَـةٍ يَـؤوبُ

وَغائِـبُ المَـوتِ لا يَـؤوبُ

وقال أيضًا فى التّحذير من الدّهر (الهاشميّ، ١٩٦٩):

كَفـى زاجِـرًا لِلمَـرءِ أَيّـامُ دَهرِهِ

تَـروحُ لَـهُ بِالواعِظـاتِ وَتَغتَـدى

وقـال أُحَيْحة بن الجُلاح الأوسـيّ فـى زوال النّعم (الجزرىّ، ٢٠١٠):

فما يـدرى الفقيرُ متـى غِناهُ

وما يـدرى الغنـىُّ متـى يَعيلُ

وما تـدرى وإن أجمعتَ أمرًا

بـأىِّ الأرضِ يُـدركك المقيـلُ

وما تدرى وإن أنتجت سَـقْبًا

لغـيرك أم يكـونُ لـكَ الفصيـلُ

ومـا إن أخوةٌ كـبروا وطابوا

لباقيـةٌ وأمّهــــــمُ هَبُـولُ

سَـتَثكَلُ أو يفارقهـا بنوهـا

بمـوتٍ أو يجـيء لهـم قَتُـولُ

وذكـر الأضبط بن قُريْـع التميميّ دور الدّهر فـي تغيير أحوال النّاس الماديّة، فقال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

لكلِّ هَـمٍّ مـن الهُموم سَـعَهْ

والمُسْـيُ والصُّبـحُ لا فـلاحَ معهْ

لا تحقِـرنَّ الفقـيَر علَّـكَ أنْ

تركـع يومًـا والدهرُ قـد رَفعهْ

وقـال علقمة الفحـل التميميّ فـي نوائب الدّهـر (الهاشميّ، ١٩٦٩):

وكلُّ حِصنٍ وإنْ طالَت سلامَتُهُ

علـى دَعائِمِـه لا بُـدَّ مَهـدُومُ

وذكَر عنترة بن شـدّاد العبسـيّ بزوال النّعم، فقال (العبسـيّ، ٢٠٠٤):

فَلا تَكفُرِ النُعمى وَأَثنِ بِفَضلِها

وَلا تَأمَنَـن ما يُحـدِثُ اللهُ في غَدِ

وقال في تفرّق الأحبّة (العبسيّ، ٢٠٠٤):

لا شَكَّ لِلمَرءِ أَنَّ الدَهرَ ذو خُلُفٍ

فيـهِ تَفَـرَّقَ ذو إِلـفٍ وَمَألـوفُ

وقـال حاتم الطائيّ فـي اختلاف أحوال الزّمـان (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

هل الدَّهرُ إلاَّ اليومُ أو أمسِ أو غَدُ

كـذاكَ الزّمـانُ بيننـا يـتَرَدَّدُ

يَرُدُّ علينـا ليلةً بعـد يَوْمِها

فلا نَحْنُ ما نَبْقى ولا الدّهْرُ يَنْفَدُ

لنـــا أجَلٌ إمَّـــا تَنَاهَـــى إمامُه

فنحـــنُ علـــى آثــارِه نتـــورَّدُ

ونعى زهير بن أبى ســلمى المزنىّ ابنه ســالم، وكان النّعى على شكل حوار مع رجل غرّه دهره بالنّعم، فذكّره زهير بفواجع الدّهر، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

رَأتْ رَجُلًا لاقى منَ العيشِ غبطةً

وَأخْطَـأهُ فِيهـا الأمُـورُ العَظائِـمُ

وَشَـبَّ لهُ فيها بَنُـونَ وتُوبِعَتْ

سَـلامَةُ أعْـوامٍ لَـهُ وغَنَائِـمُ

فأصبـحَ محبـورًا ينظُـرُ حولهُ

تَغَبُّطَـهُ لـوْ أنَّ ذلـكَ دائِـمُ

وعندى من الأيّـامِ ما ليسَ عندَهُ

فقلـتُ لـهُ مهـلًا فإنّـكَ حـالمُ

لَعَلّـكَ يَوْمًـا أنْ تُرَاعِـى بِفاجِعٍ

كمـا راعنـى يـومَ النّتـاءةِ سـالمُ

وقال الأسْـوَد بن يَعفُر النهشـلىّ يذكر أحوال الأقوام السّابقة، ويحذّر من الإطمئنان للدّهر (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

ولقد علمْتُ لَوَ انْ عِلميَ نافِعِى

أنّ السَّـبيلَ سَـبيلُ ذى الأعْـوادِ

إنّ المنِيَّـة والحُتُـوفَ كلاهما

يُوفِى المخَـارِمَ يَرْمِيانِ سَـوادى

مـاذا أُؤَمِّـلُ بعـد آلِ مُحَرِّقٍ

تَركـوا مَنازلَهُـمْ وبَعْـدَ إيـادِ

أهلِ الخَوَرْنَق والسَّدِير وبارِقٍ

والقصرِ ذى الشُّـرُفَاتِ من سِندادِ

نَزَلُـوا بِأنْقِرَةٍ يَفيـضُ عليهمُ

مـاءُ الفُـرات يَفيضُ مـن أَطْوَادِ

جَرَتِ الرياحُ على محلِّ دِيارهمْ

فكأنّمـا كانـوا علـى مِيعـادِ

ولقد غَنُوا فيها بأنْعَم عِيشَـةٍ

فـى ظِـلِّ مُلْـكٍ ثابـتِ الأوْتـادِ

فإذا النَّعيـمُ وكلُّ ما يُلْهَى به

يومًـا يَصِـيرُ إلى بِلًـى ونَفـادِ

وقال قسّ بن ساعدة الإيادىّ (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فـى الذَّاهبـينَ الأَوَّليـ

نَ مـن القُرونِ لنـا بصائرْ

لمَّـا رأيْـتُ مـواردًا

للمـوتِ ليسَ لهـا مَصادِرْ

ورأيـتُ قومـى نحوها

يَمضِـى الأصاغـرُ والأكابرْ

أيقنْـتُ أنِّـى لا مَحـا

لةَ حيثُ صـار القومُ صائرْ

دراسات سابقة عن القلق من الدّهر وتقلّب أحواله

تطرّقت سلمان (٢٠١٥) إلى العِداء بين الشّعراء الجاهليّين وبين

الدّهر، والّذى استمر لما بعد الإسلام، وقد كان سببب هذا العداء نظرتهم الفلسفيّة للدّهر على أنّه قوّة غامضة لا ينجو منها أحد، كذلك فقد أكّد على (١٩٩٣) على هذا المعنى، وأشار إلى تطرُّق الجاهليّين للدّهر، وتحذيرهم منه على اعتباره مسبّبًا للقوارع وغير مأمون الجانب.

انتشار الخمر

يُعتبر التكيّف مع نسبة القلق العالية أحد الأسباب المهمّة لانتشار شرب الخمر بكثرة فى المجتمع الجاهلىّ، إذ أنّ المجتمعات ذات الدرجات المرتفعة على مقياس عدم التيقّن تزداد فيها نسبة شرب الكحول كما ذكر سابقًا، وقد أكثر الشاعر الجاهلىّ من ذكر الخمر ومجالسها، وأكثر بعضهم فى وصفها، فوصفها عمروبن كلثوم التّغلبىّ، ثمّ بعد أن انتهى من وصفها، ذكر غموض المستقبل، وأنّ الغد مرهون بما لا يعلم المرء، فى ربط صريح منه بين المستقبل الغامض الّذى يمثّل المسّبب، والخمر التى تمثّل طريقة التكيّف، وتخفيف القلق من هذا الغموض، قال عمرو بن كلثوم (الزّوزنىّ، ١٩٩٣):

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِيْنَا
وَلاَ تُبْقِى خُمُوْرَ الأَنْدَرِيْنَا

مُشَعْشَـعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيْهَا

إِذَا مَـا المَـاءَ خَالَطَهَا سَـخِيْنَا

تَجُوْرُ بِذِى اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ

إِذَا مَـا ذَاقَهَـا حَتَّـى يَلِيْنَـا

تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيْحَ إِذَا أُمِرَتْ

عَلَيْـهِ لِمَالِـهِ فِيْهَـا مُهِيْنَـا

صَبَنْتِ الـكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو

وَكَانَ الـكَأْسُ مَجْرَاهَـا اليَمِيْنَا

وَمَـا شَـرُّ الثَّلَاثَـةِ أُمَّ عَمْرٍو

بِصَاحِبِـكِ الـذِى لاَ تَصْبَحِيْنَا

وَكَأْسٍ قَـدْ شَـرِبْتُ بِبَعْلَبَكٍّ

وَأُخْـرَى فِى دِمَشْـقَ وَقَاصِرِيْنَا

وَإِنَّا سَـوْفَ تُدْرِكُنَـا المَنَايَا

مُقَـدَّرَةً لَنَـا وَمُقَدَّرِيْنَـا

قِفِــي قَبْلَ التَّفَرُّقِ يَــا ظَعِيْنَا

نُخَـبِّـرْكِ اليَقِـيـن وَتُخْبِرِيْنَــا

قِفِي نَسْأَلْكِ هَلْ أَحْدَثْتِ صَرْمًا

لِوَشْـكِ البَيْنِ أَمْ خُنْــتِ الأَمِيْنَا

بِيَــوْمِ كَرِيْهَةٍ ضَرْبًــا وَطَعْنًا

أَقَــرَّ بِــهِ مَوَالِيْــكِ العُيُوْنَــا

وَأَنَّ غَــدًا وَأَنَّ اليَــوْمَ رَهْـنٌ

وَبَعْــدَ غَــدٍ بِمَــا لاَ تَعْلَمِيْنَــا

وللقلق المسبّب لشرب الخمر عدّة أسباب، أبرزها الحرب، إذ كثيرًا ما ارتبط ذكر الخمر بالحرب في الشّعر الجاهليّ، فيبدو أنّ الفارس لم يكن يخفي قلقه من الحرب، وما ستؤول إليه، فيذكر الخمر، ثمّ يتطرّق للحماسة، والتّي لها عدّة صورة مثل الفخر بإنجاز، أو بقبيلة، والأبيات السّابقة لعمرو بن كلثوم مثال على ذلك، اذ كانت مناسبتها قتل عمرو بن كلثوم لملك الحيرة عمرو بن هند، وهو أمر ليس بالهيّن، وعواقبه الحرب الّتي أقلقت عمرو بن كلثوم، ثمّ إنّه بدء بذكر مناقب قبيلته وانجازاتها بعد ذكره للخمر، فقال عمرو بن كلثوم (الزّوزنيّ، ١٩٩٣):

أَبَـا هِنْـدٍ فَـلا تَعْجَـلْ عَلَيْنَا

وَأَنْظِرْنَـــا نُخَـبِّرْكَ اليَقِيْنَـا

بِأَنَّـا نُـوْرِدُ الرَّايَـاتِ بِيْضًـا

وَنُصْدِرُهُـنَّ حُمْـرًا قَـدْ رُوِيْنَـا

وَأَيَّـامٍ لَنَـــا غُـرٍّ طِـوَالٍ

عَصَيْنَـا المَلْـكَ فِيهَـا أَنْ نَدِيْنَـا

وَسَـيِّدِ مَعْشَـرٍ قَـدْ تَوَّجُـوْهُ

بِتَـاجِ المُلْـكِ يَحْمِـى المُحْجَرِيْنَا

تَرَكْنَـا الخَيْـلَ عَاكِفَـةً عَلَيْهِ

مُقَلَّـــدَةً أَعِنَّتَهَـــا صُفُوْنَـا

وَأَنْزَلْنَـا البُيُوْتَ بِـذِى طُلُوْحٍ

إِلَى الشَّـامَاتِ تَنْفِـى المُوْعِدِيْنَـا

وَقَدْ هَـرَّتْ كِلابُ الحَـىِّ مِنَّا

وَشَـذَّبْنَا قَتَـادَةَ مَـنْ يَلِيْنَـا

مَتَــى نَنْقُــلْ إلَى قَــوْمٍ رَحَانَا

يَكُوْنُــوا فِــى اللِّقَاءِ لَهَــا طَحِيْنَا

يَكُــونُ ثِفَالُهَــا شَــرْقِيَّ نَجْدٍ

وَلُهْوَتُهَـــا قُضَاعَــةَ أجْمَعِيْنَــا

وربط عنترة بن شداد العبسىّ أيضًا بين شربه للخمر، وإنجازاته الحربيّة، فقال (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

ولقد شربتُ من المدامةِ بعدَ ما

رَكَـدَ الهواجـرُ بالمشـوفِ المُعْلمِ

بزُجاجـةٍ صفراءَ ذاتِ أسـرَّةٍ

قُرِنــتْ بأزهرَ فى الشَّـمالِ مفدَّمِ

فإذا شــربتُ فإنّنى مُسْــتَهْلِكٌ

مــالى وعرضــى وافــرٌ لم يُكلَـمِ

وإذا صَحَوْتُ فما أقَصِّرُ عنْ ندًى

وكمــا عَلمــتِ شمائلــى وَتَكَرُّمى

وحليلِ غانيـةٍ تركتُ مجدّلا

تَمكـو فريصتُـهُ كشـدْقِ الأَعْلَمِ

سبقتْ يداىَ له بعاجلِ ضربةٍ

ورشـاشِ نافـذَةٍ كلـوْن العَنْـدَمِ

هَلّا سَألتِ الخَيلَ يا ابنَةَ مالِكٍ

إنْ كُنـتِ جاهِلَةً بِمـا لَم تَعلَمى

إذ لا أزالُ على رحالةِ سـابحٍ

نهْـدٍ تعـاوَرُهُ الكُمـاةُ مُكَلَّـمِ

طَـوْرًا يجَـرَّدُ للطعـانِ وتارةً

يأوى الى حصـدِ القسـىِّ عرمرمِ

يُخبرْك من شَهدَ الوقيعَةَ أنّنى

أغشـى الوغى وأعـفُّ عند المغنمِ

ومدَّججٍ كـرِهَ الكُمـاةُ نِزَالَهُ

لا مُمْعِـنٍ هَرَبًـا ولا مُسْتَسـلمِ

جادتْ له كفي بعاجل طعنةٍ

بمثقَّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقَوَّمِ

برَحِيبَةِ الفَرْغَينِ يهْدى جَرسُها

باللّيلِ معتسَّ الذِّئابِ الضُّرَّمِ

فَشَككتُ بالرُّمحِ الأصَمِّ ثِيابَهُ

لَيسَ الكَريمُ عَلى القَنا بِمُحَرَّمِ

فتركتهُ جزرَ السِّباعِ يَنُشْنَهُ

ما بينَ قُلَّةِ رأسِهِ والمعصمِ

وَمِسَكِّ سابغةٍ هَتكتُ فروجَها

بالسَّيفِ عن حامي الحقيقةِ معلمِ

رَبِذٍ يداهُ بالقِداحِ إذا شتا

هتَّاكِ غاياتِ التِّجارِ ملوَّمِ

لما رآني قَدْ نَزَلْتُ أُرِيدُهُ

أبدى نواجذَهُ لغيرِ تبسُّمِ

فطعنتهُ بالرُّمحِ ثمَّ علوتُهُ

بمهندٍ صافي الحديدةِ مِخْذَمِ

عهدى بــه مَدَّ النّهــارِ كأنّما

خُضِبَ البَنــانُ ورأسُــهُ بالعِظْلِمِ

بَطَــلٍ كَأَنَّ ثِيابَهُ فى سَــرْحَةٍ

يُحذى نِعالَ السِّــبتِ لَيسَ بِتَوأَمِ

كذلك فعل حسّــان بن تُبَّع ملك اليمن الّذى ذكر الخمر فى سياق

وعيده بالحرب على الرّوم، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أيّهــا النّــاسُ إنّ رأيى يُرينى

وهــو الــرأىُ طوفَــةً فــى البلادِ

بالعــوالى وبالقنابــلِ تَــرْدى

بالبطاريـــــقِ مِشــيةَ العُــوَّادِ

وبجيــشٍ عرمــرَم عربــىٍّ

جَحْفل يســتجيبُ صوتَ المنادى

مــن تميــمٍ وخنــدِفٍ وإيــادٍ

والبهالِيــلِ حِمْــــيرٍ ومــرادِ

فإذا سرتُ سارتْ النّاسُ خَلفى

ومَعـى كالجبـالِ فـى كلّ وادِ

سَــقِّنى ثم ســقِّ حميرَ قومى

كأسَ خمــرٍ أُولى النّهــى والعِمادِ

وكذلك افتتــح عمرو بن الإطنابة الخزرجىّ تهديدَه للحارث بن

ظالم المرىّ بذكره للخمر، قال عمرو (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

عَلِّلانــى وعلِّــلا صاحبيّــا

واســقيانى مــنَ المُــروّقِ ريّــا

إِنّ فينا القيــان يَعزِفنَ بالدُّفّ

لفتياننـــــا وعيشًـــــا رخيّا

يتبارَيــن فى النّعيــم ويصُبب

نَ خِــلالَ القــرونِ مِســكًا ذكيّــا

إنّمــا هُمّهــنّ أَنْ يَتحلّيــ

نَ سُموطًــا وسُــنبلًا فارسـيّا

من سموطِ المرجان فُصِّلَ بالشَّذ

رِ فأَحسِـن بحليهِـنَ حُليّـا

وفتًى يضربُ الكتيبةَ بالسَّيـ

فِ اذا كانـتِ السَّيوفُ عِصيّـا

إنّنـا لا نُسَـرُّ في غـيرِ نجدٍ

إنَّ فينـا بهـا فتًـى خزرجيّـا

يدفـعُ الضَيـمَ والظُلامةَ عنها

فَتَجافـى عنـه لنـا يـا مَنيّـا

أبلغِ الحارثَ بن ظـالمٍ الرِّعـ

ديـدَ والنّـاذرَ النُـذورَ عَليّـا

أنّمـا يَقتـلُ النيـامَ ولا يقـ

تـلُ يُقظـانَ ذا سـلاحٍ كمِيّـا

ومعي شِـكّتي معابلُ كالجمـ

رِ وأعـددتُ صارمًـا مَشـرفيّا

لو هَبطتَ البلادَ انسيَتُكَ القتـ

لَ كما يُنســـىء النَســـىء النَسِـيَا

وذكر حاتم الطائىَ الخمر، واعتبرها من الأساسيَات فى الحياة، وقرنها بالماء، فقال (الأصفهانىَ، ٢٠١٠):

أمَـاوِىَّ إنْ يُصبحْ صَداىَ بقَفْرَةٍ

من الأرضِ لا مــاء لديّ ولا خَمْرُ

تَرَى أنَّ ما أنفقت لم يَكُ ضَرَّنى

وأنَّ يَـدِى ممــا بخلْتُ بــه صِفرُ

وافتخـر عبيد بـن الأبرص بتصـرّف قومه عند الشَـرب وعند الصَحو، فقال (الأصفهانىَ، ٢٠١٠):

نُغْلــى السِّــباءَ بــكل عا

تقــةٍ شمــولٍ مــا صَحْونــا

ونُهِـــــينُ فـــى لذّاتنا

عُظْـمَ التّــلادِ إذا انتشــينا

وتجدر الإشارة إلى أسـباب أخرى لشرب الخمر، إذ ليست فقط

لتخفيف القلــق، حيث قرنها بعض الشــعراء الجاهليّين بالمتعة، وهذا سيتم شرحه بتفصيل أكثر فى فصل التّساهل.

دراسات سابقة عن انتشار الخمر

أكّد أياز خــان Ayaz Khan (٢٠١٣) أنّ كلّ البيوت العربيّة فى الجاهليّة تقريبًا احتوت على الخمر، وأنّ الّذين لم يســتهلكوها كانوا قلّة قليلة، وكان شــرب الخمر نشــاطًا أساسيًّا فى المجالس، وبلغ من انتشــار الخمر أن كان له مئتان وخمســون اسمًا فى اللّغة العربيّة، كذلك فقد ذكر ضيف (٢٠٠٨) شــيوع الخمر فى المجتمع الجاهلىّ، وعدّها إحدى الآفات الّتى ضربت هذا المجتمع.

الأحلاف والحاجة إلى القوانين

وحاجــة المجتمعــات ذات الدّرجات العالية علــى مقياس بعد عدم التيقّن إلى القوانين وســيلة أخرى من وسائل تكيّف أفرادها مع الغموض المقترن بالمســتقبل. ذكر الحارث بن حلّزة فى نزاع قبيلته بكــر مع قبيلة تغلب حلــفَ المجاز، وضــرورة الرّجوع إليه لحلّ الخلافات بين القبيلتين، فقال (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

فَاتْرُكُوا الطَيخَ والتَعَاشِي وَإِمّا

تَتَعَاشَــوا فَفِــى التَعَاشِــى الدّاءُ

وَاذكُرُوا حِلفَ ذى المَجازِ وَما قُـ

دِّمَ فيـهِ العُهـودُ وَالكُفَـلاءُ

حَذَرَ الخَونِ وَالتَعَدّى وَهَل يَنـ

قُـضُ مـا فـى المَهـارِقِ الأَهواءُ

ومـن الأحلاف المشـهورة فى الجاهليّة حلـف الفضول، وقصّة إنشـائه أنّ رجل يمنىّ اشـترى بضاعة من رجل من بنى سهم، فى قريش، فلوى السـهمىّ بحقّه، فاسـتنجد اليمنىّ بقريش، ووصل الخبر إلى العبّاس بن مرداس السلمىّ، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

إنْ كان جـارُكَ لم تنفعـكَ ذِمَّتُـه

وقـد شـرِبتَ بـكأس الغـلِّ أنفاسـا

فائتِ البيوتَ وكُنْ من أهلها صَددًا

لا تُلْـف ناديَهُـمْ فُحْشًـا ولا باسـا

ودعا زهير بن أبى سـلمى المزنىّ القبائـل المتصالحة بعد حرب داحـس والغـبراء بضـرورة إنشـاء حلـف لحفظ الحقـوق، فقال (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

فَمِن مُبلغُ الأَحلافِ عَنّى رِسالَةً

وَذُبيـــانَ هَل أَقسَـــمتُمُ كُلَّ مُقسَـمِ

دراسات سابقة عن الأحلاف والحاجة إلى القوانين

تطرّق على (١٩٩٣) للأحلاف فى الجاهليّة بشكل مفصّل، وذكر وجود شـــىء من الدّلالـــة الدّينيّة فى معنى الحِلْف، وذلك بسـبب الالتزام الشديد به من قِبَل القبائل المتحالفة، والعار والازدراء الّذى يلحـــق من يخالفه، وهذا قد تبـدّى جليًّا فى المظاهر والطّقوس الّتى رافقت إنشـاء الأحـــلاف، ومنها مثلًا إدخال أيـدى المتحالفين فى جفنـــة مملوئة بالدّم، أو إشـعال نار للتّحالـــف، أو الطّواف حول الكعبة لإشـهاد الأصنام على التّحالف، وقد كانت التّحالفات تُعقد لضرورات اقتصاديّة، أو عسكريّة، أو سياسيّة.

الحكمة والنّصيحة

وأتت الأحلاف بالقوانين الاجتماعيّة الرسميّة والمكتوبة، بينما أتت مجموعة أخرى من القوانـــين غير الرسميّة ولا المكتوبة، على شـــكل نصائح أو حكم، وهى لا تقلّ أهميّة عـــن القوانين الرّسميّة، وهى نصائح واضحة، ومباشرة، وضيّقة، ومطلقة، ولا تحتمل تعدّد الخيارات، أو الأوجه، فِعلُها يسـتوجب المدح، وتَركُها يستوجب الـذمّ. والأمثلـة على هذا النّـوع من الحكم والنّصائـح كثيرة، قال

المثقّب العبدى يذكّر بضرورة الوفاء بالوعد، والملاحَظ دقّة وصف كلّ سـلوك وطلاقته، فمثلًا قول «نعم» بعد «لا» يُعدّ حسنًا، بينما قول «لا» بعـد «نعم» يُعد قبيحًا - الطّـرف النّقيض الآخر - قال المثقّب (الضّبّىّ، ١٩٢٠):

لاَ تَقُولَـنَّ إِذَا مـا لم تُـرِدْ
أَن تُتِـمَّ الوَعْـدَ فـى شَـىءٍ نَعَمْ

حَسَـنٌ قَـوْلُ نَعَمْ مِـنْ بَعْدِ لا
وقَبيـحٌ قـوْلُ لا بَعـدَ نَعَـمْ

إِنَّ لا بَعْـدَ نَعَـمْ فاحِشَـةٌ
فَبِـلا فابْـدَأ إِذَا خِفْـتَ النَّـدَمْ

فـإِذا قُلْـتَ نَعَمْ فاصـبرْ لَها
بِنَجَـاحِ القَـولِ إِنَّ الخُلْـفَ ذَمْ

واعْلَـمَ انَّ الـذَّمَّ نَقْـصٌ للفتَى
ومَتَـى لاَ يَتَّـقِ الـذَّمَّ يُـذَمْ

أَكْـرِم الجـارَ وراعِ حَقَّـهُ
إِنَّ عِرْفـانَ الفَتَـى الحـقَّ كَـرَمْ

أَنــا بَيْتِى مِن معَـدٍّ فى الذُّرَى
وِلِىَ الهامَـةُ والفَـرْعُ الأَشَـمْ
لا تَرَانِــى رَاتِعًا فــى مَجْلِسٍ
فى لُحُوم النَّاسِ كالسَّبْعِ الضَّرِمْ
إنَّ شَـرَّ النَّاسِ مَن يَكْشِـرُ لى
حــينَ يَلْقانِــى وإِنْ غبْـتُ شَـتَمْ
وكَلامٍ سَـيِّئٍ قَـدْ وُقِـرَتْ
أُذُنِــى عَنــهُ وما بِــى مِــنْ صَمَمْ
فَتَعَزَّيْــتُ خَشــاةً أَنْ يَـرَى
جاهِـلٌ أَنِّــى كمــا كانَ زَعَـمْ
ولبَعْضُ الصَّفْحِ والإِعْرَاضِ عَنْ
ذِى الخَنَــا أَبْقَــى وإِنْ كانَ ظَلَـمْ
إِنَّمَــا جــادَ بِشَـأْسٍ خالِـدٌ
بَعْدَ مــا حاقَتْ به إِحــدَى الظُّلَمْ

مِـن مَنايـا يَتَخَاسَـيْنَ بِـهِ

يَبْتَدِرْنَ الشَّـخْصَ مِـنْ لَحْمٍ ودَمْ

مُـتْرَعُ الجَفْنَةِ رِبْعِـيُّ النَّدَى

حَسَـنٌ مَجْلِسُـهُ غـيرُ لُطَـمْ

يَجْعَـلُ الهَنْـأ عطايَـا جَمَّـةً

إنَّ بَعْـضَ المالِ فى العِـرْضِ أَمَمْ

لا يُبـالِى طَيِّـبُ النَّفْـسِ بِـهِ

تَلَـفَ المـالِ إذِ العِـرْضُ سَـلِمْ

أَجْعَـلُ المـالَ لِعِرْضِـى جُنَّةً

إنَّ خَـيْر المـالِ مـا أَدَّى الذِّمَـمْ

وقال السموأل بن عادياء (الطَّائىّ، ١٩٩٨):

إذا المَرءُ لَم يُدنَـس مِنَ اللُؤم عِرضُهُ

فَـــكُلُّ رِداءٍ يَرتَديـهِ جَميـلُ

وَإِنْ هُوَ لَم يَحمِل عَلى النَفسِ ضَيمَها

فَلَيـــسَ إلى حُسـنِ الثَنـاءِ سَـبيلُ

وقال الفِند الزِّمَّانى (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

وفــى العُــدْوانِ للعُدْوا
نِ توهــــــينٌ وإقْــرانُ
وبعضُ الحلمْ عِنْدَ الجهْـ
لِ للذلّــــــةِ إذْعــانُ
وفى الشَّــرِّ نَجَــاةٌ حِيـ
نَ لا يُنْجِيــــك إحســانُ

وقال عدىّ بن زيد العبادىّ (القرشىّ، ١٩٨١):

فَنَفْسَكَ فاحْفَظها عنِ الغَيّ والرّدى
متــى تُغوِها يَغْــوَ الّذى بِــكَ يَقْتَدِى
وإنْ كَانَتِ النّعمــاءُ عِنْدَكَ لامرِئٍ
فَمِثــلًا بهــا فاجْــزِ المُطالــبَ وازْدَدِ
إذا مــا امرُؤٌ لم يَرْجُ منــكَ هَوَادَةً
متى لا يَبِن فى اليَوْم يَصْرِمْكَ فى الغدِ

عَنِ المَرءِ لاَ تَسْـأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ

فَـكُلّ قَرِيـنٍ بالمُقَـارِنِ يَقْتَـدِى

إذا أنتَ فاكَهْـتَ الرّجالَ فلا تُلِعْ

وقُـلْ مِثْـلَ مـا قالـوا ولا تَتَزَيّـدِ

إذا أنـتَ طالَبْتَ الرّجَـالَ نَوَالُهمْ

فَعِـفَّ ولا تـأت بجَهْـدٍ فَتُنكَـدِ

سَتُدْرِكُ من ذى الفُحش حقّكَ كُلّه

بِحِلْمِـكَ فـى رِفْـقٍ وَلّـا تَشَـدَّدِ

وقال زهير بن أبى سلمى المزنىّ (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

وَمَن يَعصِ أَطرافَ الزُّجاجِ ينلنهُ

يُطيـعُ العَـوالى رُكّبَـت كلَّ لَهـذَمِ

وَمَن يوفِ لا يُذمَم وَمَن يُفضِ قَلبُهُ

إلى مُطمَئِـنِّ الـبِّرِ لا يَتَجَمجَـمِ

وَمَـنْ هَابَ أَسْـبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ

وَلَـو رامَ أَسْـبَابَ السَّـمَاءِ بِسُـلَّمِ

وَمَن يَــكُ ذا فَضلٍ فَيَبخَل بِفَضلِهِ

عَلــى قَومِــهِ يُســتَغنَ عَنــهُ وَيُذمَمِ

وَمَنْ لا يَزَلْ يَسْتَرْحِلِ النَّاسُ نَفْسَهُ

وَلَا يُعْفِهَــا يَوْمًــا مِــنَ الــذُّلِّ يَنْدَمِ

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسَبْ عَدُوًّا صَدِيقَهُ

وَمَــنْ لَا يُكَــرِّمْ نَفْسَــهُ لَا يُكَــرَّمِ

وَمَنْ لَا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ

يُهَــدَّمْ وَمَــنْ لَا يَظْلِمِ النَّــاسَ يُظْلَمِ

وَمَــنْ لَا يُصَانِعْ فِــي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ

يُضَــرَّسْ بِأَنْيَــابٍ وَيُوطَــأْ بِمَنْسِــمِ

وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ مِن دُونِ عِرْضِهِ

يَفِــرْهُ وَمَــن لَا يَتَّقِ الشَّــتْمَ يُشْــتَمِ

دراسات سابقة عن الحكمة والنَّصيحة

تطرّق عدّة باحثين للحكمة والنّصيحة بوصفهما غرضًا من أغراض الشّــعر، وإن لم يُجمع الباحثون على كونهما أغراضًا مستقلّةً، وقد

ذكر ضيف (٢٠٠٨) الحكمة فى الشّعر الجاهليّ، وبيّن أنّ معانيها محدودة وضيّقة، فلا ينحرف الشّــعراء عن تلك المعانى قيد أنملة، وأكّدت ســلمان (٢٠١٥) أنّ الشّاعر الحكيم فى الجاهليّة لعب دورًا مهمًّــا فى الإصلاح الاجتماعى، والوعــظ، وتوطيد مكارم الأخلاق، ونبذ الصّفات الســيّئة، ولكنّها نفت رأى ضيف الّذى يخصّ معانى الحكمة، وأكّدت أنّ معانيها خارج دائرة الحصر.

***

التَوجّه طويل المدى

تعريف بُعد التَوجّه طويل المدى

يفكّـر الأفراد في مجموعات ما بالماضـي والحاضر كثيرًا، بينما يوجّه أفراد مجموعات أخرى تفكيرهم نحو المستقبل، ولا يلتفتون للماضي أو يهتمّون بالحاضر بشـكل كبير، وتُعدّ هذه الفكرة جوهر بُعـد التَوجّه طويل المدى، والّذي يمكـن تعريفه بأنّه المدى الزّمني للتّخطيط وتوقّع النّتائج.

ونتيجـة لهذا الفرق في التّوجّه الخـاصّ بمدى التّخطيط وتوقّع النّتائـج، فإنّ شـخصيّة الأفـراد تتأثّر بدرجـة مجموعتهم على مقيـاس التّوجّه طويل المدى، ففي المجموعات ذات الدّرجة العالية علـى المقياس يميل الأفراد للتّوفير، والصّـبر، والمثابرة، والتّفكير الواقعي، ويملكون شـخصيّات أكثر براغماتيّة، بينما يهتمّ الأفراد في المجموعات ذات الدّرجات المنخفضة على المقياس -المجموعات ذات التّوجّه قصير المدى - بالعيش الآني، وجودة الحياة العالية، و«حفظ الوجه».

تأثير التّوجّه طويل المدى في الأسرة

في الأسـر ذات الدّرجـات العالية على مقيـاس التّوجّه طويل

المـدى، لا يتوقّع الأفراد نتائجَ ســريعة لأعمالهم، فبالتّالى يؤمنون بفكرة الاســتثمار بعيد المدى، ممّا يجعلهــم صبورين، ومثابرين، ومؤمنين بأهميّة التّوفير، ولا مانع لديهم من اســتثمارٍ طويل الأمد مثل التّعليم، فهم متمسّكون بأهدافهم ويعملون بإصرارٍ، ولا ينتظر الأبناء من آبائهم تلبية جميع رغباتهم بسرعة.

وفى هذا النّوع من الأســر، ليس هناك ثبات على تقاليد معيّنة، لأنّ التقاليد ليست إلّا جزءًا من الماضى الّذى لا يشكّل أهميّة كبيرة، فالتغيّر المناســب للمصلحة هو السّــمة الغالبة، وهذا يجعل «حفظ الوجه» ليس مهمًّا كثيرًا بقدر أهميّة المنفعة، فالزّواج مثلًا مشــروع نفعى قائم على مصلحةٍ طويلة المدى، ومفهومه وفكرته أكثر أهميّة من التّقاليــد أوالطّقوس المتّبعة لإتمامه، ســواءً فى الاختيار أو فى الإعلان.

وهذه الشخصيّات الواقعيّة تؤمن بأهميّة المحافظة على علاقات طيّبة مع النّاس، ممّــا يترتّب عليه التّحلّى بصفات ودودة ومحبّبة مثل التّواضع، والتّخلّى عن صفات مكروهة مثل محاولة فرض الرّأى أو إظهار التّفوّق على الآخرين.

أمّا على الطرف الآخر، فهناك الأسر ذات التّوجّه قصير المدى، والّتــى يتوقّع الأفراد فيها نتائجَ ســريعة لأعمالهــم، فلا يدركون كثــيرًا فكرة الاســتثمار طويل المدى -مثل التّعليــم - ممّا يجعلهم قليلــى الصّبر والمثابــرة، وكثيرى الإنفاق والاســتهلاك، وتعنيهم

جودة الحيـاة الحالية، وينتظر الأبناء الإشـباع الفورى لرغباتهم من قبل آبائهم.

والثّبات على تقاليد قديمة مهم فى هذه الأسـر، بل إنّه أهمّ من المنفعة الّتى تحيطها هذه التّقاليد، وذلك لأنّ الماضى جزء مهمّ جدًا فى تكوين شـخصيّة الأفراد، وهذا نتيجة الفكرة اللاشعوريّة الّتى تصوّر الماضى بأنّه جميل ومثالى، فبالتّالى فإنّ كلّ شـىء فيه صحيح ويُقتدى بـه، بما فى ذلك التّقاليد، وفى مقارنة مع المثال السّـابق الخاصّ بالّزواج فى الأسر ذات التوجّه طويل المدى، فإنّ الزّواج هنا مشروع قائم على التّقاليد منذ الاختيار إلى الإعلان، والتّقاليد لا تقلّ أهميّة عن غرض الزّواج نفسه.

ونتيجة لهذا المفهوم السّـائد عن أهميّـة التّقاليد واتّباعِها، فإنّ «حفظ الوجه» يعتبر ضرورة، وتتجلّى هذه الضّرورة فى المناسـبات الاجتماعيّة، وفـى وجود الآخرين، فهناك دائمًـا ضغط اجتماعى للمسـاعدة والإنفـاق، مثـل مواكبـة النّمط الاسـتهلاكى للجيران والأقارب.

وقـد يتحلّى الأفـراد بصفات منفّرة وغـير ودودة مثل الغرور، أو محاولة فرض الرأى، أو إظهار التّفوّق على الآخرين، والسّـبب هو عدم إدراك قيمة إنشـاء علاقات طويلة مع الأفراد الآخرين، أو المحافظة عليها.

الأسرة العربيَة الجاهليَة على مقياس التَوجَه طويل المدى

تقديس الماضى المتمثل بالتَقاليد ووصايا الآباء، والفخر به

وتحليل الشَعر الجاهلى يُظهِر أنَ الأسرة العربيَة فى تلك الفترة كانت ذات درجة عالية من التوجَه قصير المدى، حيث يعيش الأفراد في الماضي ويُهمَهم كلَ ما هو قديم، ويعتقدون أنَ الخير فى هذا القديم، فيقوم الآباء بتوصية الأبناء بشكل تفصيلى كما ذُكِر فى الفصل السَابق من الكتاب والخاصّ ببعد عدم التيقّن، وينفّذ الأبناء الوصايا بحذافيرها، وتتداخل عدّة أبعاد ثقافيّة فيما يخصّ الوصايا والحِكَم، فيحتاج الأبناء معرفة وجود الوصايا والحِكَم لتخفيف التوتّر والقلق والغموض، وهذا ما تمليه الدّرجة العالية من عدم التّيقّن، وينفّذ الأبناء الوصايا لأنّها جزء من الماضى المثالى -بالنّسبة للأبناء - والتّقاليد الأسريّة، و«يحفظون وجوههم»، وهذا نتيجة ارتفاع درجة التّوجّه قصير المدى، أمّا ارتفاع درجة بُعد المسافة فيصوّر الأهل على أنّهم سلطة، ويجب على الأبناء إظهار التبعيّة لهم، ومن مظاهر هذه التّبعيّة احترام وصاياهم. ذكر طرفة بن العبد القيسىّ احترامه لوصيّة أبيه، فقال (القيسىّ، ٢٠٠٢):

ومثلُ الذى أوصى به عَبْدَلُ أُمضى

قَـدَ امْضَيْتُ هـذا من وصيّـة عَبْدَلِ

وصف لبيد بن ربيعة العامرىّ أباه وأعمامه لابنه مصوّرًا الماضى

الجميل الّذى كانوا يعيشونه، قال لبيد (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أبُنىَّ هل أبْصَـرْتَ أعـ

مامــى بنــى أمّ البنينـا

وأبــى الــذى كان الأرا

ملُ فى الشّـتاء لـه قَطينا

وأبـا شَـرِيكٍ والمُنـا

زِلُ فــى المضِيــق إذا لقينا

ما إنْ رأيــتُ ولا سَمِعْـ

تُ بمثلهــمْ فــى العالَمينا

فبقيــتُ بعدَهُــمُ وكنـ

تُ بطــول صُحبتهم ضَنِينا

دَعْنى ومــا مَلَكَتْ يَمى

نى إنْ سددْتُ بها الشؤونا

وافعــلْ بمالِك مــا بدا

لــك مُســتعانًا أو مُعينــا

دراسات سابقة عن تقديس الماضى المتمثّل بالتقَاليد ووصايا الآباء، والفخر به

قــال خضــر (٢٠٠٥) عن موقف الأبنــاء من وصايــا آبائهم فى الجاهليّــة: «كان الأبنــاء يتلقّــوْن هــذه الوصايا باعتــزاز كبير، ويُصْغون إلى آبائهم، وهم يعزفون لهم هذه الألحان، فتلقّفوها سُنَنا لا يحيدون عنها، وحفظوها كأنّها أَناشيد قوميّة».

الكرم فى الأسرة

ومن ضمن العادات الأسريّة المهمّة، كانت عادة إكرام الضّيوف، والّتــى حرص الآباء على توصية أبنائهــم بها. ذكرت حبيبة بنت عبــد العُزّى وصايا وتعاليم أبيها وجدّهــا بإكرام الضّيف، وذكرت أيضًــا احترامها والتزامها بهذه التّعاليــم، قالت حبيبة (الطّائىّ، ١٩٩٨):

إنّــى وربِّ الرّاقصـــاتِ إلى مِنًــى

بجنُــوبِ مكّـــــةَ هَدْيُهُــنَّ مقلّــدُ

أُولى علــى هُلْـكِ الطَعــامِ أليَــةً

أَبــــدًا ولكـــنَــى أُبــينُ وأنشُــدُ

وصَــى بهــا جــدِّى وعلَّمنـــى أَبى

نَفْـــضَ الوعـــــاءِ وكلُّ زادٍ ينفــدُ

فَاحْفَظْ حمِيتَــكَ لا أبا لك واحترسْ

لا تخرقَنْــهُ فـــــأرة أو جُذْجُــدُ

وذكر الأعشى ميمون القيسىّ وصيّة أبيه له بإكرام الضّيف، فقال (القيسىّ، ١٩٥٠):

الضَيْــفُ أُوصِيكُمُ بالضَيْفِ إنّ لَهُ

حَقًّــا علـــىَّ فَأُعْطِيـــهِ وَأعْـتَرِفُ

وذكــر مالك بن حريــم الهمدانىّ وصيّة أبيه لــه بالكرم، فقال (البكرىّ، ١٩٧١):

أَجودُ على العانى وأحذرُ ذَمَّهُ

إذا ضَــنَّ بالمعــروفِ كلُّ بخيــلِ

بذلـك أوصاني حَريمُ بنُ مالكٍ

بـأنَّ قليـلَ الـذمِّ غـيرُ قليـلِ

كذلك فإنّ الكرم إحدى الصّفات الأساسيّة التى تُذكر فى المراثى. قـال مالك بن عُويمر المتنخِّل يرثى أبـاه، ويذكر مناقبه الّتى منها الكرم (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أبُـو مالـكٍ قاصـرٌ فقـرَهُ

علـى نفسِـهِ ومُشِـيعٌ غِنـاهْ

وقال عنترة بن شـدّاد العبسـىّ يرثى مالك بن زهير العبسـىّ، ويصفه بالكرم (الجزرىّ، ٢٠١٠):

لقد جلبـا جلبًا لمصرعِ مالكٍ

وكان كريمًـا ماجـدًا لهِجـانِ

وقد ذُكر الكرم وإكرام الضّيف فى هذا الموضع لأنّه مُنافٍ للتّوفير، وكان الكرم فى الأسرة العربيّة بهدف «حفظ الوجه» واتّباع التّقاليد، بالإضافـة إلى المُفاخرة والتّمدُّح والتّنافس كما ذُكِرَ فى بعد الذّكورة. وظهـر جليًّـا حرص عمرو بن كلثـوم التّغلبىّ علـى «حفظ وجهه» والظّهـور بمظهر جيد أمام ضيوفه بنـى الطّمّاح ودعمىّ، وهذا كان

سبب إكرامه لهم، قال عمرو (التّبريزىَ، ١٩٨٠):

أَلا أَبْلِـغْ بَنِـى الطَّمَّـاحِ عَنًّـا
وَدُعْمِيًّـا فَكَيْـــفَ وَجَدْتُمُونَـا
نَزَلْتُـمْ مَنْـزِلَ الأَضْيَـافِ مِنًّا
فَعَجَّلْنَـا القِـرَى أَنْ تَشْـتُمُونَا
قَرَيْنَاكُـمْ فَعَجَّلْنَـا قِرَاكُـمْ
قُبَيْـلَ الصُّبْـحِ مِـرْدَاةً طَحُونَـا

وعدم الإنفاق أيضًا مدعاة للهجاء. قام عامرٌ بن مالك بأسـر مَعْبَدَ بـن زُرارة التّميمىّ، فلم يفـدِ لقيط بن زُرارة أخاه بالمال ولم يحرّره من أسره، فهجا لقيطَ على فعله عدّةُ شعراء، قال شُرَيْح بن الأحوص الكلابىّ العامرىّ (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

لَقِيـطُ وأنـت امـرؤٌ ماجـدٌ
ولكـنّ حِلْمَـكَ لا يَهْتَـدِى
ولّمـا أمِنْـتَ وسـاغ الشّـرا
بُ واحتـلّ بيتُـك فـى ثَهْمَدِ

رفعتَ برِجْلَيْكَ فـوق الفِرَا

شِ تُهْـدِى القصائدَ فـى مَعْبَدِ

وأسـلمتَه عند جِـدِّ القِتَالِ

وتبخَـل بالمـالِ أن تَفْتَـدِى

وقال فى ذلك عَوْف بن عَطيّة (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

هَلّا فَوارِسَ رَحْرَحانَ هَجَوْتَهم

عُشَـرًا تَنَـاوَحُ فـى سَـرَارةِ وَادِ

لا تأكُل الإبِلُ الغِـراثُ نَباتَه

مـا إن يقـومُ عِمـادُه بعِمَـادِ

هَلاَّ كَرَرْتَ علـى أُخَيِّك مَعْبَدٍ

والعامــــرىُّ يقـودُه بصِفَـادِ

وذكرتَ من لَبَن المُحَلِّقِ شَرْبَةً

والخيـلُ تعـدو بالصِّفَاحِ بَـدَادِ

لو كنتَ إذ لا تسـتطيعُ فديتَهُ

بهِجـــانِ أُدْمٍ طـارف وتِـلادِ

لكنْ تَرَكْتَهُ فــى عَميقٍ قَعْرُها

جَــزَرًا لخامعــةٍ وطــيرِ عــوَادِ

لو كنتَ مُسْتَحِيًا لِعرْضِكَ مَرّةً

قاتلــتَ أو لَفَدَيْــتَ بــالأذوادِ

الضّغط الأسرىّ على ذوى الكرم الزّائد

والكرم يستخدم لهذه الأغراض المذكورة فقط، وليس لشيء آخر، ومن الخطأ القــول إنّ العرب فى الجاهليّة كانوا كرماءَ لأجل الكرم ذاته -لا ينفى هذا بالطّبع وجود من لا تشمله هذه القاعدة، ولكنّهم اســتثناء طبيعــى فى أىّ مجتمع - بل قد مــارس الأهل ضغطًا على أصحاب الكرم الزّائد الّذى خــرج عن أهدافه -المفاخرة، والتمدّح، واتّبــاع التّقاليد، و«حفــظ الوجه» - وقد أتى لــوم الأقارب نتيجةً لمعرفتهم أنّ للكرم أهدافًا لا يخرج عنها. اشــتكى حاتم الطّائىّ من لــوم زوجته له على كرمه الزّائد، وردّ عليها، وفى ردّه إشــارة إلى حرصــه على «حفظ الوجــه» فالمال يذهب، ويبقــى كلام النّاس عن الكريم، قال حاتم (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أمَــاوِىَّ إنَّ المــالَ غــادٍ ورَائحِ

ويَبْقى مِنَ المال الأحاديثُ والذِّكرُ

أمَــاوِىَّ إنّــى لا أقولُ لســائلٍ

إذا جــاءَ يَوْمًا حلَّ فى مالِنا النَّذْرُ

أمَــاوِىَّ إمَّــا مَانِــعٌ فمبــين

وإمّــا عطــاءٌ لا يُنهْنِهُــهُ الزَّجْرُ

أمَاوِىَّ ما يُغْنِى الثَّرَاءُ عَن الفَتَى

إذا حشرجَتْ يَوْمًا وضاقَ بِهَا الصَّدْرُ

ولم تكن زوجة حاتم هى لائمته الوحيدة، بل ســبقها جدُّه سعد إلى لومه، وجــدُّه لامه على كرمه بعد أن ذبح قطعان إبله لضيوفه، فتركه جــدّه ورحل عنــه، فقال حــاتم والتّفاخر بالكــرم مقرونًا بالشّجاعة واضح فى لهجته (شيخو، ١٩٩١):

ولى نيقةٌ فى المجـدِ والبذلِ لم تكنْ

تأنّقهــا فيمــا مضــى أحــدٌ قبلــى

وأجعــلُ مــالَى دونَ عرضــيَ جُنَّــةً

لنِفســيَ فاســتغنى بما كانَ مِــنْ فَضلي

ولى مــعَ بذلِ المــالِ والبــأسِ صَوْلَةٌ

إذا الحربُ أبــدتْ عن نواجِذِها العُصَلِ

ومــا ضَرَّنــى أنْ ســارَ سَــعْدٌ بِأهْلِهِ

وأفرَدَنــى فى الــدّارِ ليــسَ معى أهلى

وهذا الأســود بن يعفُر النهشــليّ قد ردّ على ابنته للومها كرمه الزّائد، فقال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

وقالــت لا أَراك تُلِيــقُ شــيئًا

أتُهلِــكُ مــا جَمعْــتَ وتَســتفيدُ

فقلــتُ بِحَســبِها يَسَــرٌ وعارٍ

ومُرْتَحِــلٌ إذا رَحَــل الوفــودُ

فلُومِــى إنْ بــدا لــكِ أو أفيقِى

فقَبْلَــكِ فاتَنِــى وهــو الحَمِيــدُ

أبـو العَـوْراءِ لم أَكْمَـدْ عليهِ

وقيـسٌ فاتَنـى وأخِـى يزيـدُ

مَضَوْا لِسبيلهمْ وبَقِيتُ وَحدِى

وقَـدْ يُغْنِـى رَباعتـه الوَحيـدُ

فلوْلا الشَّـامتونَ أخذْتُ حَقِّى

وإنْ كانـتْ بِمَطْلَبِـهِ كَـؤُودُ

وعانى حُطائط بن يعفُرالنَّهشـلىّ نفس المعاناة مع أمّه رُهْم بنت العَبّـاب، التى لامته على كرمه الزّائد، فـبرّر لها بأنّ الكرم مهمّ للسّـيادة -الفخر والمنافسة التى تمليها الذّكورة - وصون العرض - «حفظ الوجه» - كما أنّ الكرم لم يُنقص من طعام أحد، أو أودى بأحدٍ إلى أن يهزل ويموت، قال حُطائط (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

تقول ابنةُ العَبَّاب رُهْمُ حَرَبْتَنى

حُطائـطُ لم تَتْرُكْ لنفسـك مَقْعَدا

إذا ما جَمَعْنا صِرْمةً بعد هَجْمةٍ

تكـون علينا كابـن أُمِّك أَسـودا

فقلتُ ولم أَعْيَ الجوابَ تأمَّلى

أكان هُـزالًا حَتْفُ زيـدٍ وأَرْبَدا

أَرِينى جَوادًا مات هُزْلا لعلَّنى

أَرَى مــا تَرَيْن أو بخيــلًا مُخلَّدا

ذَرِينى أكنْ للمال ربًّا ولا يكنْ

لى المــالُ ربًّــا تَحَمــدى غِبَّه غدا

ذَرِينى فلا أعيا بما حَلَّ ساحَتى

أَسُــودُ فأُكْفَــى أو أطِيعُ المُسَــوَّدا

ذرينى يكنْ مالى لعِرْضِى وِقايةً

يَقِى المالُ عِرْضِــى قَبل أن يتبدَّدا

أجارةَ أهلى بالقَصِيْمَةِ لا يكن

علــىَّ ولم أظلِــمْ لســانُكِ مِـبْرَدا

واتّهمت زوجةُ أبو دواد الإيادىّ إيّاه أيضًا بالتّبذير، فردّ عليها قائلًا (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فــى ثلاثين ذَعْذَعتهــا حقوقٌ

أصبحــت أمُّ حَبــترٍ تشــكونى

زعمتْ لى بأنّنى أُفسدُ الما

لَ وأزَويهِ عن قضاءِ ديونى

أمَّلتُ أنْ أكونَ عبدًا لمالى

وتَهَنَّا بنافعِ المالِ دونى

وقد اشتهرت عُتبة بنت عفيف – وهى أمّ حاتم الطّائىّ – بالكرم أيضًا، إلى أن ضاق إخوتها ذرعًا بأمر كرمها، فأخذوا أموالها، ومنعوها عنها، ثمّ أعادوها بعد عدّة سنوات لها على أن لا تعود إلى التّبذير، إلّا أنّها عادت لإنفاق أموالها على النّاس، وقد برّرت عُتبة أنّ كرمها لأنّها عانت الجوع، ولا تريد لأحد معاناته – وقد خرج هذا التّبرير من الأسباب السّابقة الذّكر للكرم، إلّا أنّه يعدّ استثناء لقلّة من استخدموه – فقالت (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

لعَمْرِى لَقِدْمًا عضّنى الجوعُ عَضّةً

فآلَيْتُ ألّا أمنَعَ الدَّهْرَ جائِعا

فقُولا لهذا اللائمى اليومَ أعفِنى

فإنْ أنْتَ لم تفعَلْ فعَضّ الأصابِعَا

فماذا عساكم أن تقُولُوا لأختكم

سِوَى عَذْلِكم أو عَذْلِ مَنْ كان مانِعا

ومــاذا تــرَوْنَ اليــومَ إلّا طبيعةً

فكيــف بتَرْكــى يابْــنَ أُمِّ الطَّبَائعا

وقد رفض مالك بن جبّار الطّائىّ مســاعدة ابن عمّه حاتم الطائىّ فى تنافسه على الكرم مع بنى لأم، قال حاتم (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

يا مالِ إحدى صروف الدّهرِ قد طرقتْ

يــا مــالِ مــا أنْتُــمُ عنهــا بزحــزاحِ

يــا مالِ جــاءت حياضُ المــوتِ واردةً

مــن بــين غمــرٍ فخضنــاه وضحضــاحِ

فردّ عليه مالك وقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

إنّــا بَنُو عمّكــم لا أنْ نُبَاعِلكم

ولا نجاوِركــم إلّا علــى نَــاحِ

وقــد بلَوتُك إذ نلْتَ الثراءَ فلم

ألقــكَ بالمــالِ إلّا غــير مرتــاحِ

وقد عدّد طرفة بن العبد القيسىّ الأسباب الّتى أودت إلى خلاف بينه وبين عشيرته، وكان منها الإنفاق الزّائد، قال طرفة (القيسىّ، ٢٠٠٢):

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الخُمُورَ وَلَذَّتِي

وبَيْعِي وإِنْفَاقِي طَرِيْفِي ومُتْلَدِي

إِلَى أنْ تَحَامَتْنِي العَشِيْرَةُ كُلُّهَا

وأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيْرِ المُعَبَّدِ

رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لاَ يُنْكِرُونَنِي

وَلاَ أَهْلُ هَذَاكَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ

أَلاَ أَيُّهذا اللاّئمي أحضرِ الوَغَى

وَأَنْ أَشْهَدِ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي

فإِنْ كُنْتَ لاَ تَسْطِيْعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي

فَدَعْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

دراسات سابقة عن الضّغط الأسرى على ذوى الكرم الزّائد

تطرّقت على (٢٠١٣) إلى محاولة العاذلة في الجاهليّة ثنيَ الكريم عن كرمه، واستخدامها الحجج الّتى تصبّ في اتّجاه التأثير السّلبى للكرم على موارد الأسرة ومستوى حياتها، وأكّدت الباحثة على قوّة الضّغط الكبيرة الّتى مارستها العاذلة، ولكنّ الباحثة وصلت إلى نتيجة مفادها أنّ خصلة الكرم الرّاسخة في نفس الكريم

تفوّقت على لوم العاذلة، واستمرّ الكريم فى كرمه.

وصايا الأهل بمساعدة النّاس

ووصايـا الأهـل أيضًا تدلّ علـى أنّ الفرد فـى الجاهليّة لم يكن براجماتيًّـا نفعيًّا، بل كان مأمورًا بمسـاعدة الآخريـن. أوصى ذو الإصبع العدوانىّ ابنه باستخدام ماله بما يعود بالخير على النّاس، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أأُسَـيْدُ إنْ مـالاً مَلَكْـ

تَ فَسِـرْ بِـهِ سَـيْرًا جَمِيْلا

وأوصـى لبيد بـن ربيعة العامـرىّ ابنه بنفـس الوصيّة، فقال (العامرىّ، ٢٠٠٤):

وَافعَـل بِمالِـكَ مـا بَدا

لَـكَ إنْ مُعانًـا أَو مُعينـا

وأوصي أبو قيس بن الأسـلت ابنه قيس بالإحسان للفقير، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

أقيسُ إن هلكتُ وأنتَ حيٌّ

فـلا تعـدَمْ مُواصَلـةَ الفَقـيرِ

وذكـــر عمرو بن معد يكرب الزبيدىّ وصايا أبيه له بالحفاظ على ما ورثه من المجد بفعل الخير وترك الأخلاق السّيئة، قال عمرو (الزبيدىّ، ١٩٨٥):

إنّى حَوَيْتُ على الأقوام مَكْرُمَةً

قِدْمًـا وحَذَّرَنِــى ما يَتَّقُــونَ أبِى

فقــال لى قولَ ذى رأيٍ ومَقدِرةٍ

مُجَــرِّبٍ عاقِــلٍ نزهٍ عَــنِ الريبِ

قد نِلْتَ مجدًا فحاذِرْ أنْ تُدَنِّسَهُ

أبٌ كريــمٌ وجَــدٌ غيرُ مُؤْتَشَــبِ

أمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرتَ بهِ

فَقَــدْ تَرَكْتُــكَ ذَا مَالٍ وذَا نَشَــبِ

واتْرُكْ خَلائِقَ قَوْمٍ لا خَلاقَ لَهُمْ

واعْمَدْ لأخْلاقِ أهلِ الفَضْلِ والأدَبِ

وإن دُعِيــتَ لغدرٍ أو أُمِرْتَ بهِ

فاهرُبْ بنفسِــكَ عنه آبِدَ الهَرَبِ

وأوصت ســبيعة بنت الأحبّ النّصريّة ابنها بحفظ محارم مكّة،

وعدم الظَّلم فيها، فقالت (المعافرىَ، ١٩٩٠):

أَبُنَــى لا تظلــمْ بمكَة

لا الصَّغـيَر ولا الكبـْير

واحفــظْ محارمها بُنَىَّ

ولا يَغُرَّنْــك الغـــــرورْ

أَبــنيَّ مَنْ يظلــمْ بمكَةَ

يَلْــقَ أَطــراف الشَّـــرورْ

تأثير التَوجَه طويل المدى فى المجتمع

ودرجة مجتمع مــا على مقياس بعد التَوجَــه طويل المدى تؤثَر علــى علاقة الأفرأد ببعضهم البعض، فالأفراد فى المجتمعات ذات التَوجَه طويل المدى لا يتمسَــكون كثيرًا بعاداتهــم وتقاليدهم، بل يُخضعونهــا لمنفعتهم، حيث المنفعة أهمّ مــن التَقيّد بالتَقاليد، فلا يتعامل الأفراد مــع مجتمعهم بمقياس عاطفى، بل بمقياس عقلى، يســمح لهم بانتقاد المجتمع ورمــوزه وماضيه فى حال عدم تحقيق المنفعــة، فبالتَالى فإنّ الفخــر بالمجتمع ليس أعمــى، والتَعلّم من المجتمعات الأخرى وارد ومقبول.

يتَصــف الأفــراد بالمثابــرة، وهى العامــل الأساســى للنَجاح،

ويؤمنـــون بتوفير المال من أجل مســـتقبل أفضـــل، وليس هناك ميل لمســاعدة الآخرين اتّباعًا لتقاليد معيّنة فقط، بل تتّصف الشّخصيّات بالبراغماتيّـــة، وأكّـــد هوفســـتيد Hofstede (٢٠١١) إلى وجود علاقة طرديّة بين درجة بعد التوجّه طويل المدى والنّموّ الاقتصادى للمجتمع أو الدّولة.

أمّـــا المجتمعـــات ذات التّوجّـــه قصير المـــدى، ففيهـــا الأفراد متمسّـــكون بعاداتهم وتقاليدهم بشكل كبير، وهذا التّمسّك مصدره الأساســـى فخـــر الأفراد بماضيهـــم، واعتبار كلّ شـــىء فيه جميلًا ومثاليًّـــا، فبالتّالى يجب تقليده، وهو فخـــر عاطفى، وليس خاضعًا لمقاييس عقليّـــة، وينطوى عليه تعظيم المجتمـــع وقادته ورموزه، ورفض التعلّم من المجتمعات الأخـــرى أو التّأثّر بها، والأصوليّة، والتعصّب، وتناقل الحِكَم والأمثال بكثرة لإنّها جزء من الماضى.

لا يتّصف الأفراد بالمثابرة ولا الصّبر، وغالبًا ما يعزون نجاحهم أو فشـــلهم للحظّ أو لعوامل خارجيّة كنوع من التّبرير النّفسى لعدم أهميّة الصّبر والمثابرة، ويتّصفون بمســـاعدة الآخرين، والإنفاق غير المحسوب، وغالبًا ما تكون هذه الصّفات لـ «حفظ الوجه».

المجتمع العربىّ الجاهلىّ على مقياس التّوجّه طويل المدى

اتّباع العادات والتّقاليد القبليّة

والتّأمّل فى الشّعر الجاهلىّ يعطى إشارة واضحة بميل المجتمع

الجاهلـيّ لدرجة عاليـة من التوجّـه قصير المدى، وهـذا منطقي ومنسجم مع ميل الأسرة لتلك الدّرجة، إذ أنّ الأسرة هى نواة تَشكُّل ثقافة الأفراد، ومنها ينطلقون لمجتمعاتهم حاملين ما تعوّدوا عليه فى أسرهم.

ذكـر لبيد بـن ربيعة العامـرىّ مفتخـرًا التزام أفـراد قبيلته بالعادات والتّقاليد التى توارثوها، فمصدرها سـادات لا يخطؤون، وهم بناة مجد قديم، فقال لبيد (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

مِنْ معشـرٍ سـنَّتْ لهمْ آباؤهُمْ
ولـكلِّ قـوم سُـنَّةٌ وإمامُهَـا
أنْ يَفْزَعُـوا تُلْقَ المَغَافِرُ عِنْدَهُمْ
وَالسِّـنُّ يَلْمَـعُ كَالكَوَاكِـبِ لاَمُهَا
لا يَطبَعونَ وَلا يَبـورُ فَعالُهُم
إذ لا يَميـلُ مَعَ الهَـوى أحلامُها
فبنـوْا لنا بيتًـا رفيعًا سمكُهُ
فَسَما إليـهِ كَهْلُهَـا وَغُلامُهـا

وقد تمّ مناقشـة الفخـر القبلـى بالتّفصيل فـى الفصل الخاصّ بالفرديّة، ونذكر منها على سبيل المثال أبيات عبيد بن عبد العزّى

الذى افتخر بقومه بنى سلامان بن مفرّج فقال (البغدادىّ، ١٩٩٩):

لَنا الغُرَفُ العُليا من المَجدِ وَالعُلى
ظَفِرنا بِها وَالنّاسُ بعدُ توابعُ

لَنا جَبَلا عِزٍّ قَديمٌ بناهُما
تَليعانِ لا يألوهُما من يُتالِعُ

فَكَم وافدٍ منّا شَريفٌ مَقامُه
وَكَم حافِظٍ للقِرنِ والقِرنُ وادعُ

وَمن مُطعِمٍ يَومَ الصَبا غَيرَ جامِدٍ
إِذا شَصّ عَن أَبنائِهِنّ المَراضِعُ

يُشَرِّفُ أَقوامًا سِوانا ثيابُنا
وَتَبقى لَهم أَن يَلبسوها سَمايِعُ

إِذا نَحنُ ذارَعنا إِلى المَجدِ وَالعُلى
قَبيلًا فَما يسطيعُنا من يُذارِعُ

وَمنّا بنو ماءِ السّماءِ وَمُنذِرٌ
وَجفنَةُ منّا وَالقرومُ النزايِعُ

قَبائِلُ من غَسّانَ تَسمو بعامِرٍ

إذا أنتسبَت والأزدُ بعدُ الجَوامعُ

أدانَ لَنا النُعمانُ قَيسًا وَخِندِفًا

أدانَ وَلَم يمنع ربيعةَ مانِعُ

الكرم فى القبيلة

كذلك فقد تميّز الأفراد فى القبيلة بالكرم، وكان هذا لنفس الأسباب المذكورة سابقًا فى الأسرة -التّفاخر و«حفظ الوجه» - قال امرؤ القيس الكندىّ فى إنفاق ماله من أجل الحصول على المجد (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

ولو أنَّ ما أسعَى لأدنى معيشةٍ

كفانى ولم أطلبْ قليلٌ من المالِ

ولكنَّما أسعَى لمجدٍ مؤثَّلٍ

وقد يدركُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالى

وقال السّموأل الحارثىّ يصف قومه بالكرم ومفتخرًا فيهم (الطّائىّ، ١٩٦٩):

فَنَحنُ كَماءِ المُزنِ ما فى نِصابِنا

كَهـامٌ وَلا فينـا يُعَـدُّ بَخيـلُ

فلـم يكن توفير المال غاية عند الأفـراد الكرماء، على الرغم من وصول بعضهم لنتيجة أنّ التّوفير مهمّ لضمان مستقبل أفضل، ولكنّ أشياءَ أخرى أهمّ – المجد و«حفظ الوجه». ذكر علقمة الفحل التّميمىّ أنّ البخل أدوم لمـال الرّجل ولكنّ صاحبه مذموم، فقال (الهاشمىّ، ١٩٦٨):

والجـودُ نافِيَةٌ لِلمـالِ مُهْلِكَةٌ

والبُخـلُ مبـقٍ لأهليـهِ ومذمومُ

وقال الشّنفرى الأزدىّ فى نفس المعنى (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

وأُعـدمُ أحْيانًا وأُغنـى وإنّما

ينالُ الغِنـى ذو البُعْـدَةِ المتبذِّلُ

وإنفاق المال فى الخير يستوجب المديح. مدح زهير بن أبى سلمى المزنـىّ هرمَ بن سـنان المرّى والحارثَ بن عـوف المرّى، حين دفعا ديّـات القتلى فى داحس والغبراء من مالهما الخاصّ، وأوقفا حرب أبناء عمومتهم عبس وذبيان، قال زهير (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

تَدارَكتُما عَبسًا وَذُبيانَ بَعدَما

تَفانـــوا وَدَقّوا بَينَهُم عِطرَ مَنشِــمِ

وَقَد قُلتُما إِن نُدرِكِ السِلمَ واسِعًا

بِمــالٍ وَمَعروفٍ مِنَ الأَمرِ نَســلَمِ

وقال أيضًا يمدح بنى مرّة قوم هرم بن ســنان والحارث بن عوف واصفًا إيّاهم بالكرم (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

عَلَــى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِم

وعنــدَ المُقلّــينَ السَّـمَاحَةُ والبَــذْلُ

وقال الأعشــى ميمون القيســىّ يمدح المُحلّق بــن خنتم بالكرم (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

تَرَى الجُودَ يَجرِى ظاهرًا فوْقَ وَجهِهِ

كمَـا زَانَ مَـتنَ الهِندُوَانــىّ رَوْنَــقُ

يــداكَ يــدا صــدقٍ فكــفٌّ مبيــدةٌ

وأخــرى إذا مــا ضــنّ بالمــالِ تنفــقُ

والبخل مبغوض، ومدعاة للهجاء، فبالتّالى فإنّ الأفراد يمارسون

ضغطًا على بعضهم للكرم، فيساعد الفرد الآخرين «حفظًا لوجهه»، وهذا سـبب أساسـيّ للكرم، قال طرفة بن العبد البكريّ فى هجاء البخيل (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

أرى قَـبرَ نَحّـام بَخيـلٍ بمالِهِ
كَقَـبرِ غَـوِىٍّ فـى البَطالَةِ مُفسِـدِ

تَرى جُثْوَتَينِ من تُرَابٍ عَلَيهما
صَفائِـحُ صُـمٌّ مِـن صَفيـحٍ مُنَضَّـدِ

وقـد أكّد عدىّ بن زيـد العبّادىّ على ضغط النّـاس على بعضها للكرم، فهى تذلّ البخيل وتبغضه، قال عدىّ (القرشىّ، ١٩٨١):

وللخَلقِ إذلالٌ لِـمَـنْ كَانَ باخِلا
ضَنينًـا وَمَنْ يَبْخَلْ يُـذَلّ ويُزْهَدِ

وللبَخلَـةِ الأُولَى لِمَن كانَ بَاخِلا
أُعفُ ومَـن يَبْخَـلْ يُلَـمْ وَيُزْهَدِ

وأبـدَتْ لِى الأيّـامُ والدّهْرُ أنَهُ
وَلَوْ حَبّ مَن لا يُصلحِ المالَ يُفْسِـدِ

دراسات سابقة عن الكرم فى القبيلة

خالـف هذا الفصل مـا جاء به عدّة باحثين عن أسـباب ودوافع الكرم، فقد ذكر طقّوش (٢٠٠٩) مثلًا أنّ الكرم فى الجاهليّة هو رد فعل إيجابى على قسـوة الحياة، وعدّد مجموعة من مظاهر الكرم، وأكّد ضيـف (٢٠٠٨) أنّ الكرم هو أهمّ صفـة من صفات العرب فى الجاهليّة، وسـببها جدب حياة الصحراء القاسية، وقد ذهبت على (٢٠١٣) إلى أنّ الكرم شـكّل قيمة إنسـانيّة واجتماعيّة رافقت عدّة قيم اتّسـمت بها الشخصيّة العربيّة الجاهليّة مثل الشّجاعة والوفاء والأمانـة والصّدق والنّجدة، بل وتجاوز معنـى الكرم عند الباحثة إلى معانٍ أوسع ليشمل المروءة والإباء والصّبر على الدّنيّة، ويخالف البخل ودناءة النّفس.

والباحثون السّـابقون وإن ذهبوا إلى أسباب مختلفة للكرم -على الرّغم أنّهم لم يجيئوا بمنهج علمى لبحث هذه الأسباب، بل ذكروا آرائهم الشـخصيّة، أو ما تعارف عليه الباحثون السّـابقون - إلّا أنهـم ذكروا صراحةً تمدُّح العرب بـه، أوتجنُّب الهجاء بالبخل، وهى الإشارات الواضحة على علاقة الكرم بارتفاع درجات الذّكورة والتّوجّـه قصير المـدى، فقال طقّوش (٢٠٠٩) عـن الجاهلىّ مثلًا: «فكان يتباهي بكثرة الضيوف، وذبح الإبل وإطعامها للمحتاجين»، وقال أيضًا: «ومن أسـباب الهجاء عند الشعراء فى الجاهلية إطفاء

النار عندما تستنبح الأضياف الكلاب»، وقال ضيف (٢٠٠٨) يصف الجاهليّين: «ومن سننهم أنّهم كانوا يوقدون النار ليلًا على الكثبان والجبال، ليهتدى إليهم التائهون والضالون فى الفيافى، فإذا وفدوا عليهم أمّنوهم حتى لو كانوا من عدوهم. ويدور فى شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين»، وقالت على (٢٠١٣): «ومن الغايات التى قصد الكريم الوصول إليها، كانت اكتساب الحمد والثناء، فالكرم هو وسيلة للذّات الطامحة إلى بلوغ المجد، والفوز بالحمد والإشادة، وفى تحقيق هذه الغاية ما يضمن الوجود المثبّت للذّات، والحضور القوى فى محيطها المجتمعى» وقالت أيضًا: «ولم يَفُتِ الشعراء الجاهليين، ولا سيّما ممّن عرفوا بالكرم، الحديث عمّا يجلبه البخل للذّات من ذمّ، ينتقص من هيبتها الاجتماعيّة، ويقلّل من رصيدها الإنسانى عند الآخر».

أمّا على (١٩٩٣) فقد نفى صفة الكرم عن الأعراب عامّة فى الجاهليّة، ووصفهم بـ «الماديّة المفرطة».

المروءة

ويساعد أفراد القبيلة الجاهليّة بعضهم البعض، قال عبيد بن الأبرص الأسدىّ موصيًا بالمساعدة فى أىّ مكان (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

سَـاعِد بِأَرضٍ إذا كنتَ بهَا

وَلا تَقُـل إنَّنِـى غَريــــبُ

قَد يوصَلُ النَّازِحُ النَّائى وَقَدْ

يُقطَـعُ ذو السُـهمَةِ القَريـبُ

فلـم يكن الأفراد فى الجاهليّــة براجماتيّين نفعيّين، قال حاتم الطّائـىّ يصف نفســه بالأخلاق الحســنة الثّابتة الّتــى لا تغيّرها الأحوال والمنافع (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

فأقسمتُ لا أمشى على سرِّ جارتى

يَـدَ الدَّهْـرِ مـا دامَ الحَمـامُ يغرِّدُ

ولا أشْـتِرى مـالًا بِغَـدْرٍ علِمْتُهُ

ألاَ كُلُّ مَـالٍ خالـطَ الغَـدْرَ أنْكَـدُ

إذا كان بعـضُ المالِ ربًّـا لأهْلِهِ

فإنّـى بحمـدِ اللهِ مَـالِى مُعَبَّـدُ

يُفَـكُّ به العانِـى ويُـؤكل طيِّبًا

ويُعطَـى إذا ضَـنَّ البخيـل المُصَرَّدُ

إذا مـا البخيلُ الخِبُّ أخْمَد نارَه

أقـولُ لِمَـنْ يصْلَـى بنـارِىَ أوْقِدُوا

توسَّـعْ قليلًا أو يكن ثَمَّ حَسْـبُنَا

ومُوقدهـا البـادِى أعَـفُّ وأحمـدُ

كذاك أمُـورُ النـاسِ رَاضٍ دَنِيَّةً

وسـام إلى فَـرْعِ العُـلا مُتَـوَرِّدُ

فمنهـم جـوادٌ قد تلفَّـت حَوْلَهُ

ومنهـمْ لئيـمٌ دائـمُ الطـرفِ أقْوَدُ

وَدَاعٍ دَعانـى دَعْـوةً فأجَبْتُـه

وهـل يَـدَعُ الدّاعِـين إلا اليَلَنْـددُ

علـى الرّغم من هذه الوصايا بالمـروءة والنجدة، إلّا أنّ هناك من رأى أنّ الأفـراد فـى المجتمع لم يتّصفوا بهـا، قال أوس بن حجر المازنىّ التّميمىّ يشكو من قلّة خير النّاس فى المجتمع (الدّينورىّ، ١٩٥٨):

وإنى رَأَيْتُ النّـاسَ إلاَّ أَقَلَّهُمْ

خِفَافَ العُهُودِ يُكْثِـرُونَ التَّنَقُّلاَ

بَنِى أُمِّ ذِى المالِ الكَثيرِ يَرَوْنَهُ

وإنْ كان عَبْدًا سَـيدَ الأَمْرِ جَحْفَلاَ

دراسات سابقة عن المروءة

ذهبـت علـى (٢٠١٣) إلى وجود صفـة المروءة فـى العرب فى الجاهليّـة، وإغاثة المحتاج والملهوف، بينما رأى على (١٩٩٣) أنّ مساعدة الآخرين لم تكن موجودة أبدًا فى عرب الجاهليّة، بل كانوا يقطعـون الطّريق وينهبون القوافل ويقتلون من أجل المال، كما كانوا ينقلبون على أحلافهم من أجل مصالحهم.

المثابرة والصّبر

والمجتمع الجاهلىّ يحمل درجة عالية من التّوجه قصير المدى، ولكنّه ليس على الطرف المطلق منه، فبالإضافة إلى ما سـبق من ذكر مظاهـر الدّرجة العالية من التوجّه قصير المدى، إلّا أنّ هناك بعض المظاهـر الأساسـيّة التى تُعدّ من مظاهر التوجّـه طويل المدى، مثل المثابـرة والصّبر. ذكر امـرؤ القيس الكندىّ رحلتـه ومثابرته فى الحياة، فقال (الكندىّ، ٢٠٠٤):

ألم أنـضُ المطـيَ بـكلّ خرقٍ

أمَـقَ الطُّـولِ لَمَّـاعِ السَّـرابِ

وأركبُ في اللُّهام المجرِ حتّى

أنـالَ مـآكِلَ القُحَـمِ الرِّغـابِ

وكُلُّ مَـكارِمِ الأَخْلاقِ صارَتْ

إلَيْـهِ هِمَّتـي وَبِـهِ اكتِسـابي

وقد طَوَّفْتُ فـي الآفاقِ حَتَّى

رضيـتُ مِـن الغنيمـةِ بالإيابِ

ودعا عدىّ بن زيد العبّادىّ للسّعي والعمل الجادّ، فقال (القرشىّ، ١٩٨١):

وَلا تَقعُدَن عَن سَعيٍ ما قَد وَرِثتَهُ

وَما اسطَعتَ مِن خَيرٍ لِنَفسِكَ فَازدَدِ

وأكّـد لبيد بن ربيعة العامرىّ على أهميّة العزم لإنجاح الأمور، فقال (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

رَجَعَا بأمرهما إلى ذى مِرَّةٍ

حصدٍ ونجحُ صريمةٍ إبرامُهَا

والشّعراء الصّعاليك كوّنوا مجتمعًا مختلفًا يميل لدرجات أعلى من الفرديّة كما ذُكر سابقًا، فكان من الطّبيعى الدّعوة إلى المثابرة والسّعى لطلب الرّزق، فهى الصّفات الّتى تميّز فردًا عن آخر، وليس النّسب. خاطب عروة بن الورد العبسىّ -مُشرّع ومنظّر مجتمع الصّعاليك- زوجَته فى ضرورة السّعى للغنى، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

دعِينى للغنى أسعى فإنّى

رأيتُ الناسَ شرُّهمُ الفقيرُ

وقال أيضًا فى أهميّة السّعى الجادّ (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

لعلّ ارتيادى فى البلادِ وبُغيَتى

وشدّى حيازيمَ المطيّة بالرّحْلِ

سيدفعنى يومًا إلى ربِّ هجمةٍ

يدافِعُ عنها بالعقوقِ وبالبُخلِ

وذكر أيضًا صفات الصّعلوك القدوة، والّتى يتمنّى أن يراها فى كلّ

الصعاليك، ومنها العمل الجادّ (العبسيّ، ١٩٩٨):

لحى اللهُّ صُعلوكًا إذا جَنّ ليلُهُ
مصافي المشاشِ آلفًا كلَّ مجزرِ
يَعُدّ الغِنى من نفسِهِ كلّ ليلةٍ
أصابَ قِراها من صَديقٍ ميسَّرِ
ينامُ عِشاءً ثم يصبحُ ناعسًا
يَحُتّ الحَصى عن جنبِهِ المتعفّرِ
قليلُ التماسِ الزّادِ إلاّ لنفسِهِ
إذا هو أمسَى كالعريشِ المجوَّرِ
يُعينُ نِساءَ الحيِّ ما يَستعِنّهُ
ويُمسي طليحًا كالبعيرِ المحسَّرِ
ولكنّ صعلوكًا صفيحةُ وجههِ
كضَوءِ شِهابِ القابسِ المتنوِّرِ
مُطِلًّا على أعدائِهِ يَزجرونَه
بساحتِهم زَجرَ المَنيحِ المشهَّرِ

إذا بَعُـدوا لا يأمنون اقترابَه

تشـوُّفَ أهـلِ الغائـبِ المتنظَّـرِ

فذلـكَ إنْ يلـقَ المنيَّـةَ يَلْقَها

حميدًا وإنْ يَسـتَغنِ يومًا فأجدِرِ

وقـد ظهر من يدعـو للقناعة والرّضـا، فهذا الأضبـط بن قُريْع التّميمـيّ قد دعا للرّضا بقسـمة الدّهر، ولكنّه لم يحدد إن كان رضا وتكاسلا، أم رضا وعملا، قال الأضبط (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

فاقْبَـلْ من الدّهرِ مـا أتاكَ بهِ

مَـنْ قـرَّ عينًـا بعيشِـهِ نفعـهْ

وذكر عدّة شـعراء الصّبر أيضًا، وهو مـن أهمّ صفات الأفراد في المجتمعـات ذات التوجّه طويل المدى، قال زهير بن جَناب الكلبيّ في حرب له على غطفان (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

ولـولا صبرُنـا يـوم التَقَيْنـا

لَقِينَـا مِثـلَ مـا لقيـتْ صُـدَاءُ

غَـداةَ تَعرّضوا لِبَنـي بغِيضٍ

وصِـدْقُ الطّعـن للنَّوْكـى شِـفاءُ

وقـال كعب جِدار الفهمـيّ – وهو أخو تأبّط شـرًّا – في إحدى غارات الصّعاليك يدعوهم للصّبر (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

يا قوم أمَّـا إذا لَقِيتم فاصْبِرُوا

ولا تَخِيمُـوا جزَعًـا فتُدْبِـروا

ودعا قيس بن زهير العبسـيّ إلى عدم استعجال الأمور، وانتظار النّتائج البعيدة، وهذا أسـاس وجوهـر الدّرجة العالية من التّوجّه طويل المدى، قال قيس (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

ولا تَعْجَـلْ بأمركَ واسـتَدِمْهُ

فما صلَّـى عصـاكَ كمسـتديمِ

دراسات سابقة عن المثابرة والصّبر

ذكر علي (١٩٩٣) أنّ الحياة في الجاهليّة كانت بسـيطة وبطيئة إلى أقصـى حدّ، فلـم يكن الرّجل يعمـل إلّا في رعايـة الإبل، فهو عمل بسـيط ولا يتطلّب مجهودًا، وأكّـد الباحث أيضًا احتقار العرب لأهل الحرف، بل ورفضهم النّسـب معهم، كمـا قارن الباحث بين

حياة الرّجل والمرأة، ووصل إلى نتيجة مفادها أنَّ المرأة أكثر نشــاطًا، ومنوط بها مســؤوليّات وواجبات أكثر من الرّجل، مثل رعاية الأبناء وتحضير الطّعام، بالإضافة لبعض المهن مثل الغَزْل.

***

التَساهل

تعريف ببُعد التَساهل

يتَصف الأفراد فى مجموعــات ما بالأريحيَة العالية فى التَعبير عن المــرح والســعادة، وإعطائها وقتــا وأولويَة فى الحيــاة، بينما يشــعر أفراد آخرون بضغوطات اجتماعيَة تحدَ مــن هذه الأريحيَة علــى التَعبير، وقد حــاول باحثون كُثر ربط درجــة هذه الأريحيَة بمتغيَرات ديموجرافيَة مثل العمر، أو أخرى اقتصاديَة مثل مستوى الدَخل، إلَا أنَ هذه المتغيَرات أثبتت تأثيرات ضعيفة أو معدومة فى الكثير من الدَراســات، وحديثًا بدأ الحديث فــى الأدب عن عوامل ثقافيَــة تؤثَر فــى القدرة علــى التَعبير عن المرح والســعادة، وهذه العوامل شكَلت البعد السَادس من عوامل الثَقافة، وهو بعد التَساهل.

فبالتَــالى مــن الممكــن تعريف بعد التَســاهل على أنَه مســتوى الأريحيَة الذى توفَره الثَقافة للتعبير عن المرح والسَعادة، أو درجة الميل العالى فى مجموعة ما لإشــباع الرَغبات الأساســية والطبيعيَة المرتبطة بالمتعة والمــرح، والتَعبير عنها بدون قيود اجتماعيَة، أمَا الدَرجة المنخفضة من التَساهل فتُسمَى التَحفَظ، والَذى يمكن تعريفه على أنَــه الدَرجة العالية مــن كبح وتنظيم التَعبــير عن الفرح فى مجموعة ما، أو درجة الضَغط على أريحيَة التَعبير عن المرح والمتعة.

تأثير التّساهل فى الأسرة والمجتمع

ولهذا البعد تأثير على علاقة الأفراد ببعضهم البعض فى أسرهم ومجتمعاتهم - شأنه شأن الأبعاد الثّقافيّة الأخرى - ولم يتمّ الفصل بين الأسرة والمجتمع فى هذا الفصل نظرًا لحداثة هذا البعد فى الأدب، وعدم وجود الدّراسات الكافية عليه، ممّا يحيطه ببعض الغموض، وعدم القدرة على الفصل فى كلّ المظاهر.

فى الأسر والمجتمعات ذات الدّرجة العالية من التّساهل، يتمتّع الأفراد بمستويات عالية من السّعادة والتّفاؤل، ويميلون لتذكّر الأحداث المفرحة فى حياتهم، ويملكون حقّ التّعبير عن الفرح بشكل خاصّ والمشاعر بشكل عامّ، فيستطيعون التّعبير عن فرحهم دون قيود اجتماعيّة، ولديهم الحقّ فى الحصول على وقت ومال كافيين للمتعة، ممّا يزيد من انتشار النّوادى الرّياضيّة والتّرفيهيّة مثلًا، والعلاقات بين الجنسين أيضًا سهلة ومتاحة وليس عليها قيود اجتماعيّة، فيكثر اختلاط الجنسين فى المدارس والجامعات والنّوادى والأماكن العامّة، كذلك فإنّ نسب شرب الكحول وتعاطى المخدرات أعلى من معدّلاتها فى المجتمعات الأخرى.

على الطرف الآخر، هناك الأسر والمجتمعات ذات الدّرجة العالية من التحفّظ، حيث يُفرَض على الأفراد عدّة قيود أخلاقيّة واجتماعيّة تخصّ التعبير عن الفرح، والمشاعر الإيجابيّة أو

السلبيّة، ويميل الأفراد إلى تذكّر المشاعر السلبيّة وليس من الضّرورى تخصيص وقت للمتعة، فليس لها أهميّة أو أولويّة كبيرة، والعلاقات بين الجنسين تتّسم بالتّحفّظ، وتقلّ نسب شرب الكحول وتعاطى المخدرات عن معدلاتها فى المجتمعات الأخرى.

المجتمع العربىّ الجاهلىّ على مقياس التّساهل

لم يتمّ العثور فى الشّعر الجاهلى على وصايا آباء لأبنائهم، أو ما يشير بشكل أو بآخر إلى درجة معيّنة للأسرة الجاهليّة على هذا البعد، ولكنّ تحليل الشّعر يدل على درجة متوسّطة من التّساهل فى المجتمع الجاهلىّ، وهذه الدّرجة تشكّلت من تعدّد المظاهر وتباينها، حيث تواجدت فى المجتمع مظاهر تدلّ على التّساهل وأخرى تشير إلى التّحفّظ، وسنبدأ بذكر مظاهر التّحفّظ.

الجدّيّة وعدم المزاح

أشار عدىّ بن زيد العبّادى إلى ضغوط اجتماعيّة على المرح حين أوصى بعدم المزاح أو إبداء الرّأى فى مجالس الرّجال، فقد رأى أنّ المزاح يقلّل من شأن صاحبه، ويُسفّه رأيَه حتّى لو كان صائبًا، قال عدىّ (العبّادى، ١٩٦٥):

إذا أَنْتَ فاكَهْتَ الرّجالَ فلا تَلَعْ

وَقُلْ مثْلَ ما قالوا ولا تتزنّدِ

إذا أنتَ طالَبْتَ الرّجَالَ نَوَالُهمْ

فَعِــفَّ ولا تــأت بجَهْــدٍ فَتُنكَدِ

وإيّــاكَ مِنْ فَــرْطِ المُــزاحِ فإنّهُ

جديــرٌ بتســفيهِ الحليمِ المُسَــدّدِ

دراسات سابقة عن الجدّيّة وعدم المزاح

رأى علــى (١٩٩٣) أنّ العرب فى الجاهليّة لم يميلوا إلى الدّعابة والضّحــك وكانوا يــرون فيها ما يخالف المروءة، ولا تليق بإنســان كريم، بل كانوا يميلون للعُبوس والصّرامة.

الحزن

كما أنّ نبرة الحزن فى الشّعر الجاهلىّ عالية، والأمثلة على ذلك كثيرة، قال الحارث بن حلّزة اليشكرىّ (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

مَنْ حاكــمٌ بينى وبيــ

ـنَ الدَّهْــرِ مالَ علىّ عَمْدًا

أودَى بســادَتِنا وقــدْ

تركوا لنــا حَلَقًا وجُرْدا

خيلي وفارسُها ورَبِّ

أبيــكَ كانَ أعــزَّ فقــدا

وقال مُضاض بن عمرو الجرهميّ (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

يا أيُّها الحيُّ سِيرُوا إنَّ قَصْرَكُمُ

أنْ تُصبِحوا ذاتَ يومٍ لا تسيرونا

إنّــا كمــا أنتُــمُ كُنّــا فغَيَّرنَا

دهرٌ بصَــرْفٍ كما صِرْنا تصيرونا

أزجوا المطيَّ وأرخُوا من أزِمَّتها

قَبْــلَ المــاتِ وقَضُّوا مــا تُقَضُّونا

قد مالَ دهــرٌ علينا ثمَّ أهلَكَنا

بالبَغْــي فيــهِ فقدْ صِرْنــا أفانينا

كنّا زمانًا ملــوكَ الناسِ قَبلكُم

نأوِي بلادًا حرامًا كان مســكونا

وقــال عبيــد بن عبد العــزّى الســلاميّ يتذكّــر محبوبته رميم (البغداديّ، ١٩٩٩):

وَقَدْ كانَ في الهِجرانِ لو كُنتَ ناسِيًا

رَميمَ وَهَل يُنسى رَبيعٌ وَصَيِّفُ

وَلَم تُنسِني الأَيَامُ وَالبَغيُ بَينَنا

رَميمُ وَلا قَذفُ النَوى حينَ تَقذِفُ

وَلَم يَحلُ في عَيني بَديلٌ مَكانَها

وَلَم يَلتَبِس بي حَبلُ مَن يَتَعَطَّفُ

وقال عمرو بن معد يكرب الزَبيديّ (الطّائيّ، ١٩٩٨):

كَمْ مِنْ أخٍ لِي صالح

بَوَّأتهُ بيَدَيَّ لَحْدَا

مَا إنْ جَزِعْتُ وَلَا هَلِعْـ

ـتُ وَلَا يَرُدُّ بُكاىَ زَنْدَا

ألْبَسْتهُ أثوابَهُ

وَخُلِقتُ يَوْمَ خُلِقتُ جَلْدَا

أغْنِي غَناءَ الذَّاهبينَ

أعَدُّ لِلأعْدَاءِ عَدَّا

ذَهَـبَ الَّذِيـنَ أحِبّهُـمْ

وَبَقِيتُ مثِلَ السَّيْفِ فَرْدَا

المقدَمة الطَلليَة

واتّجاه الشّعراء للمقدمة الطلليّة لافتتاح قصائدهم إشارة واضحة إلى تذكّـر الذّكريات الحزينة، وقد كثر اسـتخدام المقدّمة الطّلليّة، بل كانت أشهر مقدّمة تُفتَتح بها القصيدة، وكانت مرتبطة بالحزن ورحيل المحبوبة، والأمثلة عليها كثيرة، قال امرؤ القيس الكندىّ (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

قفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ

بسِـقطِ اللِّوى بينَ الدَّخـول فحَوْملِ

فتوضحَ فالمقـراةِ لم يَعفُ رسمُها

لمـا نسـجتْها مـن جَنُـوب وَشَمْألِ

ترى بَعَـرَ الأرْآمِ فـى عَرَصاتِها

وقيعانِهـا كأنّـه حـبَّ فلفـلِ

كأنّى غَـداةَ البَيْنِ يَـوْمَ تَحَمّلوا

لدى سَمُـراتِ الحَىّ ناقِـفُ حنظلِ

وُقوفًـا بها صَحْبى عَلَـىَّ مَطِيَّهُمْ

يقُولـون لا تهلـكْ أسًـى وتجمّـلِ

وإنَّ شـفائى عـبرة ٌ مهراقـةٌ

فهـلْ عند رَسـمٍ دارِسٍ مـن مُعوَّلِ

وقال أيضًا (الكندىّ، ٢٠٠٤):

لِـمَن طَلَلٌ بَـينَ الجُدَيّـةِ والجبَل

مَحَـلٌ قَدِيمُ العَهدِ طَالَـت بِهِ الطِّيَل

عَفَـا غَـيرَ مُرتَادٍ ومَرّ كَسَـرحَبٍ

ومُنخَفَـضٍ طـام تَنَكّـرَ واضمَحَـل

وقال طرفة بن العبد البكرىّ (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

لِخَولةَ أطـلالٌ بِبُرقَـةِ ثَهمَدِ

تلوحُ كباقى الوشمِ فى ظاهرِ اليدِ

وُقوفًا بِها صَحبى عَلَيَّ مَطيَّهُم

يَقولــونَ لا تَهلِــك أَســًى وَتَجَلَّدِ

وقال زهير بن أبى سلمى المزنىّ (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

أَمِــن أُمِّ أَوفــى دِمنَــةٌ لَم تَكَلَّمِ

بِحَومانَــةِ الــدُرّاجِ فَالمُتَثَلَّــمِ

وَدارٌ لَهــا بِالرَقمَتَــينِ كَأَنَّها

مَراجِعُ وَشــمٍ فى نَواشِــرِ مِعصَمِ

بِها العِينُ وَالأَرآمُ يَمشينَ خِلفَةً

وَأَطلاؤُها يَنهَضنَ مِــن كُلِّ مَجثِمِ

وَقَفتُ بِها مِن بَعدِ عِشرينَ حِجَّةً

فَلَأيًــا عَرَفتُ الــدارَ بَعــدَ تَوَهُّمِ

أَثافِىَّ سُفعًا فى مُعَرَّسِ مِرجَلٍ

وَنُؤيًــا كَجِذمِ الحَــوضِ لَم يَتَثَلَّمِ

وقال أيضًا (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

لَمَنْ الدّيار بقُنَّةِ الحَجْرِ

أَقْوَيْنَ مذْ حِجَجٍ ومُذْ دَهْرِ

لَعِبَ الزّمانُ بها وغيَّرها

بعدى سَوَافِى الريحِ والقَطرِ

وقال أيضًا (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

لِمَنْ طَلَلٌ بِرامَةَ لا يَريمُ

عفا وأحالَهُ عهدٌ قديمُ

تُطالِعُنَى خَيَالاتٌ لسَلْمَى

كمَا يَتَطَالَعُ الدَّيْنَ الغَريمُ

وقال لبيد بن ربيعة العامرىّ (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

عفتِ الدّيارُ محلُّها فمُقامُهَا

بمنًى تأبَّدَ غوْلُها فَرِجَامُهَا

فمدافعُ الرَّيَّانِ عرِّىَ رسْمُها

خلقًا كما ضَمِنَ الوُحِىَّ سِلامُها

دمِنٌ تَجَرَّمَ بعدَ عَهْدِ أنِيسِـــها

حِجَــجٌ خَلَوْنَ حَلالُهَـــا وحَرَامُهَا

وقال عنترة بن شداد العبسىّ (التّبريزىّ، ٢٠١٠):

هلْ غادرَ الشُّــعراءُ منْ متردَّمِ

أمْ هلْ عرفــتَ الدارَ بعــدَ توهّمِ

يــا دارَ عَبلَةَ بالجَــواءِ تَكَلَّمى

وَعَمى صَباحًا دارَ عَبلَةَ وَاســلَمي

فَوَقَفــتُ فيها ناقَتــى وَكَأَنَّها

فَــدَنٌ لِأَقضِــىَ حاجَــةَ المُتَلَــوِّمِ

وَتَحُــلُّ عَبلَةُ بِالجَــواءِ وَأَهلُنا

بِالحَــزنِ فَالصَمّــانِ فَالمُتَثَلَّــمِ

حُيِّيــتَ مِن طَلَلٍ تَقــادَمَ عَهدُهُ

أَقــوى وَأَقفَــرَ بَعــدَ أُمِّ الهَيثَــمِ

وقال أيضًا (العبسىّ، ٢٠٠٤):

طالَ الثَّواءُ عَلى رُســوم المَنزِلِ
بَينَ اللَّكيكِ وبَــينَ ذاتِ الحَرمَلِ
فوَقفتُ فــي عَرصاتِها مُتحَيِّرًا
أَســلُ الديارَ كَفِعلِ مَــنْ لَم يَذهَلِ
لَعِبَت بِها الأَنواءُ بَعدَ أَنيسِها
والرَّامِســاتُ وكُلُّ جَــونٍ مُســبَلِ
أَفَمِــن بُكاءِ حَمامَةٍ فــي أَيكَةٍ
ذَرَفَتْ دُموعَكَ فَوقَ ظَهرِ المَحمِلِ
كَالدُّرِّ أَو فَضَضِ الجُمانِ تَقَطَّعَتْ
مِنــهُ عَقائِــدُ سِــلكِهِ لَم يوصَــلِ

وقال الحارث بن حلّزة اليشكرىّ (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

آذَنَتْنَــا بِبَينِهَــا أَسْمــاءُ
رُبَّ ثــاوٍ يُمَــلُّ مِنْــهُ الثَّوَاءُ
بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمَّاءَ
فَأَدْنَــى دِيارِهــا الخَلْصــاءُ

فالمحيّـــاةُ فالصِّفاحُ فأعنا

قُ فتـــاقٍ فعـــاذبٌ فالوفـــاءُ

فرياضُ القطا فأوديةُ الشُّر

بُـبِ فالشُّـعْبَتَانِ فالأَبــلاءُ

وقال النّابغة الذّبيانىّ (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

يـــا دارَ مَيّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّــنَدِ

أقْوَتْ وطالَ عليها ســالفُ الأبَدِ

وقفتُ فيها أُصَيلًا كَى أُسائِلَها

عَيَّتْ جوابًا ومــا بالرَّبعِ مِنْ أحدِ

إلّا أوارىَّ لأيًــا مــا أُبَيِّنُهَــا

والنُّؤى كالحَوْضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

وقال أيضًا (الذّبيانىّ، ١٩٩٦):

عفا ذو حُسًا مِنْ فَرْتَنى فالفوارعُ

فجنبــا أريــكٍ فالتّــلاعُ الدّوافعُ

فمجتمعُ الأشراجِ غيّرَ رسمَها

مصايــفُ مــرّتْ بعدنــا ومرابعُ

توَهّمْــتُ آياتٍ لهــا فَعَرَفْتُها

لِســتّةِ أعْــوام وذا العــامُ ســابِعُ

رَمــادٌ ككُحْلَ العينِ لأيًا أُبينُهُ

ونؤىٌ كجذمِ الحوضِ أثلمُ خاشعُ

كأنَ مجرّ الرّامســاتِ ذيولها

عليــه حصــيرٌ نمّقتــهُ الصّوانعُ

على ظَهْرِ مِبْنَاةٍ جَديدٍ سُيُورُها

يَطوفُ بها وسْــط اللّطيمــةِ بائعُ

فكَفْكفْتُ منّــى عَبْرَةً فرَدَدتُها

على النّحرِ منها مســتهلٌ ودامعُ

وقال عبيد بن الأبرص الأسدىَ (التّبريزىَ، ١٩٨٠):

أقفرَ مِــن أهلِهِ مَلحوبُ

فَالقُطَبِيّـــــاتُ فَالذُّنوبُ

فَراكِـــسُ فَثُعَيلِبـاتٌ

فَــذاتُ فِرقَــينِ فَالقَليــبُ

فَعَــرِدَةٌ فَقَفـا حِـبِرٍّ

لَيــسَ بِهــا مِنهُــمُ عَريبُ

وبُدِّلَت مِن أَهلِها وُحوشًا

وَغَيَّرَت حالَهــا الخُطوبُ

وقال العبّاس بن مرداس السلميّ (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

هل تعرفُ الطَّلَل القديمَ كأنَّهُ

وشْـمٌ بأسـفل ذى الخيام مُرَجَّعُ

بقِيتْ معارِفُــه على مَرِّ الصَّبا

بعــد الجميــعِ كأنّــه قــدْ يمْرُعُ

دارُ الّتى صادتْ فؤادَك بعدما

شمِــل المَفــارِقَ منكَ شـيبٌ أروعُ

وزعمتَ أنّك لا تُراحُ إلى الصَّبا

وعَلَتْــك منــه شـبيبةٌ لا تَرجعُ

وقال سَعية بن عُريض الحارثيّ (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

يا دارَ سُعْدَى بمَقْصَى تلعةِ النَّعمِ

حُيِّيتِ دارًا على الإقــواءِ والقِدَمِ

عُجْنا فما كلَّمتنا الدّارُ إذ سُئِلتْ

وما بها عن جوابٍ خِلتُ من صممِ

وما بجزعكِ إلا الوحشُ ساكنةً

وهامدٌ مــن رمادِ القــدرِ والحُمَمِ

وقال الربيع بن أبي الحقيق القريظيّ (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

دورٌ عفَتْ بِقُرَى الخابورِ غيَّرَها

بعدَ الأنيسِ سَوَافِي الرِّيحِ والمطرُ

إن تُمسِ دارُك ممَّنْ كان ساكنَها

وحشًا فَذَلِكَ صَرفُ الدّهرِ والغِيرُ

وقدْ تحلُ بهــا بِيضٌ ترائبُها

كأنَها بــين كُثْبَــانِ النَّقَــا البقرُ

وقال لقيط بن زرارة التميميّ (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

لَمَنْ دمنةٌ أقفرتْ بالجَنابِ

إلى السَّفحِ بينَ المَلاَ فالهضابِ

بكيتَ لعرفانِ آياتها

وهاج لك الشوقَ نعبُ الغرابِ

وقال مالك بن عويمر المتنخِّل (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

عَرفتُ بأَجْدُثٍ فنِعافِ عِرْقٍ

عَلاماتٍ كتَحْبيرِ النِّماطِ

كأنَّ مَزاحفَ الحيَّاتِ فيها

قُبيلَ الصُّبحِ آثارُ السِّياطِ

وقال بشر بن أبى خازم الأسدىَ (الجزرىَ، ٢٠١٠):

أتعرف من هُنَيْدَةَ رسمَ دارٍ

بحرجي ذُرْوَةٍ فإلى لواها

ومنها منزلٌ ببِراق خَبْتٍ

عفتْ حُقبًا وغيَّرَها بِلاها

وقال أميّة بن أبى الصّلت الثّقفىّ (القرشىّ، ١٩٨١):

عَرَفْتُ الدّارَ قَدْ أَقْوَتْ سِـنِينا

لِزَيْنَـبَ إذْ تَحِـلّ بِهَـا قَطِينَـا

وَأَذْرَتْهـا جَوافِـلُ مُعصِفَـاتٌ

كَمَـا تُـذرى المُلْمِلَمَـةُ الطَّحِينَـا

وَسَـافَرَتِ الرِّيَـاحُ بِهنّ عُصْرًا

بأذيـالٍ يَرُحْـنَ وَيَغْتَدِينَـا

فَأَبْقَـيْنَ الطّلُـولَ مُخَبَّيَـاتٍ

ثَلاثًـا كالحَمَائِـمِ قَـدْ بَلِينَـا

وَأَرِيًّـا لِعَهْـدِ مُرْتَـدَاتٍ

أَطَلْـنَ بِهَـا الصُّفُـونَ إذا افتُلِينَا

وقال حاجز بن عوف الأزدىّ (البغدادىّ، ١٩٩٩):

سَـأَلتُ فَلَم تكلّمُنى الرُسُـومُ

فَظَلْـتُ كَأَنّنـى فيهـا سَـقيمُ

بقارعةِ الغَريفِ فَذاتِ مَشْـيٍ

إلى العَصداءِ لَيـسَ بهـا مُقيـمُ

مَنــازِلُ عَذبَةِ الأنيــابِ خَودٍ

فَمــا إنْ مِثلُهــا فــى النّــاس نيمُ

فَأمّــا إنْ صَرَفــتُ فَغيرُ بُغضٍ

وَلكــن قَــد تُعَدِّينــى الهُمــومُ

وقال زهير بن مسعود الضَّبّىّ (البغدادىّ، ١٩٩٩):

أَقفَــرَ من سَــلمى يَناضيبُ

فَبَطــنُ ذى قــارٍ فَعُرقُــوبُ

فَواسِــطٌ أَقفَــرَ مِــن أَهلِــهِ

فَــذاتُ قرقَــينِ فَمَلحــوبُ

مَنازِلُ الحَــىِّ إِذا الحَىُّ لَمْ

تَشــعَبهمُ عَنــكَ الأَشــاعيبُ

وقال عامر بن جوين الطّائىّ (البغدادىّ، ١٩٩٩):

هــاجَ رَســمٌ دارِسٌ طَرَبًا

فطويلــــًا ظَلْــتَ مُكتَئِبــا

أنْ رأَيـتَ الدارَ موحِشَـةً

بلِغـاطٍ كَـم لَهـا رَجَبـا

دارَ هِنـدٍ بالسِّـتارِ وَقَـدْ

رَثَّ حَبـلُ العهـد فانقَضَبـا

بَينَ سـيلِ الواديَـينِ كَما

نَمنَـمَ ابنـا مُنـذِرٍ كُتُبـا

أَنبأتكَ الطَيرُ إذ سَـنَحَتْ

وَالغُـرابُ الوَحـفُ إذ نَعَبا

أنَ هِنـدًا غَـيرَ مُسـقِبَةٍ

بالدِّيـارِ كالَّـذى حَسِـبا

دراسات سابقة عن المقدَمة الطلليَة

تطـرّق حامد (٢٠١١) إلى المقدّمة الطلليّة، ووصفها بأنّها إضاءة الشّاعر لذاته، ثمّ البحث عنهـا فى الطلل، فالمقدّمـة الطلليّة إذًا ذات مدلـول نفسـى حزين، تُصـوِّر انفعالات الشّاعر المضطَربة، وأشجانه، وتعكس خلوَّ نفسـه من المشاعر الجميلة الّتى سكنتها، ورأى معمرىّ (٢٠١٨) أنّ الأطلال فى الشّـعر الجاهلىّ قد تجاوزت

معناها المادّى، حيث عنى بها الشـاعر نفســه، وأسقط تغيّر حالها على تغيّر مشـاعره، فكان البكاء على الأطلال وسيلة مناسبة لنقل الصورة الحزينة فى نفس الشّاعر.

التّعفّف عن الحاجات الأساسيّة كالنّوم والأكل

ومــن المظاهر الّتى زادت فى ارتفــاع درجة التّحفّظ فى المجتمع الجاهلى التعفّف عن الحاجات الأساسـّية مثل الأكل والنّوم، وهذا التّعفّف نتيجة لضغــوط اجتماعيّة تَصِف الفرد كثير الأكل أو النّوم بصفــات غير إيجابيّة مثل الكســل أو قلّة المــروءة، فيتعفّف الفرد عنها، ويفتخر بذلك، وقد ذكر عدّة شـعراء -تفاخرًا- تعفّفهم عن الطعام، فمثلًا ذكر الشّـنفرى الأزدىّ تعفّفه عن الاستعجال بالأكل خوفًــا من التصاق تهمة الجشـع بــه، قال الشّــنفرى (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

وإنْ مُدَّت الأيدى إلى الزّادِ لمْ أكُنْ

بأعجلِهِمْ إذْ أجْشَـعُ القومِ أعجلُ

وقال أيضًا (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

وَأغْدو خَمِيصَ البَطْن لا يَسْتَفِزُّنِى

إلى الــزّادِ حِــرْصٌ أو فُــؤادٌ مُــوَكَّلُ

ومن الضَغوط الاجتماعيّة الّتى دفعت بالشّـنفرى إلى التّعفّف عن الأكل أنّه لا يريد أن يرى فضلًا لأحد عليه، قال الشّـنفرى في ذلك (الهاشميّ، ١٩٦٩):

أُدِيـمُ مِطالَ الجوعِ حتّـى أُمِيتَهُ

وأضـربُ عنه الذِّكـرَ صفحًا فأذهَلُ

وأستفُّ تُربَ الأرضِ كيْ لا يرى لهُ

عَلـيَّ مـن الطَّـوْلِ امـرُؤ مُتطـوِّلُ

ولولا اجتنابُ الذأمِ يُلْفَ مَشربٌ

يُعـاشُ بـه إلا لـديَّ ومـأكلُ

ولكـنَّ نفسًـا مُـرةً لا تقيـمُ بى

علـى الضَيـمِ إلّا ريثمـا أتحـوّلُ

وكان تعفُّـف عنـترة العبسـيّ عـن الأكل لنفس هذا السّـبب، (العبسيّ، ٢٠٠٤):

وَلَقَـد أَبيتُ عَلى الطَوى وَأَظَلُّهُ

حَتّـى أَنـالَ بِـهِ كَريـمَ المَـأكَلِ

وهو نفس السبب الذى تعفّف من أجله أوس بن حجر المازنىّ عن

الأكل أيضًا، قال أوس (الدّينورىّ، ١٩٥٨):

تَرَكْتُ الخَبيثَ لم أُشارِكْ ولمْ أَذِقْ

ولكِـنْ أَعَـفَّ اللهُ مـالى ومَطْعَمِـى

وهنـاك من افتخر بـترك النّوم - الّـذى يعدّ حاجة إنسـانيّة أساسـيّة، وفيه راحة ورفاهيّة - فهذا تأبّط شـرًّا قـد افتخر بقلّة نومه وربطها بفروسيّته، فقال يصف نفسه (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

قليلِ غِـرارِ النّومِ أكـبرُ هَمِّهِ

دَمُ الثّـأرِ أو يلقـى كَمِيّـا مُقَنَّعا

ورثى دريد بن الصمّة الجشـمىّ عمّه خالد بن الحارث، ووصفه متفاخرًا بأنّه قليل النّوم، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

وليسَ بِمكْبابٍ إذا اللّيلُ جَنَّهُ

نـؤومٍ إذا ما أَدْلِجُـوا فى المُعَرَّسِ

ولكنّـه مِدْلاجُ ليلٍ إذا سَـرَى

يُنِـدُّ سُـراهُ كلَّ هـادٍ مُمَلّـسِ

اللهو والمرح

وإذا كانت المظاهر السّـابقة تشـير إلى ارتفاع درجة التحفّظ فى المجتمـع الجاهلى، فإنّ هنـاك مظاهرًا أخرى تسـير فى الاتّجاه المعاكـس، منها مظاهر اللهو والمرح. قال زهير بن مسـعود الضّبّىّ يصف ليالى قومه (البغدادىّ، ١٩٩٩):

يُسمَعُ للسّـامِرِ فيهم إذا
أَمسـوا أَغانـىُّ وَتَطريـبُ

دراسات سابقة عن اللهو والمرح

وصـف على (١٩٩٣) حياة الشّـباب فى الجاهليّـة، وقال أنّها مليئة باللهو وتمضية الوقت بالعبث، فكان الجاهليّون يتسـكّعون ويحاولون جلب انتباه النّساء بلبسهم وزينتهم.

شرب الخمر

ذُكرَ شـرب الخمر فى الفصل الخاصّ ببعد عـدم التيقّن كنتيجة لارتفاع نسبة القلق من الغموض، وكوسيلة للتّكيّف والتّعامل مع هذه النسـبة المرتفعة، فكان الخمر مقرونًا بالحرب، ولكنّ الخمر ارتبط فى مواضع أخرى بالمتعة واللهو، وفى هذا إشـارة إلى شـرب الخمر بهدف المرح، قال لبيد بن ربيعة العامرىّ (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

بل أنتِ لا تدرين كـم مِنْ ليلةٍ

طَلْـقٍ لذيـذٍ لَهْوُهـا ونِدَامُهـا

قَد بِـتُّ سـامِرَها وغَايةِ تاجرٍ

وافيـتُ إذ رُفِعَـتْ وَعَـزَّ مُدَامُها

أُغْلى السِّـباءَ بـكلِّ أدْكَنَ عاتقٍ

أو جَوْنَـةٍ قُدِحَتْ وفُـضَّ خِتامُها

بصَبوحِ صافيةٍ وجـذبِ كرينةٍ

بموَتَّـــرٍ تأتالُـــهُ إبهامُهَـا

بادرتُ حاجتَها الدَّجاجَ بسحرَةٍ

لأعَـلَّ منهـا حـينَ هـبَّ نيامُها

وقال الأعشى ميمون القيسى (التَّبريزى، ١٩٨٠):

لمْ يلهنى اللهوُ عنهُ حينَ أرقبهُ

وَلا اللـذاذَةُ مِنْ كأسٍ وَلا الكَسَـلُ

فقلتُ للشَّربِ فى درنى وقد ثملوا

شِيموا وكيفَ يَشيمُ الشَّارِبُ الثَّملُ

دراسات سابقة عن شرب الخمر

ذكر على (١٩٩٣) شيوع الخمر فى مجالس العرب فى الجاهليّة، وعدّه إحدى متع الحياة الثلاث بالنّسبة للشباب، وهى الخمر والنّساء والقمار، وأكّد انتشار الخمّارات فى كل مكان، كما سمّى بعض من تعفّفوا عن شرب الخمر، مثل الوليد بن المغيرة المخزوميّ، وعبدالله بن جدعان التيميّ، وقيس بن عاصم المنقرىّ، وعامر بن الظّرب العدوانىّ، وورقة بن نوفل الأسدىّ، وزهير بن أبى سلمى المزنىّ، والنّابغة الذّبيانىّ، إلّا أنّى لم أعثر على شعر فى ذلك.

استباحة النّساء

وقد يترافق مع الخمر وجود النّساء، قال طرفة بن العبد يذكر أهميّة الخمر والحرب والجنس فى حياته (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

ولولا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشةِ الفتى

وجدِّكَ لمْ أحفلْ متى قام عوَّدى

فمِنهُنَّ سَبْقى العاذِلاتِ بشَرْبَةٍ

كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزبِدِ

وكَرِّى إذا نادى المُضافُ مُحَنَّبًا

كسيدِ الغضا نبّهته المتورِّدِ

وتقْصيرُ يومِ الدَّجن والدَّجنُ مُعجِبٌ

ببهكنـةٍ تحـت الخبـاءِ المعَّمـدِ

وقال عبيد بن عبد العزّى السـلاميّ فى أهميّة صحبة الفرسـان والخمر والنّساء فى حياته (البغدادىّ، ١٩٩٩):

وَما العَيشُ إلّا فى ثَلاثٍ هِيَ المُنى

فَمَـن نالَهـا مِـن بَعـدُ لا يَتَخَوَّفُ

صِحابَـةُ فِتيـانٍ عَلـى ناعِجِيَّـةٍ

مَناسِمُهـا بِالأَمعَـزِ المَحـلِ تَرعُفُ

وَكَأسٌ بِأَيـدى السـاقِيَينِ رَوِيَّـةٌ

يُمِـدّانِ راوُقيهِمـا حـينَ تُنـزَفُ

وَرَبَّةُ خِـدرٍ يَنفَحُ المِسـكَ جَيبُها

تَضَـوَّعَ رَيّاهـا بِـهِ حـينَ تَصدِفُ

إِذا سُلِبَت فَوقَ الحَشِيّاتِ أَشرَقَت

كَما أَشـرَقَ الدِّعصَ الهِجانُ المُصَيَّفُ

وقال عدىّ بن زيـد العبّادىّ يذكر وجود القيان والخمر فى أحد مجالسه (ابن خلّكان، ١٩٩٤):

وَدَعَـوا بِالصَّبوحِ يَومًـا فَجاءَت
قَينَـــــةٌ فـى يَمينِهـا إِبريـقُ

قَدَّمَتـهُ عَلـى عُقـارٍ كَعَـينِ الدّ
يـكِ صَفَّـى سُـلافَها الـراووقُ

مُـرَّةٌ قَبـلَ مَزجِهـا فَـإِذا مـا
مُزِجَـتْ لَـذَّ طَعمُهـا مَـن يَـذوقُ

وَطَفـا فَوقَهـا فَقاقيـعُ كَاليـا
قـوتِ حُمـرٌ يَزينُهـا التَّصفيـقُ

ثُـمَّ كانَ المِـزاجُ مـاءَ سَحابٍ
لا صَـــدىً آجِـنٌ وَلا مَطـروقُ

أمّا المنخّل اليشـكرىّ فقد ذكر الخمر مرتبطًا بعلاقة جنسيّة مع امرأة، فقال (الطّائىّ، ١٩٦٩):

وَلَقَـد دخلـتُ على الفتا

ةِ الخـدرَ فِى الْيَـوْم المطيرِ

الكاعـبِ الْحَسْـنَاءِ تـرْ

فلُ فِى الدِّمَقْسِ وَفِى الْحَرِيرِ

فَدَفَعتُهـــا فَتَدافَعَـتْ

مشـىَ القطـاةِ إلَى الغديـرِ

ولَثمْتُهـــا فَتَنَفَّسَـتْ

كتنفَّـسِ الظَّبـى الغريـرِ

فدنتْ وَقَالَـت يَا منخَّل

مَـا بجسـمك مـن حـرورِ

مَا شفَّ جسمي غير حبِّكِ

فاهدئـى عنّـى وسـيرى

وأحبُّهـــا وتحبُّنى

وَيُحـبُّ ناقَتها بَعِـيرى

وَلَقَد شـــربتُ من المدامةِ

بالصغـــــــيرِ وبالكبـيرِ

فَـإِذا انتشـيتُ فإنّنــى

ربُّ الخَوَرْنَــق والسـديرِ

وَإِذا صحـــوْتُ فإنّنــى

ربُّ الشُّــويهةِ وَالْبَعِـيرِ

وذكــر المرقِّش الأكبر البكرىّ علاقة جمعته بفتاة أيّام شــبابه، فقال (الأصفهانىّ، ٢٠١٠):

ورُبَّ أسِـيلةِ الخدّين بِكْرٍ

مُنَعَّمَـةٍ لهــا فَــرْعٌ وجِيـدُ

وذُو أُشُرٍ شَتِيتُ النَّبْتِ عَذْبٌ

نَقِــىّ اللــونِ بَــرّاق بَــرُودُ

لَهوْتُ بها زمانًا فى شبابى

وزارَتهــا النّجائــبُ والقصيدُ

أُنــاسٌ كلّمــا أَخْلَقْتُ وصلا

عَنانــى منهُــمُ وَصْــلٌ جَدِيدُ

وافتخر ورقة بن نوفل الأسـديّ القرشيّ بعلاقة جنسيّة له أيّام شبابه، فقال (الأصفهانيّ، ٢٠١٠):

ولقد دخلتُ البيت يُخشى أهلهُ

بعدَ الهدُوءِ وبعدما سـقطَ النّدى

فوجدتُ فيه حـرّةً قد زيّنت

بالحَلْيَ تحسَـبهُ بها جمرَ الغَضا

فنعمتُ بالًا إذ أتيتُ فراشـها

وسقطتُ منها حينَ جئتُ على هوى

فَلَتِلْكَ لذّاتُ الشّـبابِ قضيتُها

عنّي فسـائلْ بعضهم مـاذا قَضى

وقال امرؤ القيس يذكر علاقة له بامرأة (الكنديّ، ٢٠٠٤):

يـا رُبّ غانِيَـةٍ لَهَـوتُ بِها

وَمَشَـيتُ مُتَئِدًا عَلـى رسـلى

وقال أيضًا يصف علاقة جنسيّة مع امرأة متزوّجة (الدّينوريّ، ١٩٥٨):

سَمَوْتُ إليها بَعْدَ ما نامَ أَهْلُها

سُمُوَّ حَبابِ المـاءِ حالًا على حالِ

فقالتْ سَـبَاكَ الله إنَّكَ فاضحِي

أَلَسْتَ تَرى السُّمَّارَ والنَّاسَ أَحْوالى

فقُلْتُ يَمِـينَ اللهِ أَبْـرَحُ قاعِدًا

ولَوْ قَطَعوا رَأسِـي لَدَيْكِ وأَوْصَالى

حَلَفْـتُ لها بـاللهِ حَلْفَةَ فاجِرٍ

لَنامُوا وما إنْ من حَدِيثٍ ولا صالى

فلمَّا تَنازَعنا الحَديثَ وأَسْمَحَتْ

هَصَرْتُ بغُصْنٍ ذى شَمَارِيخَ مَيَّالِ

وصِرْنا إلى الحُسْنى ورَقَّ كَلامُنا

ورُضْـتُ فذَلَّتْ صَعْبَـةً أيَّ إذْلالِ

فأَصْبَحْتُ مَعْشُوقًا وأَصْبَحَ بَعْلُها

عَلَيْـهِ القَتَامُ سَـيِّىءَ الظَّنِّ والبالِ

وقال يصف مراودته لعنيزة، ويذكر علاقات جنسـيّة سابقة له (التّبريزىّ، ١٩٨٠):

ويومَ دخلتُ الخدرَ خدرَ عنيزةٍ

فقالتْ لكَ الويــلاتُ إنكَ مُرجلى

تقــولُ وقد مالَ الغَبيطُ بنا معًا

عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزلِ

فقُلتُ لها سيرى وأرْخى زِمامَهُ

ولا تُبعدينــى من جنــاك المعلَلِ

فمِثلِكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضعٍ

فألهيتُهــا عــن ذى تمائمَ محولِ

إذا ما بكى من خلفها انْصَرَفَتْ لهُ

بشِــقٍّ وَتحتــى شِــقُّها لم يُحَوَّلِ

وقال أيضًا يصف علاقة له مع امرأة (التّبريزىَ، ١٩٨٠):

وبيضَــةِ خدرٍ لا يــرامُ خباؤها

تَمَتَّعــتُ من لَهْوٍ بها غــيرَ مُعجَلِ

تجاوزْتُ أحْراسًا إلَيها ومَعْشَرًا

علىَ حِراسًــا لــو يُســروَن مقتلى

إذا ما الثّريا فى السّماءِ تعرَّضَتْ

تعــرُّضَ أثنــاءَ الوشــاحِ المفصَّــلِ

فجِئْتُ وقد نَضَّــتْ لنَوْمٍ ثيابَها

لــدى السِّــترِ إلاَّ لِبْسَــةَ المُتَفَضِّــلِ

فقالت يمــين اللهِ ما لَــك حيلةٌ

وما إنْ أرى عنــك الغوايةَ تنجلى

خَرَجْتُ بها أمشى تَجُرّ وَراءَنا

علــى أثَرَيْنــا ذَيْــلَ مِــرْطٍ مُرَحَّلِ

فلما أجزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى

بنا بطنُ خَبْــتٍ ذى حِقافٍ عَقَنْقَلِ

هصرتُ بِفوْديْ رأسِها فتمايلتْ

عليَّ هضيمَ الكَشـحِ رِيَّـا المُخَلخَلِ

إذا اِلتَفَتَت نَحوى تَضَوَّعَ ريحُها

نَسيمَ الصَبا جاءَت بِرَيّا القَرَنفُلِ

مُهَفهَفَةٌ بَيْضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ

ترائبها مصقولةٌ كالسَّجنجلِ

ووصف بعض الشعراء علاقات لهم مع أكثر من امرأة، قال عدىّ بن زيد العبّادىّ (الدّينورىّ، ١٩٥٨):

بَنَاتِ كِرَامٍ لم يُرَبْنَ بِضُرَّةٍ

دُمًى شَرِقَاتٍ بالعَبِيرِ رَوَادِعَا

لَهَوْتُ لَهُنَّ بين سِرٍّ ورَشْدَةٍ

ولم آلُ عن عَهْدِ الأَحِبَّةِ خادِعَا

يُسَارِقْنَ مِ الأَسْتَارِ طَرْفًا مُفَتَّرًا

أو يُبْرِزْنَ من فَتْقِ الخُدُورِ الأَصَابِعَا

وقال عدىّ بن وادع الأزدىّ (البغدادىّ، ١٩٩٩):

وَحورٍ قد خَزَزتُ لهنَّ طَرفى

لذيذاتِ المَودَّةِ والعِناقِ

يَدُفنَ الزعفرانَ عَلى خُدودٍ

نواعــمَ لا كَلِفــنَ ولا بهــاقِ

كأَنَّ وجوهَهــنَّ مُتونُ بيضٍ

جَلَتها الشّمسُ فى ذَرِّ الشِراقِ

لَذيذاتِ الشَّبابِ مُخصَّراتٍ

مَخاصرُهــنَّ فــى نشرٍ رقَاقِ

ويبدو من شــعر امــرئ القيس الكندىّ أنّ علاقتــه بفرتنى وهرّ علاقة متزامنة، قال امرؤ القيس (الكندىّ، ٢٠٠٤):

أغادىَ الصّبوحُ عندَ هرٍّ وفرتنى

وليدًا وهل أفنى شــبابى غيرُ هرْ

إذا ذقتُ فاها قلتُ طعمَ مدامةٍ

معتّقــةٌ ممّا تجــيءُ بــه التُّجُرْ

هُمَا نَعجَتَانِ مِنْ نِعَــاجِ تَبَالَةٍ

لدى جُؤذَرَينِ أوْ كبعض دمى هَكِرْ

إذا قَامَتَا تَضَوَّعَ المِسْــكُ مِنْهُمَا

برائحــةٍ مــن اللّطيمــةِ والقُطُرْ

وفى المقابل فقد ذكر القليل من الشــعراء تعفّفهم عن العلاقة مع النّســاء، قال الشّــنفرى الأزدىّ يصف نفســه بأنّه ليس ذاك الفتى الّذى يتكحّل ويتعطّر لينال إعجاب النّساء (الهاشمىّ، ١٩٦٩):

وَلَسْتُ بِمِهْيَافٍ يُعَشّى سَوَامَه

مُجَدَّعَــةً سُــقْبَانُها وَهْــىَ بُهَّلُ

ولا جُبَّأٍ أكْهَى مُرِبٍّ بِعِرْسِــه

يُطَالِعُها فى شَــأْنِهِ كَيْــفَ يَفْعَلُ

وَلاَ خَــرِقٍ هَيْــقٍ كَأَنَّ فــؤادَهُ

يَظَــلُّ بــه المُــكَّاءُ يَعْلُو وَيَسْــفُلُ

ولا خَالِــفٍ دارِيَّــةٍ مُتَغَــزِّلٍ

يَــرُوحُ وَيغْــدُو داهنًــا يَتَكَحَّــلُ

وذكر عنترة بن شدّاد العبسىّ لعبلة عدم تزيّنه وتعطّره لانشغاله بالحرب، فقال (العبسىّ، ٢٠٠٤):

عَجِبَت عُبَيلَةُ مِن فَتىً مُتَبَذِّلِ

عاري الأَشاجِعِ شـاحِبٍ كَالمُنصُلِ

شَـعِثِ المَفارِقِ مُنهَجٍ سِربالُهُ

لَم يَدَّهِـن حَـولاً وَلَم يَتَرَجَّـلِ

لا يَكتَسي إِلّا الحَديدَ إِذا اِكتَسى

وَكَـذاكَ كُلُّ مُغـاوِرٍ مُستَبسِـلِ

قَد طالَمـا لَبِسَ الحَديـدَ فَإِنَّما

صَـدَأُ الحَديـدِ بِجِلدِهِ لَم يُغسَـلِ

وذكـر عنترة تعفّفـه عن النّظر إلى النّسـاء لقيمـة خُلُقيّة عنده (العبسيّ، ٢٠٠٤):

وأَغُضُّ طرفي إن بدَتْ لي جارَتي

حتّـى يُـواري جارتـي مأْواهـا

دراسات سابقة عن استباحة النّساء

أشـار ضيف (٢٠٠٨) إلى شـيوع استباحة النّسـاء في المجتمع الجاهلـيّ، وعدّد عـدّة مهن كانت تقوم بها الإمـاء، من ضمن هذه

المهن «عاهرات يتّخذن الأخدان» و«قينات يضربن على المزهر وغيره فـي حوانيت الخمّارين»، وذكر طقّوش (٢٠٠٩) وجود ما يُعرَف بـ «صاحبات الرايات» فـي المجتمع الجاهليّ، وهنّ بغايا يضعن على أبوابهنّ أعلامًا، ولا يمنعن من يأتيهنّ، وأكّد النّعيمات والسويدات (٢٠١٤) وجود «صاحبات الرايات» في الجاهليّة كعلامة على مكان يُمارس فيه البغاء، الّذى انتشـر كثيرًا لعدّة أسـباب منها الانتفاع المادى لأصحاب الإماء، وكذلك وُجِدَ الزّنا السّرى بكثرة، وهو اتّخاذ الخدن، وليس العرض لأى رجل مثل «صاحبات الرايات».

***



المراجع

المراجع العربيّة:

ابن خلّكان، شمس الدين بن أحمد. (١٩٩٤). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (تحقيق احسان عبّاس). بيروت: دار صادر.

أبو الرّبّ، ابتسام نايف صالح. (٢٠٠٦). صور الحرب وأبعادها الأسطورية فى الشعر الجاهلى. أطروحة ماجستير، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، فلسطين.

الأسدىّ، عبيد بن الأبرص. (١٩٩٤). ديوان عبيد بن الأبرص. (تحقيق أشرف أحمد عدرة). بيروت: دار الكتاب العربى.

الأصفهانىّ، أبو الفرج، (٢٠١٠). الأغانى (إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم). القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.

الأصمعىّ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب. (١٩٦٣). الأصمعيّات، الطّبعة الثّالثة (تحقيق أحمد محمد شاكر أبو الأشبال وعبد السلام محمد هارون). القاهرة: دار المعارف.

الأندلسىّ، أبو محمد على بن أحمد بن حزم. (١٩٦٢). جمهرة أنساب العرب، الطّبعة الخامسة (تحقيق وتعليق عبد السّلام محمّد هارون). القاهرة: دار المعارف.

بَرُّونة، محمّد. (٢٠٠٩). شعر الصّعاليك: قراءة فى

المـتن. Insaniyat/إنسـانيات. Revue algérienne d'anthropologie et de sciences sociales. (٤٦)، ص. ٦٥-٨٢.

البغـدادىّ، ابن ميمون محمّـد بن المبـارك. (١٩٩٩). منتهى الطّلب من أشـعار العرب (تحقيق وشـرح د.محمّد نبيل طريفى). بيروت: دار صادر.

البكرىّ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز. (١٩٧١). فَصْل المقال فى شرح كتاب الأمثال (تحقيق د.إحسان عبّاس). بيروت: مؤسّسة الرسالة.

التّبريـزىّ، يحيى بن على. (١٩٨٠). شـرح المعلّقات العشـر (تحقيق سمير شمس) بيروت: دار الآفاق الجديدة.

الجزرىّ، ابن الأثـير. (٢٠١٠). الكامل فى التّاريخ (علّق عليه سيّد السِنّارى). القاهرة: دار الحديث.

حامد، أبوهدايا ضوالبيت. (٢٠١١). الذّات الضائعة فى القصيدة الجاهليّة: دراسـة فى المقدمة الطلليّة وصورة الحيوان. مجلة كلية الآداب - جامعة بنها. ص.٢١٩-٢٥٤.

الحوفى، أحمد محمّـد. (١٩٦٣). المرأة فى الشّـعر الجاهلى، الطّبعة الثانية. القاهرة: دار الفكر العربى.

خضـر، فتحـى. (٢٠٠٥). وصايا الآبـاء فى الشّـعر الجاهلى والإسـلامى. مجلّة جامعة النّجاح للأبحاث (العلوم الإنسـانيّة)،

١٩(٤)، ص.١١٦٩-١١٩٦.
الدّينوريّ، ابن قتيبة. (١٩٥٨). الشّعر والشّعراء (تحقيق أحمد محمد شاكر). القاهرة: دار المعارف.
الذّبيانيّ، النّابغة. (١٩٩٦). ديوان النّابغة الذّبيانيّ، الطّبعة الثّالثة (تحقيق عبّاس عبد الساتر). بيروت: دار الكتب العلميّة.
الزّبيديّ، عمرو بن معدى كرب. (١٩٨٥). شعر عمرو بن معدى كرب الزبيديّ، الطّبعة الثّانية (جمع وتنسيق مطاع الطّرابيشى). دمشق: مجمع اللغة العربيّة.
الزّوزنيّ، حسين بن أحمد. (١٩٩٣). شرح المعلّقات السّبع (تحقيق لجنة التّحقيق فى الدّار العالميّة). بيروت: الدّار العالميّة.
السّعيدى، عبد الكريم خضير، وخلاوى، سهام رشيد. (٢٠١٧). التّهديد والوعيد فى الشّعر الجاهليّ. مجلّة ميسان للدّراسات الأكاديميّة، ٣١. ص.١-١٣.
سليمان، ختام. (٢٠١٥). شعر الحكمة بين الجاهليّة والإسلام: شعر الطّائف أنموذجًا. مجلّة الأستاذ. ٢١٤(١).
شيخو، لويس. (١٩٩١). شعراء النّصرانيّة قبل الإسلام، الطّبعة الرّابعة. بيروت: دار المشرق.
الضّبيّ، المفضّل بن محمد. (١٩٢٠). المفضليّات (شرح القاسم الأنبارى). بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيّين.
ضيف، شوقى (٢٠٠٨). تاريخ الأدب العربى: العصر الجاهلى.

القاهرة: دار المعارف.
الطّائيّ، أبـو تمّام حبيب. (١٩٩٨). ديوان الحماسـة (تحقيق أحمد حسن بسج). بيروت: دار الكتب العلميّة.
طقّوش، محمّد سـهيل. (٢٠٠٩). تاريخ العرب قبل الإسـلام. بيروت: دار النّفائس.
العامـريّ. لبيـد بن ربيعـة. (٢٠٠٤). ديوان لبيـد بن ربيعة (عناية حمدو طمّاس). بيروت: دار المعرفة.
العبّـادىّ، عدىّ بن زيد. (١٩٦٥). ديوان عدىّ بن زيد العبّادى (تحقيق وجمع محمّد جبّار المعيبد). بغداد: شركة دار الجمهوريّة للنّشر والطّبع.
عبدالرحيم، عبـد الرّحيم عصام أحمد، وأحمد، بشـير محمّد بشـير (٢٠١٧). الأبعاد الاجتماعية والنّفسيّة فى شعر الصّعاليك. مجلّة العلوم التربويّة – جامعة السّودان للعلوم والتّكنولوجيا.
العبسىّ، عروة بن الورد. (١٩٩٨). ديوان عروة بن الورد أمير الصّعاليك (دراسـة وشرح وتحقيق أسماء أبو بكر محمد). بيروت: دار الكتب العلميّة.
العبسـىّ، عنترة بن شـدّاد. (٢٠٠٤). ديوان عنترة بن شدّاد، الطّبعة الثّانية (عناية وشرح حمدو طمّاس). بيروت: دار المعرفة.
علـى، جواد. (١٩٩٣). المفصّل فى تاريخ العرب قبل الإسـلام، الطّبعة الثّانية. بغداد: جاممعة بغداد.

علـــى، رباح. (٢٠١٣). البحث عن الذّات في الشّــعر الجاهلي. رسالة دكتوراه، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا.

الفجّــاوىّ، عمر عبــد الله، والعمرىّ، ليلى توفيق، وقورشـــة، أمجــد محمّــد. (٢٠١٤). آراء الإمــام الشّــافعي المتعلّقــة ببعض العــادات الجاهلية: عرض و دراســة Al-Imam Al Shafi's Views about Some Pre-Islamic Traditions: A Presentation and an Analysis. Dirasat: Human and Social Sciences, ٤٨(٣٣٧٥), pp.١-١٧.

القــالىّ، اسماعيل بن القاســم. (١٩٧٦). ذيل الأمــالى والنّوادر (تقديــم محمّد عبد الجــواد الأصمعى). القاهــرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.

القرشىّ، أبو زيد. (١٩٨١). جمهرة أشعار العرب فى الجاهليّة والإسلام (تحقيق على محمد البجاوى). القاهرة: دار نهضة مصر.

القيســىّ، الأعشــى ميمون. (١٩٥٠). ديوان الأعشــى الكبير: ميمون بن قيس (شــرح وتعليق د.محمّد حســين). القاهرة: مكتبة الآداب.

القيســىّ، طرفة بــن العبــد. (٢٠٠٢). ديوان طرفــة بن العبد (تحقيق مهدى محمد ناصر الدين). بيروت: دار الكتب العلميّة.

الكنــدىّ، امرؤ القيس. (٢٠٠٤). ديــوان امرئ القيس، الطّبعة الخامســة (ضبــط وتصحيح مصطفى عبد الشّــافى). بــيروت: دار

الكتب العلميّة.

المزنـــيّ، زهير بن أبي ســلمي. (١٩٨٨). ديــوان زهير بن أبي ســلمي. (شــرح وتقديم على حســن فاعور). بــيروت: دار الكتب العلميّة.

المعافريّ، عبد الملك بن هشــام. (١٩٩٠). السّيرة النبويّة (سيرة ابن هشــام)، الطّبعة الثّالثة، (تحقيق عمر عبد الســلام تدمرى). دمشق: دار الكتاب العربي.

معمريّ، فواز. (٢٠١٨). جماليّات المكان في الشّــعر الجاهلي. أطروحة دكتوراه. جامعة محمّد بوضياف، المسيلة، الجزائر.

النّعيمات، سلامة صالح، والسّويدات، عائشة سليمان. (٢٠١٤). البغاء عند العرب قبل الإسلام. المجلة الأردنيّة للعلوم الاجتماعيّة. ٧(١). ص.١-٩.

الهاشمــي، أحمد بــن ابراهيــم. (١٩٦٩). جواهــر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب. القاهرة: المكتبة التّجاريّة الكبرى.

English References

Hofstede, G. (٢٠١١). Dimensionalizing cultures: The Hofstede model in context. Online readings in psychology and culture, ٢(١), pp.٨-٢٦.

.Hofstede, G., Hofstede, G. and Minkov, M
Cultures and organizations: Software .(۲۰۱۰)
of the mind, intercultural cooperation and its
۳rd edition. New York, .importance for survival
.NY: McGraw-Hill
Human Ignorance .(۲۰۱۳) .Khan, A
(Jahiliyyah): Past & Present. Dialogue
.(٤)۸ ,((Pakistan
Out of Jahiliyya: .(۲۰۰٤) ,.Rodgers-Miller, B.D
Historic and Modern Incarnations of Polygamy
in the Islamic World. William & Mary Journal
.٥٦۲-٥٤۱.pp ,(۳)۱۱ ,of Women & the Law
CulturallySpeaking..(۲۰۰۸).Spencer-Oatey, H
Culture, Communication and Politeness
.۲nd edition. London: Continuum .Theory
Pew Research Center's Religion & Public Life
The Global Religious Landscape. .(۲۰۱۲) .Project
Available at: http://www.pewforum.
global-religious-landscape-exec//۱۸/۱۲/۲۰۱۲/org
.[۲۰۱۸ .Jun ۸ [Accessed

الفهرس

***



ثقافة العرب فى الجاهلية

هذا الكتاب دراسة موضوعية لثقافة العرب فى فترة ما قبل الإسلام، والمعروفة فى الأدب بالجاهلية، إذ إن دراسة هذه الفترة لها أهميتها التاريخية، حيث تمثل البيئة التى ظهر فيها الدين الإسلامى، الذى يعد من أكثر الديانات اتباعًا. وقد تم التعامل مع شعراء هذه الفترة من خلال البحث عن شعرهم فى مراجع الأدب العربى وتحليله بناء على نظرية حديثة فى الثقافة لم يسبق عرضها فى أى كتاب من قبل، إذ يتعرض لأحداث مهمة فى هذه الفترة مثل: حرب البسوس، داحس، الغبراء، قتل عمرو بن هند، وظهور الصعاليك، مبينًا الأسباب التى أدت إلى هذه الحروب.





